
الخليج
تأليف جُون بُولوك
ترجمَة دهَام موسَى العَطاونة
مكتبة
مؤمن قريش

الخليج

• تأليف جون بولوك • ترجمة دهام موسى العطاونة



مطبوعات دهام موسى العطاونة

John Bulloch

THE GULF

Translated By: Dahham Musa Alatawneh

D A Publications
8 Castellain Road
London W9
England
Tel: (01) 289 6660

Printed By: DELUXE PRINTERS 01-965 1771

لندن ١٩٨٨

لقدْ آنَ الصَّبُوحُ فقُمْ حبيبي
وَهَاتِ الرَّاح وَاشرعْ بالغناءِ
فَكَمْ «جمشيد» أرْدى أو «قُبَادٍ»
مَجيءُ الصيْفِ أو مر الشِتاءِ

رباعيات عمر الخيام

---

(١) جمشيد أحد ملوك الفرس القدماء وكان مشهوراً بانهماكه في المسكرات والملذات.

(٢) قباد احد ملوك الفرس الأكاسرة

كلمة شكر

أتقدم بجزيل شكري الى عشرات المسؤولين الحكوميين في دول الخليج الذين قاموا عبر السنين بتوضيح خبايا تاريخ بلدانهم وشرح سياساتها، والى الدبلوماسيين من مختلف الدول الذين ساهموا بخبرتهم ونفاذ بصيرتهم في إعداد مواد هذا الكتاب. وإني لمدين للملحق الصحافي وموظفي سفارة دولة قطر في لندن، والى المسؤول عن مكتبة سفارة دولة الامارات العربية المتحدة في لندن، لما قدموه إلي من مساعدة قيّمة. وأشكر كذلك العاملين في شركات النفط والى رجال الاعمال ومئات المواطنين العاديين الذين جعلوني أهلا لثقتهم. اشكرهم جميعا وأقول بأن جميع الافكار المعبر عنها في هذا الكتاب هي افكاري.

جون بولوك

المحتويات

١ ـ الخليج اليوم ١

٢ ـ زوال العهد القديم ٢٥

٣ ـ تحديد الحدود ٥٣

٤ ـ البترول: شيك على بياض ٨٩

٥ ـ العبيد والمهاجرون ١١٧

٦ ـ التجار والمغامرون ١٣١

٧ ـ الحياة في الخليج ١٥٥

٨ ـ نمط الاحتلال ١٧١

٩ ـ بقايا الماضي ٢٠١

١٠ـ خليج الغد ٢١٤

الجزء الأول

الخليج اليوم

● البحرين تنضم الى البر ● جدال حول مستقبل قطر ● الخور لا يزال قلب دبي ● أبو ظبي وتحويل واحة الى مدينة مترامية الاطراف

ان كلمة «الخليج» هي إصطلاح شامل يستعمله العرب والاوروبيون والامريكيون والسوفيات على حد سواء للاشارة الى جزء من العالم، الى مجموعة من الناس وكثيرا ما يستعمل للاشارة الى كيان سياسي او حتى وجهة نظر. ومع ذلك فإنها إصطلاح حديث الاستعمال وتعني حتى الآن اشياء كثيرة لأناس مختلفين: فالبحّار مثلا يستعملها للاشارة الى البحر المحاط باليابسة والممتد من مضيق هرمز حتى مدخل شط العرب. وبالنسبة للايراني قد تعني تلك المنطقة الممتدة من عبدان حتى بندر عباس. أما بالنسبة للعرب فهي تعني مجموعة من الدول تمتد من الكويت حتى رأس الخيمة. وتشير هذه الكلمة في الغرب الى مجموعة من البلدان التي تزودّ العالم الحر بمعظم بتروله. أما بالنسبة للروس فهي تعني مجموعة من الدول الاقطاعية الرجعية. لقد كانت هذه المنطقة معروفة في الغرب في الماضي القريب بإسم «الخليج الفارسي»، ولقد أمر شاه إيران الراحل بفصل رئيس تحرير جريدة كانت تصدر باللغة الانجليزية في طهران لأنه سمح للتسمية «الخليج العربي» والتي كانت قد وردت ضمن تقرير لاحدى وكالات الانباء بأن تُنشر في جريدته، ومما يذكر أن محررا في السعودية لقي نفس المصير عندما وقع في نفس الغلطة بإستعماله الاصطلاح «الخليج الفارسي».

يتكونّ الخليج لاعتبارات عملية من الكويت والبحرين وقطر والامارات العربية المتحدة. إن السعودية هي جزء من الخليج ولكنها كبيرة للغاية وهامة

للغاية وفذة للغاية لدرجة أنه ليس من المعقول أن تُجمع من غير تمييز مع جاراتهـا الصغـيرات. وينـطبق هذا الى حد كبير على إيران، علاوة على أن الايـرانيـين ليسـوا عربـا. اما عُمان فهي مفصولة عن البقية من الناحية الجغـرافيـة ومن حيث إختلاف وجهات نظرها ومفاهيمها: إنها تتطلع عبر المحيط الى الهند وباكستان وأفريقيا الشرقية، وهي معنية أكثر بما يحدث في اليمن الجنوبي مما يحدث في أبو ظبي. ولا يمكن إعتبار الامارات العربية المتحدة وحدة متجانسة، فالفجيرة تختلف عن دبي كإختلاف بريطانيا عن الكويت. فلكل دولة من هذه الدول طابعها الخاص وذلك بسبب الطريقة التي تطورت بها كل واحدة منها: لقد كانت هذه الدول بلداناً مستقلة عبر العصور وذلك الى حد ما بسبب مصـادفـات تاريخية قللت تأثيرات النفوذ الاجنبي عليها. والآن إن الاشياء التي توحدها هي المخاوف المشتركة والارتياب من القوى الخارجية، والنفط الذي من المحتمل أن يكون اكثرها مدعاة للخلاف.

إنـه لمن السهل حقا تكوين افكار سريعة سطحية عن جميع الاماكن في الخليج مثل القول بأن الكويت هي اغنى مكان على وجه الارض أو أن قطر مملة أو أن دبي هي مركز تجاري عظيم أو أن رأس الخيمة، بخضرتها التي تميزها عن محيطها الرملي، تعيش على ذكريات ماضيها المجيد. ومع ذلك فإن لكل واحدة من هذه الدويلات خصائصها ونكهتها الخاصة ويقوم حكامها، وربما بلا وعي، بالكثير من أجل المحافظة على شخصيتها الفريدة. وإنه بلا شك لهـراء إقتصـادي أن يكـون لكـل منهـا مطارها الخاص المبني طبقا للمواصفات العالمية، لدرجة أن البعد بين مطاري دبي والشارقة لا يزيد على اثنين وثلاثين كيلومتراً. ومع ذلك فإن وقع الهبوط بالنسبة للمواطن العائد في رأس الخيمة أو الشارقة أو دبي أو أبو ظبي هو أكبر من مشاهدة لوحة تحمل اسم «الامارات العربية المتحدة» في صالة المطار.

لقـد كانت سرعة التقدم في الخليج اكبر منها في أي مكان في العالم: إن بإستطاعة المال ان يحقق المعجزات ولقد حقق ذلك بالفعل. فلقد تغيرت ملامح الكويت وقطر والامارات العربية كلياً في أقل من عقدين من الزمن، فتحولت من كونها أماكن متخلفة الى مدن من أحدث المدن في العالم والى مراكز مصرفية والى قوى مالية عالمية. إن التجار الذين كانوا يديرون متاجر صغيرة أصبحوا

اليوم يتحكمون في شركات عالمية، اما الشبان الذين كان من المحتم بالأمس ان يصبحوا رعاة غنم فلقد أصبحوا اليوم يجيدون إعداد برامج الكومبيوتر، ويستقل الرجال الذين كانوا في الماضي يعتبرون قطع الخليج في مركب مغامرة كبرى، يستقلون الطائرة يوميا بلا مبالاة من البحرين الى السعودية.

لقد فعل البترول في كل دولة من دول الخليج العجائب ولكنه لم يغيّر بعد طابع وجو كل مكان. وهكذا فتبدو البحرين أكثر ديمومة، وأكثر رسوخا من اي مكان آخر، ويعود ذلك الى حد كبير الى انها كانت دائما مفترق طرق ومركزا تجاريا لكل مدن الخليج الجنوبي ولأنها كانت أول من إستفاد من عائدات البترول. إن النفط اليوم في طريقه الى النفاذ في البحرين ولهذا قام الرجال الاذكياء الذين يديرون البلاد بتحويلها الى مركز مالي عالمي وبنوا مصهرا ضخما للألمنيوم وحوض سفن جافا وعدد من المشاريع الأخرى ومع ذلك فإن هذه الأشياء لم تغيّر أسلوب البحرين الاساسي وهو الأيمان الراسخ بمقدرة الدولة على البقاء على الرغم من كل شيء. لقد ساعد وضعها الجغرافي في ذلك طبعا. إن البحرين هي أرخبيل مكون من ٣٣ جزيرة ويعيش معظم السكان على الست جزر الرئيسية من بينها. وإنه لمن أغرب الامور أن خريطة البحرين تتغير على الدوام، فهي تكبر من عام الى عام نتيجة لعمليات إستصلاح الاراضي. ففي الماضي كان فندق دلمون يتباهى في إعلاناته بكونه «الفندق الممتاز الوحيد فوق البحر». اما اليوم فهناك فنادق ممتازة أخرى فوق البحر وأصبح فندق دلمون نفسه الآن في البر. ولقد تم إنشاء فندق هلتون وفندق شيراتون فوق ارض شُكلت فوق سطح البحر وتشير كل الدلائل الى أن عملية طمر الخلجان ستستمر. لقد تم أخذ التراب اللازم في البداية من جزيرة أم نعسان، إلا أنه يجري إمتصاصه اليوم من الخليج ويتم نقله عبر خط أنابيب مباشرة الى المكان المطلوب. وتم أيضا بناء مجمع الخليج البتروكيمائي، إحدى الثمار الاولى لمجلس التعاون الخليجي، على ارض كانت تُشكل جزء من خليج واسع قبل سنة أو نحو ذلك. وترتبط جزيرة البحرين بالمحرق والمنامة بجسور كما يربطها جسر بسترة. أما أم نعسان التي كان يمكن الوصول اليها بواسطة مركب فقط فهي الآن مربوطة بجزيرة البحرين بواسطة جسر آخر وهو بداية شيء سيعطي البحرين اصعب إمتحان، إذ أن البحرين لم تعد جزيرة بعد ان

تم ربطها بالبر السعودي بواسطة جسر طوله خمسة وثلاثين كيلومترا. إن البحرين لن تستطع أبدا أن تبقى كما كانت.

لقد خطرت فكرة الجسر لأول مرة للملك سعود عام ١٩٥٠ وفي عام ١٩٦٥ أمر خلفه الملك فيصل بإجراء دراسات جدوى لهذا المشروع. وإجتمع الملك فيصل بالشيخ عيسى، حاكم البحرين الحالي، في الطائف للاتفاق على ما يجب عمله. وتم التصديق على الخطط وإعطاء الضوء الاخضر للمشروع عام ١٩٧٨. ولقد تم إنجاز المشروع فعلا بعد ١٠ سنوات من التخطيط وأربع سنوات من العمل. ويستغرق عبور الجسر ٢٠ دقيقة وباستطاعته أن يحمل ٢٧٠٠ سيارة في الساعة، وحسب التقديرات فإنه سيحمل ٢٩,٠٠٠ سيارة و٢٦٠٠ شاحنة في الساعة عام ٢٠٠٠. وربما يحمل أيضا آخر آثار البحرين المستقلة الى البر، لأن الجسر أكثر من أي شيء آخر هو مفهوم إستراتيجي وتعبير عن عزم السعودية على أن تكون القوة المهيّمنة في الخليج. لقد إستمر شاه إيران في مطالبته بالبحرين حتى عام ١٩٧٠ وهكذا فإن موافقة السعودية على بناء الجسر كان بمثابة تحدي لندها. وقال الملك فيصل «إن الحدود السعودية تمر في وسط الخليج». والآن لا ينظر أحد الى إحياء مطالبة الايرانيين بالبحرين بعين الجد. إن ما يُخشى هو تدخل الايرانيين في شؤونها الداخلية. فالبحريين هي إحدى تلك الشواذ الموجودة في العالم العربي، فهي بلد معظم سكانه من الشيعة يحكمهم السنة. إن للسكان الاصليين من الشيعة مظهرا يختلف بعض الشيء عن مظهر المنحدرين من العائلات التي عبرت من الزبارة مع آل خليفة عام ١٧٨٣ وهم يستعملون لهجة مختلفة حتى هذا اليوم. ومما يزيد الامر تعقيدا هو ان هناك ايضا عربا هاجروا أصلا من الساحل الغربي للخليج الى بلاد فارس، ثم عادوا الى البحرين. ويعرف هؤلاء بإسم الحَوَلة وتنتمي إليهم أكبر عائلات التجار في البحرين. أنهم سنيون من أتباع المذهب الشافعي، أما ال خليفة وأتباعهم ـ الذين يُعرفون حتى الآن بالبدو ـ فهم من أتباع المذهب المالكي.

إن هذا المزيج من الناس الذين عاشوا في جو من التفاهم المعقول على مدى ٢٠٠ عام، بإستثناء سلسلة من الاضطرابات في الستينات، أصبح اليوم يواجه تهديدات جديدة وهذه حقيقة يدركها البحرينيون حق الادراك. لقد

عارض الكثيرون منهم مشروع جسر البحرين ـ السعودية وقالوا أن «فيه خيرا للتجـارة، وليس للبحـرينيـين». والكثيرون يؤمنون بذلك حتى اليوم. إنهم يخشـون من أن يصبـح بلدهم الصغير في أسوأ الاحوال بيت دعارة كبير وكـازينو للسعوديين، أو إذا سارت الأمور في الاتجاه الآخر فإن مجتمعهم المتسامح قد ينحني أمام الضغوط السعودية وتُفرض عليه نفس تلك القيود المفروضة في السعودية وهذا شيء سيعارضه بلا شك العدد الكبير من النساء العاملات في البحرين. إن الناس بدأوا يلاحظون بمزيد من الأسف زوال أحد آخر الملامح التقليدية للبحرين: المراكب التي كانت تنقل الناس والبضائع بانتظام الى بر جزيرة العرب. لقد كانت هناك ٦٠ منها، غير مكترثة بالجسر الجوي مرتفع التكاليف الذي يربط البلدين. لقد كان ثمن ارسال السيارة الى البر السعودي ٧٠ دينارا بحرينيا. أما الآن فيجب عليها أن تجد عملا جديدا وإلا فإنها ستفنى لأن مراكب دبي الأسرع والأحدث باتت تحتكر التجارة مع باكستـان والهنـد، أمـا فرص نجـاحها في ذلك فهي قليلة. إن البحرينيين يشاهدون بحسرة جزءا من تراثهم يختفي ويتساءلون عما إذا كانت تكاليف بناء الجسر (٥٢٢ مليون دولار) تساوي خسارة المراكب وتحويل قرية الصيد جسرا الهـادئة الى بداية الطريق الخرساني المكوّن من أربع مسارات ودك ٥٠٠ قبر لم يتمكن علماء الآثار بعد من فتحها. ومما يميز البحرينيين عن غيرهم أنهم قاموا عمدا بإعطاء معلومات خاطئة عن الطريق الذي سيمر به الجسر لمنع حدوث مضاربة في الاراضي كما حدث في ظروف مشابهة في أماكن أخرى. ولسوء الحظ لم يدرك علماء الآثار نتيجة لذلك أن العديد من القبور الأثرية ستتأثر ولهذا لم يُعدّوا أي برنامج خاص. ولقد تمت دراسة حوالي ١٠ بالمائة منها فقط.

وبـإفتتاح الجسر فإن الحياة في البحرين ستكون مختلفة جدا، خاصة للأجـانب، الذين عملوا دائما وعاشوا هناك. لقد كانت مكانا صالحا لترك عائلاتهم هناك بينما هم يمارسون أعمالهم في بلدان الخليج أو عند ذهابهم للسعودية. ولقد كانت أيضا مكانا مفيدا للسعوديين أيضا، بمثابة هونغ كونغ الجزيرة العربية إذ كانت النساء الاجنبيات والاطفال يُتركون فيها بينما كان رجالهم يعرضون مهارتهم في حقول النفط والانشاءات. إن هذا الجانب من

البحـرين سيتغير لا محالة، فبدلا من الجو الانجليزي الذي ميّز البحرين دائما عن دول الخليج الأخرى من المحتم أن يزداد التأثير السعودي. ولا بد أن تحـدث هنـاك بعض الفضائح كأن يلقي أمير سكران بسيارته في مياه الخليـج من على الجسر، كمـا تنبأ احد المواطنين البحرينين. ولا محالة من إحكام القيود على الحريات في البحرين مثل منع تقديم المشروبات الكحولية في الحفلات الرسمية، ولا بد أن يكون هناك تشديد أكثر على مراعات العادات الدينية. ويعتقد الوزير البحريني الشيخ طارق المؤيد، أن أبناء قبائل المنطقة الشرقية في السعودية هم أقرب لأهل البحرين من أهل الرياض وجدة. ولكن التأثير الذي أصبح من الممكن إدراكه هو التأثير الايراني إذ أن عدد النساء اللواتي يرتدين الزي «الاسلامي» التقليدي قد إزداد.

إن الشيء الذي لا يحتمل له أن يتغيّر هو أسلوب حكم الشيخ عيسى الذي تولى الحكم عام ١٩٦١. فلقد حافظ الشيخ خليفة على نظام المجلس القديم أكثر من أي أمير أو شيخ خليجي حيث بإستطاعة أي إنسان أن يقابله وأن يطلب منه معروفا ما. ففي الساعة الثامنة من كل صباح تقريبا يصل في سيارة رولز رويس ترافقه سيارة واحدة فقط الى قصره المتواضع في الرفاع الغربي، ويصطف الناس الذين ينتظرونه في ساحة القصر، كل في المكان الذي يليق بمركزه. حتى الاجانب يمكنهم أن يأتوا لمشاهدة الامير ومن النادر أن يخلو مجلس الشيـخ عيسى منهم. يتقـدم الشيـخ عيسى ويصافح كل فرد منهم ويتبـادل بعض الكلمات، ثم يتجه الى مجلسه مارا بحرس الشرف. ويتبعه الجميع وبينما هو يتخذ مكانه في نهاية الغرفة خلف طاولة منخفضة عليها باقة من الزهور في إناء كبير، يجلس الناس على صف من المقاعد رُصت على طول كل حائط. ويجلس أربعة من الحراس بكوفياتهم الحمراء في كل جانب من الغرفة على الأرض ويمكن مشاهدة أطراف رشاشات الكلاشنيكوف من تحت عبـاءتهم. وغالبا ما يفضل بعض الناس الجلوس على الارض ايضا، فيسندون ظهورهم على المقاعد ويضربون بخفة أرجلهم بعصيهم. إن الامير لا يتأخر ابدا عن مجلسه إذ أن المجلس لا يبدأ إلا بحضوره ولكن بعض النـاس البسطاء يتأخرون أحيانا. وعندها يتعيّن عليهم التقدم نحو الامير لوحدهم لتحيته وبينما هم يقومون بذلك يقف جميع الحضور. إن الاحراج

الذي يسببه مثل هذا التأخير يضمن عدم تكرارهم له مرة أخرى. وبعد أن يجلس الجميع، يتبادل أبرز الناس من بينهم والذين يجلسون بقرب الامير، يتبادلون معه بعض الكلمات من حين لآخر. ويتقدم الأعيان الآخرون الذين يريدون أن يقولوا شيئا للأمير أو أن يطلبوا منه شيئا ويحيّونه على طريقة أهل البحرين بحك الأنوف ثم يهمسون طلبهم في إذنه. أما الناس الأقل شأنا فينتظرون اللحظة المناسبة ثم يتقدمون نحو الامير لتقديم عرائض يبسطون فيها مظالمهم أو طلباتهم. ويتسلمها الامير جميعا ثم يعطيها الى أحد أعوانه. ثم يقوم بقراءتها في ذلك الصباح ويبت في أمرها. ويقوم سموه بالاستفسار أحيانا بعد مضي عدة أسابيع عما حدث بشأن مسألة ما. وبينما يحدث كل هذا يقوم أربعة من الخدم تُزيّن الخناجر خصورهم بتقديم القهوة، بينما يقوم آخرون بجمع الفناجين. ثم يخرج الخدم ويجري تقديم المزيد من العرائض. ويعود الخدم مرة أخرى لتقديم الشاي من أباريق مطلية بالميناء هذه المرة. ثم يختفون مرة أخرى ليعودوا بعد قليل لتقديم المزيد من القهوة. وبعد الانتهاء من شرب القهوة يشرع سمو الامير في مغادرة الغرفة. ويصطف الناس مرة أخرى لوداعه. وعندما يتعرف سموه على بعض الوجوه يتوقف لتبادل الحديث مع اصحابها باللغة العربية أو باللغة الانجليزية مستفسرا عن أحوالهم. لقد كان المجلس ذات يوم أحد تقاليد كل دولة عربية ولكنه أصبح اليوم نادرا بحيث إن مثل هذا المجلس المفتوح لم يعد يوجد الا في البحرين من بين دول الخليج. لقد حضرت لأول مرة مجلس سمو الشيخ عيسى عام ١٩٧٢ وبعد مرور عشرة سنوات لم أجد أي تغيير. فلم يزداد عدد الحراس ولا توجد أجهزة الكترونية منظورة ولم يجر تفتيش أي أحد، كما لم يطرد أحد.

ربما يكون سمو الشيخ خليفة حالة فريدة، فهو حاكم يحب حقا الاجانب الذين يأتون الى بلده وهم بدورهم يحبونه كما يحبه أبناء البحرين. ويوصف حكمه أحيانا بأنه محافظ من قبل التواقين الى التقدم والدينامية، ولكن الحقيقة هي أن التقدم الذي شهدته البحرين في عهده فاق أي عهد سابق. فلقد أشرف سمو الشيخ عيسى على المفاوضات مع بريطانيا حول مستقبل البحرين وأشرف على تنويع إقتصادها بحيث أصبحت اليوم مركزا مصرفيا عالميا. لقد تبنى سمو الشيخ خليفة قصير القامة سياسة الاعتدال في كل شيء

بينما إنغمس جيرانه في التبذير والاسراف الجلي. ليس لدى البحرين ما لدى جاراتها من مال، وحتى لو إنها إمتلكت مثل ذلك المال فمن غير المحتمل أن يقوم الشيخ بتشجيع أي حماقات ـ فعندما فكر أحد أفراد آل خليفة بالقيام بعملية مضاربة صغيرة لتعزيز دخله، وبّخه الامير بحدة لدرجة أن ذلك الفرد لم يلعب أي دور آخر في الشؤون العامة. ولقد أعاد الشيخ عيسى النظام بعد أسوأ عواصف الازمنة الحديثة وهي الاضطرابات العمالية لعام ١٩٥٦ والتي أدت الى التدخل البريطاني وهددت بتفاقم النزاع بين السنة والشيعة. ولقد تمت تسوية مطالبة شاه إيران بالبحرين بهدوء وبالطرق الدبلوماسية الخفية ـ ويعتقد بأن ذلك تم على حساب بعض دول الخليج الأخرى ـ كما تم القضاء على المحاولات التخريبية التي قام بها عملاء نظام آية الله خميني الايراني الجديد وهي في مهدها.

ويمكن القول إجمالا بأن سمو الشيخ خليفة هو من أنجح حكام الخليج وأكثرهم شعبية على الرغم من بعض الهفوات مثل سماحه للأوروبيين فقط بإستعمال شاطئه الخاص، وهي الهفوات التي يعتبرها رعاياه زلات عديمة الضرر من قبل حاكم خيّر. وتمتد هذه التقاليد المتسامحة نحو الاجانب الى اليهود أيضا. لقد كانت هناك دائما جالية يهودية صغيرة، أبرزها عائلة نانو التي تملك سينمات ومحلات لبيع المجوهرات ومحلات للصرافة ويشمل نشاطها اليوم المصارف الاجنبية. ويتذكر البحرينيون بغبطة كيف كان وزير مالية سابق يجلس في إحدى محلات نانو في السوق في محاولة لمعرفة ما كان يحدث في عالم المال الحقيقي.

إن قطر هي أقرب جار للبحرين وهي عدو تقليدي، ولقد أصبحت اليوم صديقا حذرا، وتقع عبر الخليج مباشرة. وحتى اليوم عندما يعاتب البحرينيين على تلويث البيئة التي يسببه مصهر الألمنيوم بالقرب من عسكر فأنهم يرفضون التهمة الموجهة اليهم بمرح قائلين: هذا لا يهم فالريح تحمل الدخان الى قطر!! ومن المؤسف إن البحرينيين ليسوا الوحيدين الذين ينكتون على القطريين. إن أهل قطر بالنسبة لبقية الخليجيين هم مثل الايرلنديين بالنسبة للانكليز، والبولنديين بالنسبة للأمريكان، والبلجيكيين بالنسبة للفرنسيين. وكما هو الحال في مثل هذه الحالات، توجد هناك ذرة من الحقيقة في جميع هذه

النكات: إن القطريين أبطأ من مواطني الدول الاخرى، إنهم يطيلون التفكير وهذا بلا شك هو السبب الذي جعلهم موضوع القصص المضحكة. ويدرك القـطريـون ذلك حق الادراك وهم يعتبرون ما يظنه الناس بطأً في التفكير فضيلة. وهكذا فهم يشيرون بفخر الى أن سرعة التطور في قطر كانت أبطأ من البلدان الأخرى وأنه يخضع لسيطرة أكثر. ويقولون أن حاكمهم يفكر مرتين في كل شيء قبل أن يقدم على عمل وهكذا فقد جنبهم الحماقات والتبذير التي يدعون بحق أنها إضرت بالدول الاخرى. إنهم شعب يحب أن يجلس سوية ليدرس موضوعا ما بنفسه بدلا من قبول نصائح الاجانب. ويجري الآن، على سبيل المثال، جدال حول مسألة مواكبة مسيرة التطور وإستغلال حقل غاز الشمـال الجديد الذي يحتوي على إحتياطي يكفي لثلاث مائة سنة بمعدل الاستعمـال الحـالي، أو الاكتفـاء بما تم تحقيقه حتى الآن. إن المزيد من الصناعة تعني المزيد من المهاجرين الأجانب، الأمر الذي يعني المزيد من المنازل والخدمات وهو ما يعني بدوره المزيد من الاجانب، كما يقول معارضو التوسع. ويقول هؤلاء الشبان الحاصلون على تعليم جيد أن بإمكان قطر أن تعيش على الدخـل من إستثماراتها بعد نفاذ البترول. أما أصحاب الرأي المضاد فيقولون بأنه لا يمكن لأحد أن يتكهن بما سيكون عليه شكل العالم في المستقبل وأن الافضل الاعتماد على قدرة صناعية بدلا من الاعتماد على تقلبات العملات، وأنه بما أنهم جزء من العالم فإنهم لا يستطيعون الانسحاب منه.

وفي الواقـع كان بإمكـان القطريين أن يجنبوا أنفسهم كل هذا العذاب والجدال فعندما تم إكتشاف البترول لأول مرة كان هناك أكثر من ٢٥،٠٠٠ قطري يعيشون في المدن القليلة في شبه جزيرة قطر: الدوحة والوكرة والزبارة وأم سعيد (إمسعيد) والقرى الاخرى. وقال بعض الاجانب من باب السخرية أنه كان بإستطاعتهم أن يؤجروا بلدهم لاحدى شركات البترول وإن يشتروا لأنفسهم بيوتا مريحة في جزيرة سيشل أو في جنة إستوائية أخرى، ويجنبوا بذلك أنفسهم كل الصعوبات التي واجهوها، علما بأن القطريين، وربما بسبب خصائصهم الوطنية وهي الصبر والحذر، قد تجنبوا الكثير من المتاعب. وربما يوجد هناك سبب آخر لبطء عملية التنمية في قطر وهو أنها أقرب الى السعودية

من الناحية الجغرافية وفي جميع المواقف والسياسة من دول الخليج الأخرى. فالسعودية بالنسبة للقطريين هي الأخ الأكبر والمثال الذي يجب أن يُقتدى به. وبسبب قربها المادي والروحي من السعودية تراعي قطر عددا أكبر من القيود الدينية بالمقارنة مع معظم البلدان الأخرى. وهكذا فجميع أنواع المشروبات الكحولية طبعا ممنوعة، على الرغم من أن الحكومة تنشر بصورة منتظمة نسبة الرسـوم الجمركية المفروضة على المشروبات الروحية والبيرة والنبيذ. وتقوم السفـارة البريطانية بإدارة نظام رخص تقنين الكحول للمسيحيين من بين الاجانب. وتُصر قطر بمعزل عن باقي دول الخليج، على تعليم منفرد للأولاد والبنات وعلى رقابة محكمة على المطبوعات. والقطريون هم أكثر حساسية للنقد من باقي دول الخليج، علما بأنها جميعها تستاء من كل ما هو دون التملق التـام. وتـوجـد في قطر وحدها دائرة لمراقبة المطبوعات تعمل أحيانا بطرق غامضة. فعندما نشرت صحيفة «فاينانشيال تايمز» ملحقا عن قطر، إتصل سفـيرهـا في لنـدن بالمحرر لتهنئته بعد إن قام بالاتصال بوزارة الخارجية القطرية للتشاور. ومع ذلك فقد مُنعت الصحيفة من دخول قطر وذلك بسبب فقـرة صغـيرة في إحـدى الصفحات تنتقد السعودية! فالقطريون يعتبرون السعـوديون حماتهم ويجب إن لا يُسمح لأي شيء أن يعكر العلاقات بين البلدين. إن الرقابة على المطبوعات موجودة في بلدان الخليج الاخرى إلا أنها تتخـذ أشكالا أخرى. فلقد منعت وزارة التربية والتعليم في دولة الامارات العـربيـة المتحدة دخول كتابين لأنهما يشرحان نظرية داروين حول نشوء الكـون. كما تُستعمل الاقلام ذات الخط العريض الاسود لتغطية «أطراف النساء» في الصور.

وبسبب صغر عدد أهالي قطر الاصليين ـ الذين ربما يكوّنون ٢٠ بالمئة فقط من المجموع ـ تضمن الدولة منصبا يدر دخلا ولا يتطلب عملا لكل قطري لا يريد وظيفة حقيقية، إو منصبا ذا شأن ومهم لمن يريد ذلك. ولسوء الحظ يبدو أن الأغلبية تفضل الخيار الأول الأمر الذي يثير إشمئزاز أولئك القطريين الذين يعملون بهمة ونشاط. إذ يذهب الكثيرون من الموظفين القطريون الى مكاتبهم في الساعة ٨،٣٠ صباحا ويغادرونها في الساعة ١١،٣٠٠ وكما قال أحد كبار المسؤولين «تكون الدولة محظوظة لو أنهم إشتغلوا لمدة ٣٠ دقيقة

في اليوم». وبكل تأكيد لا ينطبق هذا الأمر على الحاكم او على حاشيته المباشرة الذين يعملون لساعات طويلة ونجحوا نجاحا كبيرا في تنمية بلدهم بصورة منهجيـة. ولعل النمو السريع، الذي غيّر ابو ظبي ودبي قبل ذلك بعقد من الزمن، والذي عرفته قطر مؤخرا، لعله أثار بعض المتاعب. وإنه لمن الجدير بالملاحظة أنه على الرغم من الصعوبات التي يوجدها نظام التعليم الذي يعزل الذكور عن الاناث فلقد ظهرت في قطر مجموعة صغيرة من النساء المحترفات للطب والمحامات وغيرهما من المهن. إن المسألة لا تنحصر في أن التعليم غير متـوفـر في الدولة أو أن الدولة لا تمنح منحا سخية للدراسة الجامعية في الخارج، إن الأمر يكمن في التأثير الكابح للتقاليد القطرية. وهكذا تستطيع الطالبات الذهاب الى الجامعات فقط بصحبة مرافق، ربما يكون أخا أو فردا آخر من العائلة، وهذا أمر ليس من السهل ترتيبه. وهناك نقطة أخرى وهي أن البنات، كما هو الحال في دول الخليج الأخرى، هن الحريصات على مواصلة الدراسـة الجامعية، بينما يدرك أولياء أمورهن الصعوبات التي تنجم عن ذلك، إذ لا يوجد عدد كاف من الشباب المثقف لكي تتزوج البنات عندما يعدن الى البيت، وسرعان ما يتضح بأن الزواج من تلك الطبقة المنعمة من الشباب التي لا تؤمن بالعمـل او بالتعليم هو كارثة. ففي جامعة قطر هناك حرَمَان جامعيين، واحد للذكور والآخر للاناث ويبعدان عن بعضهما البعض مسافة نصف ميل، ومع ذلك أمرت السلطات بأن تبدأ الدراسة بالنسبة للذكور في الساعة السابعة صباحا وأن تبدأ دراسة البنات بعد ذلك بنصف ساعة لكي تُصعّب لقـاء الجنسـين. وتقـوم هيئـة التـدريس بتدريس الجنسين ولكن السلطات تحاول أن تضمن بقدر المستطاع أن تركز المحاضرات على تدريس البنـات. ويقـول عميـد الجـامعة برباطة جأش «على الأقل نشاهد طلابنا وطالباتنا وجها لوجه ولا يتعين علينا أن ندرّس عبر دائرة التلفزيون المغلقة». إن هذا العـزل للجنسين يشمل الحياة اليومية. فقد خُصص بعد ظهر يوم الجمعـة للنسـاء والعـائلات في سوبر ماركت «المركز» الضخم. وعندما يتم إفتتاح معرض فني ما يخصص اليوم التالي ليوم الافتتاح للسيدات.

وكمـا هو الحال في باقي دول الخليج، يضمن الشيخ خليفة ولاء أخطر الناس في قطر، أي أفراد عائلته، بدفع رواتب شهرية لهم من ميزانية الدولة.

وتدفع مثل هذه المعاشات لحوالي ألف منهم، كل منهم حسب مركزه في العائلة. وتُدفع إعانات مالية، علاوة على المرتبات السخية، لكبار الموظفين وكبار الضباط في الجيش والشرطة. ولكن الصدقات تُستعمل لغاية صالحة: إذ يمنح الحاكم قروضا بلا فائدة، وغالبا ما تُنسى بعد سنة أو سنتين، كي يتمكن هؤلاء الناس من بناء بيوت في الخليج الغربي، وهي المنطقة المطورة الحديثة في الدوحة. وعلى هؤلاء المحافظة على بعض المعايير، كي تبقى هذه الضاحية الجديدة كما يريدها الحاكم، دون اللجوء الى المراسيم والقوانين. وعلى الرغم من كل هذا السخاء والرواتب الضخمة والرشاوى المموهة، لا يستطيع الكثيرون مقاومة إغراء السعي وراء كسب المزيد من المال. ويبدو إن بعض المسؤولين الاغنياء في الخليج يعتبرون جمع المال غاية في حد ذاتها ويكفلون لأنفسهم نسبة معينة من أي مشروع لهم علاقة به أو تأثير فيه. ويعلم المتعهدون والمقاولون في أبو ظبي، وفي غيرها، أن عليهم إضافة نسبة معينة الى تقديراتهم للعمولات. ويعتقد معظمهم بأن هذه النسبة تبلغ ١٥ بالمائة من القيمة الاجمالية للعقد.

وكما هو الحال في مدن الخليج الاخرى، رافق توسع مدينة الدوحة اختفاء البيوت التقليدية القديمة، الا انه تمت المحافظة على نموذج رائع واحد لها في الوكره جُعل متحفا صغيرا . أما في الاماكن الاخرى، فلا يوجد هناك إلا القليل مما يستحق المحافظة عليه: فلقد كانت قطر دائما بلدا قليل السكان، يقيم أهله الأقلاء جدا في عدد من القرى الساحلية التي كانت تعيش في الماضي على صيد اللؤلؤ والاسماك. ولقد كانت تربية الجمال ذات مرة عملية مربحة وقد إشتهرت النوق القطريات بسرعتها. ان سباقات الهجن لا تزال محببة لدى الجمهور حتى اليوم ولكن الاثارة الآن لا تأتي من المتسابقين أنفسهم، بل من السلوك الغريب لسائقي السيارات الذين يتعقبون الهجن المتسابقة. وكان مهندسون من المؤسسة العامة القطرية للبترول، عندما كان البترول سلعة أقل قيمة مما هو عليه الان، قد قاموا بتغطية شريط من الرمل بجانب حلبة السباق بالبترول لاعداد طريق للسيارات المطاردة للهجن. فكانت النتيجة مزيجا من سباق السيارات وساحة السيارات الكهربائية الصغيرة في مدن الملاهي. بلغ عدد الجمال في قطر قبل بضع سنوات ٩٠٠٠ جمل ومنذ ذلك الحين بدأ عددها يتناقص. هنا سارع الامير لانقاذ الموقف بحل بسيط: هناك

حاجتان اساسيتان في اي مكان في البلدان الصحراوية: الماء والظل. وهكذا بامكانك الان مشاهدة منظر غريب بجانب كل مخيم بدوي صغير في شمال شبه الجزيرة القطرية: مضخات الماء والملاجيء المصنوعة من الصفيح بدلا من الخيام السوداء. ولم يكن هم الحاكم هو المحافظة على سمعة قطر كمركز لتربية الهجن، بل ضمان استمرار عبور البدو من السعودية الى قطر، وحبذا لو أنهم إستقروا في قطر بصورة دائمة. لأن مشكلة قطر كانت دائما قلة عدد السكـان، بسبب قسـوة طبيعتها في الماضي، وعدم مقدرتها اليوم على جذب المهاجرين العرب على الرغم من كفاءتها وحياتها المريحة.

وداخل قطر غير مأهول بالسكان. اذ لا توجد فيه واحات او آبار مياه أو ينابيع لتحمل البدو على الاقامة هناك. ولم يكن باستطاعة أهلها كسب رزقهم إلا على الساحل، من صيد الاسماك والغوص بحثا عن اللؤلؤ ومن التجارة. أما الآن فهناك مجمع صناعي كامل في إمسيعيد يعتمد على غاز حقل دخان بالقرب من الرويس التي هي مركز العمليات النفطية. ولكن يجب احضار كل شيء الى الموقع، تماما كما تعيّن على المنقبين الأوائل أن يُحضروا الى قطر كل شيء كانوا يحتاجونه. وباستثناء النفط والغاز، تفتقر قطر الى كل شيء تقريبا، حتى الناس، اذ لا وجود فيها للنخيل او الزراعة أو أي شيء. ومن الملفت للنظر حقـا أن بعض الرجال قرروا الاستفادة من ثروتهم على هذا النحو في هذا المكان المهجور، وقرروا حتى اعادة إدخال الغزلان التي قضى عليها الصيادون بحماس مفرط بأسلحتهم الحديثة. وعلى الرغم من جميع فضائل القطرين، يبدو أنهم يعانون من نوع من العصاب الجماعي أدى الى مشاكل في الداخل والى سوء التصرف في الخـارج. لذا فقـطر ليست بالمكـان الصـالح للمرأة الاوروبيـة العزباء، إنها تعتبر فريسة سهلة المنال ولقد كانت هناك بعض الحـوادث البشعة. بل تعرضت نساء متزوجات للمضايقة وهن في طريقهن لتوصيل أطفالهن الى المدارس. أما في الخارج فيُعرف القطريون بين العرب بالغرور وبسوء السلوك. ولقد شرح لي ذلك أحد أفراد الاسرة الحاكمة فقال: «إن وسائل الاعلام العالمية تشير إلينا دائما كبلد من أغنى بلدان العالم. الكل يعلم ذلك. لذا فان الناس يعاملوننا عندما نسافر معاملة القادمين من بلد ثري جدا. والنتيجة هي أننا نتصرف كالأغنياء، حتى عندما لا يكون في جيوبنا

قرش واحد». ولكن الكويتيين هم أغنياء بنفس الدرجة ومع ذلك فليست لهم سمعة كهذه. وفي الواقع فانهم يعتبرون أناسا على دراية بشؤون العالم. وربما يعود ذلك الى أن التطور في الكويت قد سبق التطور في قطر، والى عوامل تاريخية. فلقد كانت الكويت تقاطع طرق وملتقى بينما كانت قطر مكانا نائيا معزولا.

وهناك بلد آخر في الخليج غير مأهول الداخل ولا توجد فيه واحات: دبي، وربما يكون ذلك أحد أسباب الصداقة الدائمة بين البلدين، إذ تتزاوج الاسرتان الحاكمتان فيما بينهما وكان لهما عملة واحدة في وقت من الاوقات. ولكن من المرجح ان تلك الصداقة تعزى الى عادة قدماء العرب في البحث عن الحلفاء في البلدان المحاذية لجيرانهم الأمر الذين يضمن محاصرة أي عدو محتمل، إذ لا يوجد ما هو مشترك مع قطر سوى ذلك الشذوذ الجغرافي، وهي مختلفة تماما من جميع النواحي الأخرى تقريبا. لقد كانت دبي مزدهرة حتى قبل إكتشاف البترول عام ١٩٧٠، وكانت ذات طابع عالمي وعلى دراية بشؤون العالم في وقت كانت فيه قطر عبارة عن مجموعة من قرى الصيد. لقد كانت دبي مركزا تجاريا لمنطقة الخليج الجنوبي تقصدها المراكب باستمرار من شواطيء ايران وعُمان وباكستان والهند. لقد كان الخور هو مركز الحياة في دبي، تماما كما يعطيها اليوم طابعا وبُعدا لا نظير لهما في أي دولة خليجية أخرى. وحتى الآن، يُدرك القادم الى دبي، سواء بالطائرة أو عن طريق البر، بكل وضوح أنها مركز تجاري وميناء بحري. فهذا ميناء جبل علي الجديد ينافس ميناء راشد على التجارة، بينما يكتظ الخور بالمراكب وتنطلق العبّارات جيئة وذهابا، مليئة بالناس الذين لازالوا يجدون المركب أفضل وأسرع وسيلة للتنقل من مكان الى آخر، على الرغم من توفر الأنفاق والجسور الجديدة وسرعان ما يجد الزائر القادم جوا نفسه في وسط المدينة وتدل أسماء المحلات التجارية على الطابع العالمي لدبي.

وعلى العكس من ذلك، فإن أبو ظبي تبدو للقادم برا كمدينة بترول، إذ يشاهد ألسنة اللهب المشتعلة من الغاز، وتبدو المصفاة وكأنها مُعلقة فوق بحيرة بفعل السراب. ومن البحر تبدو المدينة ببناياتها الحديثة وكأنها حي مانهاتن التجاري بنيويورك. وهناك عناية كبيرة بالاشجار والحدائق تهدف الى

توفير ما يشبه الواحة. إلا أن هذا لا يترك إنطباعا كبيرا لدى الباكستانيين والهنود الذين يشكلون أغلبية السكان. فهم يشتكون من عدم وجود أرصفة، الأمر الذي لا يقلق العرب إذ انهم نادرا ما يسيرون على الاقدام اكثر من عدة أمتار. انهم جميعا يملكون سيارات واذا لم يملك أحدهم سيارة لسبب ما، فهناك العديد من سيارات الاجرة، وكما كان الحال في بيروت في الزمان الغابر هم إن سائقي التكسيات الذين يوقفون الناس وليس العكس. وفي هذا المجال تعتبر ابو ظبي شاذة عن باقي دول الخليج: فسيارات الاجرة رخيصة، وجميعها مجهزة بعدادات تعمل ولا يتوقع السائق ان تعطيه إكرامية (بخشيش) ولا ينطبق هذا على أي من دول الخليج الاخرى. وربما يدل هذا على شخصيات الحكام، فالشيخ زايد رجل صارم ورئيس فعلي. ولكن الشيخ راشد، من الناحية الاخرى، رجل أعمال أكثر من كونه حاكما، فهو يدير بلده وكأنها شركة كبيرة واحدة.

لقد هيأ الجو المناسب عندما جعل مكتبه ومقره في بناية الجمارك بجانب الخور في مطلع عهده. ولقد كانت هذه خطوة عملية جدا، لان ذلك مكنه من مشاهدة ما يحدث في المرفأ عبر شبابيك مكتبه: حيث يرى أي المراكب تستعد للاقلاع، ومَن مِن الربابنة يتحدث مع تاجر وأي المراكب تفرغ حمولتها. فعند وصول أي مركب، كان الربان يجد في انتظاره رسولا من الشيخ راشد ليهنئه على سلامة الوصول وتوضيح نسبة الرسوم المستحقة، أو تُبلّغ الربان بأن الشيخ راشد مستعد لاستلام حصته من الارباح، إذ أن الحاكم الذي كان رجل أعمال ناجح، كان يستثمر امواله في المشاريع التجارية الخاصة باصحاب المراكب والربابنة، ويختار دائما، على نحو لا يخطىء، أربحها وأسلمها، بما في ذلك تجارة الذهب مع الهند، التي كانت عملا مشروعا تماما. إن الشيخ راشد هو الذي أوجد نظام الرسم الجمركي الموحد الذي بلغ ٣ ونصف بالمئة أصلا، على كل شيء يأتي الى دبي. ولقد مكن هذا النظام التجار من استعمال دبي كقاعدة لارسال السلع القيّمة الى الهند والبلدان الاخرى، حيث كان بامكانهم أن يجنوا ارباحا طائلة.

في بداية عهد الشيخ سعيد، والد الشيخ راشد المتوفى عام ١٩٥٨، وفي آخر سنوات حكمه كان كل شيء يعتمد على المؤسسات البريطانية. وهكذا كان

البنـك البـريـطاني للشرق الاوسط، أول بنك يقام في الخليج وفي دبي عام ١٩٤٦، ويقوم بدور خزينة الدولة، كما اضطلعت شركة جري مكنزي، ذلك البيت التجاري البريطاني العظيم، بدور وزارة الاشغال العامة ودور مصلحة الميناء وقامت بكل شيء آخر عند الحاجة، بينما أصبحت شركة كيبل آند وَايَـرْليس مكتب البـريـد. وكـان الشيخ راشد يتسلم دفعات منتظمة لقاء إمتيازات شركات البترول ـ كانت تدفع على شكل شيك في دبي إذ كان فيها هناك بنك ـ الا ان ذلك كان يعتبر مجرد زيادة نافعة لدخله الرئيسي من ريع النشاط في الخور. وعندما تم العثور على النفط وبدأت الملايين تتدفق، استمر الحاكم في النظر الى البحر كمصدر رزق لبلده الصغير. فقام بانشاء ميناء جديد اعتبره الجميع كبيرا أكثر من اللازم وغير ضروري. إلا أنه سرعان ما ثبت أنـه مربـح. ثم قام ببناء حوض جاف للسفن، قال عنه الناس أنه لن يستطيع أن ينافس حوضا آخر في البحرين. ولكنه ينافسه. لقد كان الشيخ راشد دائما رجلا صبورا. فعندما سُئل ذات مرة لماذا يسمح للناس بشرب الكحـول جهارا، أجاب: «عندنا بارات (حانات) لمن يريد أن يشرب وعندنا جوامع لمن يريد الصلاة ـ وسُجون للذين يفرطون في الشرب». إلا أن ضغوطا لاحقة أجبرته على تغيير موقفه هذا. إن دبي اليوم هي مدينة تخلو من الخمور الى حد ما، علما بأن المسيحيين الاجانب في أبو ظبي يشتكون من كون كمية الكحول المخصصة لهم دون تلك المخصصة لزملائهم في المناطق الاخرى من الخليج. ولقد أُغلقت البارات مراعاة للمد الاسلامي المتزايد في الخليج، ولأن المهـاجـرين الجـدد إلى المنـطقة من هنود وباكستانيين وكوريين وغيرهم لا يشربون الكحول بنفس الاعتدال الذي تميز به الانجليز عندما كانوا يشكلون الاغلبية. والآن هناك تمييز مالي في دبي وأبو ظبي وبلدان الخليج الأخرى: فالقادرون على دفع الاسعار التي تطلبها الفنادق الكبيرة، بإمكانهم أن يشربوا ما يطيب لهم، واذا تعذر ذلك فعليهم ان يكونوا مسيحيين ويجب أن يكسبوا مبلغا معينا كل شهر كي يتأهلوا للحصول على كمية معينة من الكحول.

إن التوسع العظيم في دبي لم يحدث عندما تم اكتشاف البترول، إذ أن إزدهارها النسبي كان دائما مبنيا على التجارة، ولم تشهد طفرة اقتصادية مفاجئة عندما تم ذلك. لقد تغيرت المدينة في منتصف السبعينات، وحتى وقتئذ

لم يحدث ذلك برغبة من الحاكم، بل بسبب رغبة الشركات الاجنبية في تأسيس نفسها في هذه الدولة الصغيرة الغنية. فقامت كل شركة فنادق عالمية ببناء فندق لها في دبي، لدرجة أنها الآن تشعر بالسعادة عندما تكون ٢٠ بالمئة من الغرف محجوزة! ويعرف العاملون في الخليج أن لا أحد يدفع الاسعار المعلنة في الفنادق وهناك مجال للمساومة بسبب تنافس الفنادق على الزبائن، على أمل أن يتم تعويض التخفيض في سعر الغرفة في المطعم او في مرافق الفندق الاخرى.

لقد خسرت دبي بتوسعها الكثير من طابعها الذي كان يحظى باعجاب الزوار قبل بضع سنين فقط عندما كانت البلدة مُلتفة حول الخور، وحيث كان بناة المراكب يمارسون مهنتهم في موقع الجسر الحالي، ويوجد الآن موقف آخر للسيارات، تنطلق منه المئات من سيارات الأجرة مع طول الساحل حيث كان أحد باعة البهارات ينادي ببضاعته. ويمكن أخذ فكرة عن سرعة التطور إذا نظرنا الى برنامج بناء الطرق: ففي أواخر الستينات، عندما زرت دبي لأول مرة، كانت الطريقة الوحدة للسفر بمحاذاة الساحل الى رأس الخيمة هي في سيارة مزودة بمحرك يدفع العجلات (الكفارات) الأربع فوق الرمل بعد المد. أما الآن فهناك طريق عام ذو أربع مسارات، بُني على نفقة المملكة العربية السعودية، يصل الامارات بعضها ببعض. إلا أن أهل الشارقة يشكون من أن ذلك القسم من الطريق الذي يربطهم بدبي هو دائما بحاجة الى الترميم وتنقصه الجسور والمعابر التحتية الضرورية. وفي الواقع هناك بعض الحقيقة في هذه الشكوى: إن حاكم دبي لم تكن عنده رغبة في أن يرى الناس الذين يعملون في إمارته، يعيشون وينفقون أموالهم في إمارة أخرى. لذا تم اتخاذ خطوات عملية لعدم تشجيع مثل هذه الحركة. وفي النهاية تعين إصدار مرسوم في دبي يأمر الناس الذين يعملون فيها بالاقامة فيها أيضا، لأن تكاليف المعيشة الأقل في الشارقة عوضت عن عناء السفر الى مكان العمل في دبي يوميا.

وكما أن تكاليف المعيشة في الشارقة هي أرخص منها في دبي، فإن دبي بدورها أرخص من أبو ظبي، ولكن المسافة في هذه الحالة تجعل العيش في مكان ما والعمل في مكان آخر أمرا مستحيلا تقريبا. لقد تم بناء الطريق الممتاز

الذي يربط هاتين الاماراتين الرئيسيتين عام ١٩٧٣ والذي يزدحم بالسيارات في نهاية الاسبوع. إذ يقضي العديدون من الناس وقت فراغهم في دبي، ويسافر الاجانب الى منتجعي خورفكان أو الفجيرة. لقد كان الوصول الى الفجيرة بالأمس من أصعب الأمور، لذا جعل أليك وايت، مأمور الصيد فيها، الذي كان يحب العزلة والانزواء، مقره فيها بجانب محطة تمليح الاسماك وتقديرها، على أمل ان يردع ذلك جيرانه الغربيين عن زيارته. واليوم هناك صف من الفنادق و«الشاليهات» مع طول الساحل ولم تبق سوى بلدة دِبا القريبة محتفظة بطابعها القديم، وقد يعود ذلك لكون نصف البلدة عُمانيا والنصف الآخر تابعا للشارقة، الأمر الذي جعل اعداد خطة موحدة لتطوير هذه البقعة السارة جدا للعين أمرا مستحيلا.

تتغير السمات الجغرافية للامارات بصورة مذهلة في طرفها الشمالي. فلا وجود هنا للكثبان المتدرجة ولا وجود للشجيرات الشوكية التي تقتات عليها الجمال ولا حتى الاعشاب المتناثرة. وترتفع جبال زرقاء لتقطع ساحل الباطنة في عُمان عن الصحراء، وعلى المنحدرات الجنوبية من حول رأس الخيمة تحل الزراعة مكان تربية الماعز والاغنام. وتبدو رأس الخيمة نفسها كورشة بناء ببناياتها غير المكتملة ولافتاتها الصدئة التي تُعلن بداية مشاريع جديدة. وهناك جسر جميل يربط جانبي الخور، وحيث كانت مراكب القراصنة ترسو متربصة ضحاياها في الخليج، تقف اليوم مراكب النزهة بألوانها الزاهية، بجانب مراكب الشحن التي تذرع الساحل جيئة وذهابا. إن خُضرة البلدة هي طبيعية، على نقيض خُضرة أبو ظبي التي كلفت وتكلف مبالغ هائلة من المال والجهد للمحافظة عليها. ويا للغرابة، إن الافكار القديمة لازالت موجودة حتى يومنا هذا، إذ يعتبر أهل دبي وأبوظبي الأكثر وداعة يعتبرون أهل رأس الخيمة قساة لا يعرفون الرحمة ومختلفين تماما عنهم. وينتمي اليهم عدد من موظفي الحكومة الاتحادية غير متكافىء مع نسبتهم من السكان، لان الشيخ صقر كان دائما عظيم الايمان بالتعليم، وكان قدوة حسنة لغيره عندما أرسل ابناءه للجامعات. وتبعته في ذلك عائلات أخرى في رأس الخيمة، وها هم أبناؤهم اليوم يجدون وظائف نافعة في الهيئات الحكومية المركزية المتنامية. والى الشمال من رأس الخيمة، وفي شبه جزيرة مسندم التابعة لعُمان، يعيش

شعب مختلف تماما: الشوحوح وينحدر هؤلاء من مهاجرين جاءوا في غابر العصور ربما من الهند، ويجري الآن تهيئتهم لمواكبة القرن العشرين. ومنذ بضع سنوات فقط كانوا لايزالون يحملون فؤوسا صغيرة حادة تستعمل كأسلحة وكأدوات، واشتهروا بوحشيتهم تجاه أعدائهم وبلفتاتهم الكريمة تجاه المسافرين المسالمين. إذ كانوا دائما يوفرون الماء للمسافرين في نقاط معينة، كما أنهم كانوا شديدي التمسك بواجبات الضيافة العربية.

وهناك ثلاث مشيخات صغيرة ما بين شبه جزيرة مسندم وصَخَب دبي وهي أم القوين وعجمان والشارقة. لقد كانت الشارقة تعتبر في الماضي القريب أهم مكان على الساحل وكانت مقر كشافة ساحل عُمان، «الجيش» الوحيد الذي كان تحت إمرة وزارة الخارجية البريطانية. وكان هذا «الجيش» المكون من البالوشيين الذين كانوا يخدمون في الجيش في عُمان، يشكل قوة صغيرة وفعالة أُنشأت عام ١٩٥١ لحفظ السلام بين القبائل والدول المتنازعة، عُرفت أصلا باسم مجندي ساحل عُمان. كانت هذه القوة تتكون من ٢٠٠٠ رجل و٥٠ من ضباط الصف البريطانيين. وكان هؤلاء الكشافة، كما أصبحوا يسمون منذ عام ١٩٥٦، يسيطرون على المنطقة الممتدة من رأس الخيمة حتى أبو ظبي، وكانت دورياتهم تصل حتى الربع الخالي على الحدود مع السعودية وواحة ليوا. **وكانت الدورية التي تصل ليوا أحب الدوريات الى نفوسهم لان ماء هذه الواحة كان أحسن من ماء أي مكان آخر في الاقليم**. ووجدت الكشافة في أواخر أيامها صعوبة في تجنيد الافراد لأن الشيخ زايد، حاكم أبو ظبي، قرر أن يُنشيء قوة دفاع خاصة به، وكان قادرا على دفع رواتب وتوفير شروط أفضل. وسرعان ما تبعه في ذلك الحكام الآخرون، فأنشأوا لأنفسهم جيوشا خاصة، معتمدين في ذلك على عائدات بترولهم أو على الاعانات المالية من أبو ظبي. وقام أحد الشيوخ بتجنيد ضابط بريطاني لتنظيم وقيادة قوته الخاصة. واقترح عليه الضابط إقتراحا معقولا، وهو انشاء قوة من السيارات المدرعة كأنجع وسيلة لحفظ السلام. فأعطاه الشيخ مبلغ ١٠٠,٠٠٠ جنيه للذهاب لأوروبا لشراء السيارات. ولم يُشاهد ذلك الضابط في جزيرة العرب منذ ذلك الحين، ويقال أنه يعيش الان في احدى الجزر الاستوائية!

لقد كانت الشارقة ايضا الموقع الاصلي للوكالة السياسية البريطانية على

هذا الساحل ولم يتم نقلها الى دبي الا عام ١٩٥٢. إن مَدْرج هبوط وإقلاع الطائـرات فيها ووجود الحامية البريطانية فيها هما اللذان أعطيا الشارقة أهميتها ـ إن آخر الجنود البريطانيين الذين أقاموا بصورة دائمة في شبه الجزيرة العربية كانوا في الشارقة والبحرين. وعندما شرعت شركة إمبيرْيال إيـرْويـز القديمة في القيام برحلات جوية على متن القوارب الطيارة، كانت الطائرات تحط في خور دبي ولكن المسافرين كانوا يُنقلون الى الشارقة لتناول طعام الغداء ـ وكانت المعارك الكثيرة بين قوات دبي وأبو ظبي في الخمسينات تتوقف للسماح للناس بتناول طعامهم في سكينة!! ولقد تم بناء الحصن في الشارقة في الثلاثينات من هذا القرن خصيصا لحماية ركاب امبيريال إيروين، وبكل تأكيد فان هذا من أغرب بنود الانفاق الخاصة بشركة طيران! وفي عام ١٩٤٠ استـولى سلاح الجو البريطاني على المطار، ونتيجة لذلك تم انشاء حامية هناك أيضا، علما بأن القاعدة الجوية العسكرية لم تكتمل إلا في عام ١٩٦٧، بكلفة بلغت ١٥ مليون جنيه استرليني. ولقد جرى تسليمها للشارقة عنـدمـا قرر البـريـطانيون الانسحاب. وقامت الشارقة بتأجيرها الى شركة نورْثورب كمركز صيانة وعمليات، وفي النهاية تم تحويلها الى مطار الشارقة.

ولقد حققت الشارقة اليوم بعض النجاح في مجال السياحة ولكن على المرء اختيار الوقت بحذر: فكما هو الحال في باقي دول الخليج، لا تعتبر الاجازات خلال شهر رمضان أو في الصيف ممتعة. ومع ذلك فإن الشارقة مركز سياحي جيد ورخيص نسبيا، وفيها بناية من أغرب وأقبح البنايات الموجودة في أي مكان من الساحل: بناية السوق المغطى الجديد التي بُنيت منذ بضع سنوات، وعليهـا زخارف تُذكِّر بالهند وشرق آسيا. وعلى العكس من ذلك، فان سوق السمك الجديد يتماشى كليا مع التقاليد العربية وأكثر ملاءمة لوظيفته.

ولم يبق من المـاضي الا القليـل في أبـو ظبي عنـدما بدأت عملية البناء الحديث، ولكن الشارقة بُليت، اكثر من معظم المدن، بالرغبة في التخلص من كل ما هو قديم، وتبديل بيوت كانت قد بنيت منذ بضع سنوات فقط، ببيوت جديـدة. فكانت النتيجة غير سارة. ولحسن الحظ أدرك معظم الحكام قبل فوات الاوان ان هناك أشياء جديرة بالمحافظة عليها ـ مع العلم بأنه في حالات عديدة لم يكن هناك شيء قبل اكتشاف البترول. وهكذا فلم يبق في أبو ظبي

من تلك الفترة الا القلعة إذ كانت جميع البنايات الاخرى مبنية من الطين وسعف النخيل. ويتذكر إدوارد هندرْسون إقامته هناك برفقة الرحالة ولْفريد ثسيجر، الذي كان يزور الحاكم كثيرا. ولقد تشارك الاثنان في غرفة خالَية من الأثاث. ووضع هندرسون في صبيحة أحد الايام فرشته على حافة الشباك. فنصحه ثسيجر بأن يضعها على الارض قائلا «يطيب للشيخ خالد (أخو الحاكم) أن يستعمل ذلك الشباك للبصق منه». ولم يكن في كل أبو ظبي في ذلك الوقت لوح زجاج واحد. إن القلعة في ابو ظبي هي اليوم مقر مركز الابحاث والتوثيق الذي يقوم بالكثير من أجل تسجيل وتوثيق نمط حياة يتغير بسرعة.

ولقد أصبحت القلعة في دبي متحفا فيه قسم جيد عن اللؤلؤ. وعلى مقربة منه وفي منطقة البستكية تمت المحافظة على حوالي ٥٠ من البيوت ذات الأبراج الهوائية، بناها أصلا مهاجرون من بلدة بستك الايرانية. ولا زالت هناك مثل هذه البيوت في البحرين والدوحة وأماكن أخرى عديدة ولكن ليس بنفس كثرتها في دبي. والهدف من هذه الابراج هو توجيه أي نسمة من الريح الى داخل البيت. لقد أثبتت التجارب أن الابراج لا تؤدي الى إنخفاض في درجة الحرارة، ولكنها كالمراوح الحديثة، تعطي إحساسا بالبرودة بتحريكها للهواء. وجرت العادة في مصر، حيث توجد أيضا أبراج الهواء، أن تُعلق القِرب والجرار داخل الابراج وكان هذا يبرّد البيت. لقد كان الماء نفيسا في الخليج حتى يستعمل بهذه الطريقة. هذا وقد مدح الرحالة ماركو بولو أبراج الهواء، المفتوحة من كل الجهات. وفي عصرنا جعلها إستعمال مكيّفات الهواء والمراوح عديمة النفع. ولا تزال بعض البيوت في الأحياء الفقيرة في أعلى الخليج وأسفله تُبنى وبها ملقف، عبارة عن تجويف صغير في السقف لتوجيه الريح الى الداخل.

إن الحاجة العظيمة الأخرى بالنسبة لأهل الخليج بعد المأوى هي الماء. ويُقال أن بني ياس إستقروا أصلا في أبو ظبي لانهم عثروا على نبع ماء هناك. ويوجد ماء بكثرة في أماكن عديدة، مثل رأس الخيمة أو البريمي، وبكميات تزيد كثيرا عن إحتياجات السكان الأصليين. وكان من الصعب تحويله الى أماكن أخرى ولو حتى لمسافات قصيرة، بسبب مشكلة التبخّر الناجمة عن

حدة الحرارة. وللتغلب على هذه المشكلة تم إبتكار نظام معقد من القنوات التحت ـ أرضية، سميت بالأفلاج أو القنوات في الامارات، وهي مبطنة بالطوب ولها فتحات تفتيش تفصل بين كل إثنتين منها بضع مئات من الأمتار. ويبدو الفلج من الجو وكأنه سلسلة من جحور الخلد. ولقد كانت مسؤولية المحافظة على نظافة هذه الافلاج تقع على زعيم المكان، إلا أنها أهملت بعد النزاع الذي نشب مع السعودية حول واحة البريمي، وسبب ذلك، حسب ما قاله الشيخ زايد، حاكم البريمي في ذلك الحين، هو أن عزيمة الناس قد ثبّطت. وكان السكان المحليون يعتبرون الأفلاج أشياءً حية تقريبا فيشيرون الى «موتها» عندما كانت تمتلىء بالطمي. وقدمت بريطانيا في حينه مبلغ ٥٠٠٠ جينه أسترليني لتنظيف الأفلاج، فدبت الحياة من جديد في الأفلاج وفي الحقول التي ترويها.

ولا تزال هذه الأفلاج موجودة في البريمي ولكن في الجزء العماني منها فقط، في حين نما الجزء التابع لأبو ظبي الذي كان يتكون من ست واحات في الماضي وتحول الى مدينة كبيرة أخرى عديمة الملامح. لقد كان الشيخ زايد، الذي كان يقيم في البريمي، دائما يكّن محبة خاصة لهذا المكان وهكذا أنفق بسخاء عليه. ولقد بذلت جهود كبيرة في محاولة زرع اشجار على طول الطريق ذي المسارات الأربعة الذي يربط البريمي بمدينة أبو ظبي. وعندما أرادت شركة هلتون بناء فندق في أبو ظبي، إشترط عليها الشيخ زايد أن تبني فندقا آخر في البريمي. وبسبب حرص الشركة على الحركة المربحة في أبو ظبي، وافقت على مضض، إنها كانت تخشى أن يبقى فندق هلتون البريمي خليا معظم الوقت. ولكنه في الواقع يأتي بدخل جيد من الناس الذين يأتون لقضاء عطلة نهاية الاسبوع في الواحة. وبنفس الطريقة بنت شركة ألبرت أبيلا فندقا في رأس الخيمة عندما بدا أنه سيتم إكتشاف البترول في تلك المشيخة. إلا أن سنوات عديدة مرّت قبل أن تبدأ رأس الخيمة في الانتفاع من البترول. وفي هذه الأثناء تمكنتَ شركة أبيلا من كسب المال: فبعد أن شاهدت قلة الناس الذين يستعملون الفندق حوّلته الى أول كازينو في الخليج، وجنت بذلك مبالغ هائلة عندما أخذ أثرياء الخليج يجلسون حول طاولات القمار مساء كل يوم خميس.

ولم يحالف الحظ أم القوين وعجمان مثلما حالف المشيخات الأخرى. ولا تزيدان اليوم عن كونهما مناما لناس يعملون في أماكن أخرى. وربما يكون نمط الحياة المتريّث هنا ناجما عن غياب ثراء الأماكن الأخرى، وتحتفظان في بعض الأماكن بالسحر الذي قضت عليه برامج البناء التي نشرت الاسمنت المسلّح في المشيخات الأخرى في السنوات القليلة الماضية. وتُذكّر عجمان وأم القوين بالمصايف الانجليزية بعد إنتهاء المواسم، فلا صخب ولا إزدحام ولا مآذن مضاءة بالنيون كالتي تسود أفق أبو ظبي في الليل، ولا أثر للبنايات الكبيرة التي تملأ دبي. وفي الماضي القريب، كان حاكما هاتين الدولتين ـ القريتين يذهبان الى مكتب جري ماكنزي في دبي لاستلام راتبيهما (لقاء حقوق التنقيب عن البترول) كل ستة أشهر من السيد جورج تشاپْمان على شكل روبيات هندية. أما الآن فيتسلم الحاكمان نقدهما من الخزينة الاتحادية ـ وفي الواقع من الشيخ زايد، حاكم أبو ظبي. وبطريقة ما، لا تزال هاتان الامارتان الشماليتان فقيرتين على الرغم من البنوك الجديدة والمدارس والطرق المعبدة وتكاثر البيوت. وحتى رأس الخيمة فلا تزال تحتفظ بطابع قروي بالمقارنة بالامارات الأخرى، ولا يزال رجالها يحملون عصيا في أيديهم بينما هم يسيرون يدا بيد. وتصل شبكة من الطرق الممتازة الفجيرة بباقي الامارات فلم تعد معزولة. ومن المؤسف حقا أنه في مكان لا يوجد فيه ضغط على الأرض، إختارت الفجيرة بناء عمارات الشقق المرتفعة، الأمر الذي يتعارض كليا مع طبيعة المكان والسكان.

لقد حدثت أكبر التغييرات المادية وأبرزها للعيان في أبو ظبي. ويشير زكي نسيبه، مستشار الشيخ زايد الفلسطيني النبيه الذي عمل عنده منذ إكتشاف البترول، الى التغيير في الأسلوب كأبرز حدث: «إن الفرق خلال الخمس عشرة سنة هي أن تسيير الامور لم يعد مقصورا على رجل واحد. عندنا الان بيرقراطية. وبإمكان الحاكم أن يذهب للصيد وتسير الأمور على ما يرام». عندما تسلم الشيخ زايد زمام الأمور من الشيخ شخبوط، كان مكتبه في القلعة. وكان كل شيء يحدث هناك، وكان هناك دائما عشرات الناس ينتظرون مقابلة الحاكم، مواطنون بعرائضهم وأجانب ممسكون بخطط لمشاريع ضخمة وباعة يبيعون كل شيء، من السجاد حتى أجهزة الكمبيوتر. أما الآن

فيـولي الشيخ زايد عنايته للأمور الاتحادية فقط، تاركا أمور أبو ظبي لولي العهد، الشيخ خليفة. ولعل ذهاب الشيخ زايد وإخوانه الحكام الآخرين في رحلات صيد طويلة في باكستان أو إيران أو لزيارة المصايف الاوروبية هو برهان على إستقلال الخليج. وهذا شيء لا يقدم عليه إلا بعض الحكام العرب الآخرين.

إن معظم حكام الخليج لا يزالون رجالا تقليدين، يجدون صعوبة في التكيّف مع الطرائق الجديدة. وهذا أحد الاسباب لامتلاكهم للعديد من القصور، كما قال المسؤولون في أبو ظبي. إنهم يحبون أن يشعروا وكأنهم في بيتهم أينما وجدوا. وهذه أيضا طريقة مفيدة لتوفير الوظائف لأفراد عائلاتهم. إن معظم تلك القصور متواضعة ويبدو أثاثها وكأنه تم شراؤه بالجملة من كاتالوج. ومن المحتمـل أن هذا فعـلا هو ما حدث. إن موضة الاستعانة بخبراء الديكور لايجـاد بيوت فخمة، وهي الموضة؟ المتطورة جدا في السعودية، وصلت الى الكويت، إلا إنها بدأت الآن تترك أثرها في مناطق الخليج الأخرى.

الجزء الثاني

زوال العهد القديم

● شحة الشيخ شخبوط تؤدي الى الاطاحة به ● الامارات المتصالحة تصبح دولة الامارات العربية المتحدة ● الكويت تربط الشرق بالغرب وتجعل المال أداة قوة ● قطر تلحق بالقرن العشرين ● وزارة الخارجية البريطانية تُسرّح جيشها.

تماما كما يوجد اليوم في الخليج رجال مفكرون يقولون كفى! لا نريد مزيدا من الصناعة، لا نريد مزيدا من العمال الاجانب، لا نريد مزيدا من المشاكل، هكذا كان هناك في فجر عصر البترول أناس إعتقدوا بأنهم قادرون على مقاومة مد التغيير. وكان أبرزهم وأكثرهم إخلاصا أيضا في موقع يمكنه من وضع أفكاره موقع التنفيذ، وهو حاكم أبو ظبي: الشيخ شخبوط بن زايد آل نهيان، الذي كان رجلا صغيرا، أسمرا ونحيلا، له لحية هزيلة وعادات شخصية عصبية. خلف الشيخ شخبوط عمه الشيخ صقر بن زايد عام ١٩٢٨ وكان مصدرا لمعظم القصص عن سذاجة حكام الخليج عندما واجهوا لأول مرة مبالغ المال الهائلة التي بدأت تتدفق مع تدفق البترول. إن معظم هذه القصص حقيقية، وكذلك يجب أن تكون القصص المشكوك في صحتها: مثل الاسطورة التالية عن الشيخ شخبوط: تم إقناع الشيخ شخبوط في نهاية المطاف بالاصغاء الى شرح عن كيفية عمل النظام المصرفي، وبما أنه لم يكن مغفلا، أدرك بسرعة مزايا التعامل بالشيكات. وهكذا قام بفتح حساب في بنك وأُعطي دفتر شيكات تمت زخرفته خصيصا، إستعمله لسحب المبالغ الكبيرة المطلوبة لتسيير أمور أبو ظبي. وعندما ذهب الى لندن في زيارة خاصة، وجد أنه لم يكن بحوزته مبلغ كاف من النقود. وهكذا كتب بحذر شيكا ـ وأرسله

الى أحـد أعوانه الى أبو ظبي ليصرفه! وبكل تأكيد إحتفظ الشيخ شخبوط بالدفعـات الاولى لقاء إمتيازات البترول في حقائب تحت سريره وفي أماكن أخرى قريبة في قلعة أبو ظبي، وكما أشار إدوارد هندرسون الذي تعيّن عليه تسليم تلك الدفعات، فإن السؤال هو في أي مكان آخر كان بإمكانه الاحتفاظ بها؟ ففي سنوات التنقيب عن البترول كانت العائدات المستحقة متواضعة للغاية وكان يمكن حملها بسهولة على شكل روبيات ورقية هندية كان الشيخ يصر عليها. وحتى أول دفعة فعلية تلقتها أبو ظبي لقاء بترولها في شهر أبريل ١٩٦٢ لم تتجاوز مبلغ ٢٥٠،٠٠٠ جنيه إسترليني. وفي الواقع إتخذ الحاكم تدابير إحتياطية معقولة إذ قام بتكديس هذه الاوراق النقدية في علب بسكوت بعد أن إكتشف أن الفئران قد قضمت عددا منها!! وصحيح أيضا أن الشيخ شخبوط لم يكن يحب انفاق المال وأنه قاوم بشدة معظم الاقتراحات التي كانت تقدم له بصورة منتظمة. وحتى خطة التنمية التي رعتها بريطانيا والتي كانت ستكلف مبلغ ٢٥ مليون جنيه إسترليني لم تسترع إنتباهه. إنه لم يرفضها ولكنه في نفس الوقت لم يقبلها، ولم يكن ذلك من باب الغباء أو بسبب فكرة خاطئـة عن إمكـانيـة وقف أي تقـدم، أو أنه هو صاحب الحق الوحيد في الاستفـادة من الزيادة المذهلة في إيرادات الدولة؛ بل لأنه أدرك ماذا كان سيحدث في المستقبل وأراد أن يطيل المدة التي ستحدث خلالها التغيرات التي أدرك أنها ستحدث.

لقد كان شخبوط حاكما مطلقا وشهما، فعل ما فعل بدافع مصلحة شعبه ورفاهيته وكان على صواب في تفكيره بخصوص التأثير السلبي للثراء المفاجىء على مجتمع قبلي متخلف، من تقويض لجميع القيم التي كانت عزيزة عليه وتحـطيم لثقافة الصحراء، الثقافة الوحيدة التي كانت معروفة له ولشعبه. أضف الى ذلك التنـافـر بين شخصيتي الشيـخ شخبوط والوكيل السياسي البريطاني، الكولونيل سير هيو بوستيد، الجندي والرحالة والشخصية غريبة الأطوار. وكلما كان بوستيد يلح على الشيخ شخبوط بقبول خطط التنمية التي أعدها كلما كانت معارضة الشيخ شخبوط لها تزداد.

فكانت نتيجة كل هذا أن سكان أبو ظبي قليلي العدد بدأوا يشعرون بأن طفرة البترول تتجاوزهم. فلقد شاهدوا ما كان يحدث في السعودية وفي الكويت،

كما كانوا دائما يغارون من إزدهار البحرين. فكانوا يتذمرون في مجالسهم وكـان تذمـرهم يتنـاهى في النهاية الى مسامع حاكمهم. ولكنه لم يعره أي إهتمـام. وحتى الشكـاوى المتكررة للشيخ زايد، أخ الحاكم، الذي فعل ما إستطاع لاستخدام ثروة البريمي الجديدة، لم تؤثر في الحاكم. لقد إستمر الشيخ شخبوط على هذا المنوال، ولكنه سمح في الخمسينات بإفتتاح فروع للبنك العثماني والبنك الشرقي في أبو ظبي، حيث كان يودع عائدات أبو ظبي المتزايدة من البترول بصورة منتظمة في حساب جار وحساب وديعة. ومع ذلك حاول أن يبقي الانفاق في أدنى مستوى ـ لدرجة أنه تعين على مدير المدرسة الوحيد في البلدة أن يطلب شخصيا من الحاكم مبلغا إضافيا لشراء الطباشير! وفي مناسبة أخرى رفض الشيخ شخبوط دفع رواتب الشرطة عقابا على إختفاء مبلغ ٢٠٠،٠٠٠ روبيـة من مقرهم، كان مخصصا لدفع رواتبهم. وعندما أعلنوا الاضراب، فصلهم جميعا! ورفض إتفاقية مناصفة في الارباح عرضتها شركات البترول والتي كانت قد أصبحت القاعدة في معظم أنحاء الخليج. وفي عام ١٩٥٦ أهدى الوكيل السياسي البريطاني سيفا تعبيرا عن موافقته على الهجوم الذي شنته بريطانيا على عبد الناصر تلو تأميمه قناة السويس. ويبدو أن الشيخ كان يجد بهجة في المجاهرة بغرابة أطواره. ومع ذلك يبدو أنه لم يكن هناك الكثير مما يمكن فعله، فلقد كان الشيخ شخبوط هو الحاكم، وعندما تولى الحكم عام ١٩٢٨ حصلت والدته على عهد من بقية أفراد العائلة بأن لا يقتل أحدا شخبوطا مهما حدث. لقد كان هذا العهد إجراء إحتياطيا ضروريا، لأن ثلاثة من الحكام السابقين كانوا قد لقوا حتفهم على يد أقرب الناس وأعزهم لديهم، ولم يمت من أسلاف شخبوط ميتة طبيعية سوى حاكمين فقط!!

ولكن كانت هناك سابقة: فلقد تمت إزاحة الشيخ صقر بن سلطان، حاكم الشارقة، عام ١٩٦٥ لأنه «أخفق في الحكم»، ولم تثر هذه الخطوة كثيرا من الاهتمام لأن الشارقة كانت بقعة صغيرة متخلفة، لا تملك بترولا او اي مصدر ثروة آخر. وكانت أيضا مقر الحامية البريطانية، الأمر الذي جعل التدخل المباشر أسهل من التدخل في بعض الاماكن الاخرى. ان «الجريمة» التي أدت الى الاطاحة بالشيخ صقر كانت ميوله اليسارية بعض الشيء، ولأنه سمح للجامعة العربية بفتح مكتب لها في بلده. لقد كانت وزارة الخارجية البريطانية

في عام ١٩٦٥ تعتبر الجامعة العربية خادما مباشرا للسياسة المصرية، وتعتبر الرئيس جمال عبد الناصر شيطانا صغيرا. وكانت سياسة بريطانيا ترمي الى الحيلولة دون دخول النفوذ المصري منطقة الخليج، متجاهلة الاعداد المتزايدة من المصريين الذين كانوا يتدفقون على المنطقة للعمل وكسب المعيشة. وهكذا تمت الاطاحة بالشيخ صقر وحل محله الشيخ خالد بن محمد، الذي قام بالواجب وألغى الاذن الذي منحه أخوه لفتح مكتب للجامعة العربية.

في يونيو (حزيران) ١٩٦٦ قرر الشيخ زايد ان يذهب الى بريطانيا في عطلة مطوّلة واستأجر قصرا مكونا من ٢٤ غرفة في بلدة بيكونسفيلد وقضى وقتا ممتعا في سباقات الخيل وفي الذهاب الى مبيعات الخيول الاصيلة، وأحدث إثارة أينما ذهب، هو وحاشيته بملابسهم العربية وأحزمة الرصاص التي كانت تزيّن صدورهم وبخناجرهم المزخرفة. وفي هذه الاثناء، وكما قالت الصحف، حدثت بعض التطورات، إذ عُقد اجتماع موسع للعائلة وتم اتخاذ بعض القرارات. ونتيجة لذلك أجرى الشيخ زايد الذي تم اختياره بالاجماع خلفا لأخيه، بعض المناقشات الهادئة مع السيد جْلِن بالفور ـ بول، المقيم البريطاني بالوكالة في الخليج وهو رجل مُحنك، توجه على إثرها جلن الى ابو ظبي صباح يوم السادس من ابريل (نيسان) وذهب فورا لزيارة الحاكم، كما يتطلب البروتوكول (أصول التشريفات) والكياسة في قصر الحصن. ولم يبد أنه كانت عند الشيخ أية فكرة عما كان على وشك الحدوث، إذ جلس فرحا، يشرب القهوة ويتحدث مع ضيفه غير المتوقع. وهكذا فاجأه جْلن بنبأ اجتماع كبار رجال العائلة وقرارهم بأن الوقت قد حان للتغيير، وأنهم يريدونه ان يتنازل عن الحكم، مضيفا بأن حكومة جلالتها (الحكومة البريطانية) سترحب بهذه الخطوة.

غضب الشيخ شخبوط في البداية وسخِر من الفكرة. ولكن جْلن شرح بحزم رأي العائلة وقال له أن كبار آل نهيان ينتظرون سماع قراره في مركز قريب للشرطة. عندها ساد المنطق على غيره. قال له المقيم أن من الأفضل ان يتنازل عن الحكم بكرامة بدلا من أن يُدفع كالمجرم. فوافق الشيخ شخبوط على مضض. وغادر ابوظبي بهدوء الى البحرين، وبعد ذلك بقليل أنتقل للعيش في

خرمشهر دلالة على روابطه الوثيقة بايران. وفي النهاية عاد الى ابو ظبي واقام بصورة دائمة في البريمي. وكان يذهب الى ابو ظبي احيانا لحضور بعض المناسبات الهامة في رزنامته مثل حفلة عيد ميلاد الملكة اليزابيث.

لقد كان هذا بطبيعة الحال واحدا من الانقلابات العديدة التي دبرها البريطانيون في الخليج. لقد تم ترتيبه اثناء عطلة الشيخ زايد في بيكونسفيلد، إذ كانت له في تلك الاثناء عدة محادثات مع عدد من الوزراء وكبار مسؤولي وزارة الخارجية في لندن. ان هذه المسألة لم تنطو على الخيانة من جانب الشيخ زايد، لأنه كان يعتقد، مثل وزارة الخارجية البريطانية، بأن أخاه كان العقبة الرئيسية أمام توفير حياة أفضل، ليس فقط لسكان ابو ظبي، بل لسكان الخليج أجمع. ففي عام ١٩٦٥ أدرك المسؤولون بعيدو النظر في لندن بأنه يجب أن يقوم اتحاد ما في المستقبل بين هذه الدويلات لكي تبقى على قيد الحياة في هذا العالم. ولقد كانت إزاحة الشيخ شخبوط شرطا اساسيا، لمثل هذه الخطوة، لأن ابو ظبي كانت في ذلك الحين الامارة الوحيدة التي تنتج النفط بأية كمية، ولأنه كان من الواضح أن دخلها سيكون حيويا بالنسبة للامارات الاخرى، إن لم يتم العثور على المزيد من البترول، وأن الشيخ شخبوط لن يوافق على ذهاب دخله للامارات الاخرى. وبما أنه كان يعارض بشدة معظم المشاريع في دولته، لذا يجب ان يذهب.

لقد تم كل شيء بهدوء. وقال البيان الذي أصدره آل نهيان أنه تم عزل الشيخ شخبوط لانه «أخفق في إحداث إدارة قديرة، وأخفق في الحكم، ولعدم استعماله ثروة البلاد لمصلحة الشعب. ومن الغرابة حقا، أن العائلة استعملت نفس الكلمات التي استُعملت في العام السابق عندما نُحي حاكم الشارقة! لقد كانت السياسة في الشارقة دائما مسألة فظة: فلقد نجا الشيخ خالد عندما إنفجرت قنبلة في مجلسه عام ١٩٧٠. وعندما جاء أخوه، البالغ من العمر ٢٨ سنة من رأس الخيمة حيث كان يعيش في المنفى، لتهنئة خالد على النجاة، اعتُقل في الحال بتهمة تدبير المؤامرة!

وإذا كان هناك من يشك في تدخل بريطانيا المباشر في مثل هذه الامور، فليتأمل القصة التالية من عُمان، حيث نُحي الشيخ سعيد بن تيمور عام ١٩٧٠: كانت عُمان في ذلك الحين دولة مغلقة تقريبا، لا يُعرف عنها إلا القليل.

إلا أن الاحداث في البلدان المجاورة أدت الى بعض الاهتمام بعُمان نفسها. وهكذا بحثت وكالة رويتر للانباء عن مراسل غير متفرغ في مسقط، ووجدت مُرادها في شخص زوجة مسؤول بريطاني كبير بين موظفي الشيخ سعيد. وذات يوم سمعت هذه السيدة التي كانت خبرتها في الصحافة تكاد تكون معدومة، أنه تمت تنحية السلطان سعيد وأن ابنه قابوس قد نُصب حاكما جديدا. فقامت بكتابة تقريرها بحرص. ثم أعادت صياغته من جديد بلغة البرق وذهبت الى مكتب شركة كيبل آند وايرْليس بجانب السفارة الهندية في مسقط. وهناك قضى المسؤول البريطاني معها بعض الوقت في الثرثرة ثم تناول منها التقرير الذي أرادت ان ترسله الى رويتر. وقرأه ببطء ثم أعاده إليها قائلا «لقد بكّرت قليلا. غدا، وليس اليوم»! وبالفعل أُوقظ السلطان سعيد من نومه غداة اليوم في قصره في صلالة ونُقل على عجل الى طائرة بريطانية كانت في انتظاره لتأخذه الى المنفى في بريطانيا كي يتمكن إبنه من أن يتولى الحكم.

وفي ابو ظبي، سلّم الشيخ شخبوط بالوضع واستقر في إقطاعة أخيه. وعاش في واحة البريمي لسنين عديدة، حيث كان يستقبل الزوار، ويتحدث مع الشيخ زايد بصورة منتظمة، ويتابع التطورات في العالم. لقد كان هذا أحد الانقلابات المتمدنة والضرورية التي حدثت في العقدين الاخيرين من الزمن. إذ سمحت الاطاحة بشخبوط بالبدء في تطوير ابو ظبي، وفي نفس الوقت، وضع أساس الاتحاد الذي بدا ضروريا اكثر فأكثر، ولو أن أحداث الماضي القريب جعلته يبدو نتيجة غير محتملة. إذ كانت ابو ظبي ودبي مثلا في حالة حرب في الفترة ما بين ١٩٤٥ و١٩٤٨ وقاد الشيخ زايد والشيخ راشد المعسكرين المتخاصمين، وكانت المنافسة العميقة بين البحرين وقطر لاتزال تسبب المشاكل، وكانت هناك خصومة بين الفجيرة والشارقة.

وقبل أن تُعطي الاحداث في لندن دفعة نهائية لنوع ما من الاندماج، بدأ التحوّل في ابو ظبي. ففي ١٩٦٢، أي العام الذي سبق اكتشاف النفط، كان الطريق الحقيقي الوحيد في الامارة كلها عبارة عن نصف ميل من الطين «المرصوف» في مدينة ابو ظبي. وكانت هناك مدرسة واحدة فقط بسبعة معلمين، ولم يكن هناك وجود لمستشفى او عيادة، وكان عدد سكانها حوالي ٢٠,٠٠٠ نسمة ولم تكن هناك بناية واحدة ذات أهمية معمارية أو تاريخية

ـ وفي الواقع، لو استثنينا الحصن، لم تكن هناك بيوت كثيرة على الاطلاق، بل أكواخا مبنية من الطين وسعف النخيل. وكما أشار مالكولم أدامز في صحيفة «جارديان» البريطانية «لا يوجد هناك سبب يحول دون قيام المخططين بمحو كل شيء عن وجه الارض والبدء من جديد. ولكن الغربان تتجمع ولم يعد هنالك متسع من الوقت لتجنب التطوير التدريجي الذي شوّه الكويت وقطر». وهكذا تم هدم البنايات القائمة، وكانت الجهود الاولى لاستبدالها مفزعة الى حد ما، إذ ان الشبابيك والابواب والسمكرة في قصر الضيافة الحكومي تعطلت بعد أقل من ١٨ شهرا من تسليمه!

ومنذ ذلك الحين، وبعد صرف مبالغ هائلة تحولت ابو ظبي الى واحة، بالرغم من جميع البنايات البشعة والضخمة التي تعالت فوق انقاض البيوت القديمة. ويُنظر الى سرعة التطور الذي حدث في «سنوات البترول الاولى» بدهشة، ولكن الشيء الملفت للانتباه حقا ليس التغيير المادي، بل التغييرات السياسية التي حدثت، إذ أن ما تحقق في الخليج في غضون سنوات معدودة، استغرق مئات السنين في غير هذا المكان.

إن الأحداث في بريطانيا هي التي سببت كل ذلك، لأن بريطانيا كانت لاتزال القوة العظمى في الخليج، والدولة الوحيدة التي كان لها دبلوماسيون في كل دولة، والبلد البعيد الذي كان جميع الحكام يتطلعون اليه طلبا للنصح والارشاد ـ ويبدو انهم سلموا بالقول المأثور ان الوكيل السياسي البريطاني «كان يترك للشيخ حرية أن يكون صالحا، لا أن يكون فاسدا». لقد كان الوكيل السياسي الصالح مدير مدرسة، وحكما، ومستشارا، ووزير خارجية وصديقا لحاكم الدولة التي يخدم فيها. وقليلون جدا منهم كانوا دون هذا النموذج المثالي. ويمكن القول إجمالا أن هؤلاء الرجال الرائعين، الذين جاءوا في البداية من الجيش الهندي ومن سلك الخدمة المدنية ومن ثم من وزارة الخارجية، قاموا بالمهام التي عُهدت اليهم على أتم وجه. وفي نهاية المطاف، وجد معظمهم متعة في ما كانوا يفعلونه واستمتعوا بكل دقيقة، لأنهم أدركوا بأن الامبراطورية البريطانية كانت على وشك أن تزول. ولقد أوضح لهم ذلك هارولد ويلسون، رئيس وزراء بريطانيا، عندما أعلن بأن بريطانيا ستعجل إنسحابها من «شرق السويس» ـ وعنت هذه العبارة في الواقع التخلي عن عدن

والخليـج. لقـد كان قرار تعجيـل تنفيـذ قرار سابق بسحب جميع القوات البـريـطانية التي كانت موجودة شرق السويس هو النهاية الفعلية لتاريخ بريطانيا الامبراطوري ولتخليها عن دورها كدولة عظمى. وبطريقة ميّزت البلد منـذ الحرب العالمية الثانية، لم تكن هذه مناسبة للدراما او حتى للخطابة عندما دُعي البرلمان للمصادقة على هذه الخطوة. وبدلا من ذلك، لقد كانت صفقة صغيرة حقيرة حيث وافق اعضاء حزب العمال المغالون في العقيدة على زيادة سعر الوصفات الطبية ببضعة بنسات مقابل قيام الحكومة بتخفيض ميـزانية القوات المسلحة، الامر الذي عنى تخلي بريطانيا عن التزاماتها في الشرق الاقصى والخليج.

وجـاء الاعلان على لسان هارولد ويلسون، رئيس الوزراء، أمام مجلس العموم بتاريخ ١٦ يناير (كانون الثاني) ١٩٦٨، ولقد بدا الاعلان بالنسبة لعـرب الخليـج خرقا واضحا لاتفاقيات أُبرمت عن طيب خاطر، خاصة وان السيد جورونوي روبرتس ، وزير الدولة، كان قد زار الخليج في العام السابق وأعـطى جميـع الحكام انطباعا بأن بريطانيا تنوي البقاء في المنطقة. ولقد أغضب اعلان ويلسون حزب المحافظين في الحال، الامر الذي اثار المزيد من البلبلة في الدول المعنيـة: وبـطبيعـة الحال اعتقد حكام الخليج بأن حزب المحافظين الذي عارض سحب القوات البريطانية سينقض القرار لو أنه كان في وضع يمكنه من فعل ذلك وكانوا يعلمون بأن الانتخابات العامة في بريطانيا كانت وشيكـة الوقـوع. وبـدا لأولئـك الذين كانـوا يحبـذون بقاء القوات البريطانية بأن أفضل مسلك هو المراوغة لكسب الوقت.

وفي لندن، ركز اعضاء البرلمان جل اهتمامهم خلال يومين من النقاش على تكاليف الوصفات الطبية، والجنيه المخفض والاوضاع الاقتصادية المحلية، وأعار قليلون من بينهم اهتمامهم وكلماتهم لما بدا وكأنه تمزيق للمعاهدات وتخل سافر عن عهود قطعت في الماضي. قال إيان مكلاود، الناطق باسم حزب المحافظين «إذا كان هناك ثمنا يجب ان ندفعه من أجل الدفاع والحفاظ على كلمتنا، إذا يجب ان ندفعه. وليكن من الواضح بأنه عندما سنصبح نحن الحكومة، وإذا كانت المحافظة على وجودنا في الشرق الاقصى عمليا ومفيدا لنا في السنـوات حتى منتصف السبعينـات، فاننا سنفعل ذلك». ان هذا وعد

سياسي مطاط ومع ذلك فلقد تم اعتباره، على نطاق واسع، بأنه التزام من طرف حزب المحافظين بتغيير سياسة حزب العمال.

هذا بكل تأكيد ما فهمه حكام الخليج، ولتسهيل حدوث مثل هذا التغيير، عرضوا بهدوء دفع تكاليف إبقاء القوات البريطانية في الشارقة والبحرين: ٢٠ مليـون جنيـه استرليني او نحو ذلك. ولكن بلا جدوى، فعندما تولى حزب المحافظين فيما بعد الحكم وطالع دفاتر الحسابات كما فعل ذلك وزراء حزب العمال من قبله، قرر بأن المال لم يكن متوفرا لبقاء ربما لم يعد ضروريا. قال جورج براون، وزير الخارجية العمالي: «يحين وقت يصبح الوجود العسكري الاجنبي فيه (عاملا) مسببا للخلاف وليس قوة للتماسك. لقد توصلت الى نتيجة وهي أنه كلما سارعت دول الخليج الى الاعتماد على نفسها كلما كان هذا أفضل». وفي نهاية المطاف كان جورج براون على حق، إذ ان رحيل القوات البريطانية كان الحافز على اقامة الاتحاد.

كان هذا الرحيل، من وجهة نظر بريطانيا، حدثا قذرا. فلم تنفخ الابواق عندما رحل الجنود، بل كان هناك اندفاعا لمغادرة الخليج قبل ان يقوم شاه ايران بتنفيذ تهديده بغزو الجزر، وكان مأمورو الامدادات منهمكين في بيع مخلفـات الجيش البريطاني. لقد كانت بريطانيا مفلسة وكانت بحاجة لكل قرش يمكن كسبه. ولكن هذا حدث بعد سنتين، وفي هذه الاثناء كان حكام الخليج في حيرة: إنهم لم يعلموا ما إذا كان المحافظون يعنون ما يبدو أنهم يقولونه، أو هل سيفوز المحافظون في الانتخابات!؟ وهكذا ماطل الشيوخ من أجـل كسب الوقت، وفي نفس الوقت حاولوا وضـع الاسـاس تحسبا لقيام بريطانيا بتنفيذ ما كانت تهدد القيام به. كل هذا بطبيعة الحال خص الدول الصغيرة في جنوب الخليج، الدول المتصالحة، أكثر من غيرها، كالبحرين وقطر اللتين كانتا تفكران في استقلالهما ـ لقد بلغت درجة العداوة التقليدية بينهما حد أن أيـا منهمـا لا يمكنهـا ان تفكـر جديا بالانضمام الى اتحاد يشمل الاخـرى، وهكذا عندما زال خطر الاحتلال الايراني، سارعت البحرين الى الاعتماد على نفسها.

ان البحرين وقطر هما عضوان في مجلس التعاون الخليجي، ولكن لايزال هناك رمز للمواقف السابقة حتى يومنا هذا في مكتب الشيخ عيسى في الرفاع

الغربي حيث تبيّن خريطة رسمية الزبارة على انها مدينة بحرينية. صحيح انه تم شطب الاسم بالحبر ـ ولكن بصورة خفيفة جدا. اما قطر فكانت على العكس متحمسة لفكرة الاتحاد، ولو أنها أيدت فكرة الاتحاد الكونفدرالي بدلا من الفدرالي. وربما دل موقفا البلدين المختلفان على خصائص المكانين في ذلك الحين: البحرين، البلد الواثق من نفسه، المتمرس والمتيقن من قدرته على الاعتماد على نفسه، قطر، البلد حديث الاستقلال وحديث الثروة، والمتردد، والذي ينظر الى العالم الخارجي طلبا للنصح وسعيد بأن يكون في مجموعة بدلا من قيامه بإتخاذ قراراته بنفسه. وكما حدث، كان عدد من وزراء البحرين ينتقدون سرا احتمال ضم بلدهم المتقدم والمستقر الى ما وصفوه بالدويلات المتخلفة والجاهلة في البر. ومع ذلك فان هذه الدويلات هي التي كانت تملك المال القادر على جعل أي اتحاد ممكنا. وهكذا كان الشيخ زايد والشيخ راشد هما اللذان يملكان القدرة على تحديد ماذا يجب ان يحدث في المستقبل. ولقد كان الاثنان غريمين قديمين ولم يكن أحدهما الود للآخر. وكانت دبي قد خرجت الى حيّز الوجود عندما انشق فخذ البوفلاسة عن قبيلة بني ياس، ورحل ٨٠٠ فرد بزعامة عبيد بن سعيد ومكتوم بني بطي عن ابو ظبي واستقروا في دبي عام ١٨٣٣. ولم يغفر المتبقون في ابو ظبي ابدا لاولئك الذين هجروا موطنهم الاصلي عملهم هذا، كما كانت هناك نزاعات اقليمية حقيقية بين البلدين، علاوة على ذكريات الحروب القبلية قريبة العهد حول سرقات الجمال وآبار الماء.

وهكذا كان الاجتماع الذي عقد بين الشيخ زايد والشيخ راشد يوم ١٨ فبراير (شباط) ١٩٦٨ بالغ الاهمية لأنه كان سيحدد نمط اية مباحثات في المستقبل، كما كان رمزا للموقف، اذ ان الاثنين اجتمعا في خيمة نصبت على عجل على الحدود بين إمارتيهما، لأن كلا منهما رفض منح الاخر الشعور بالتفوق بزيارته. وفي نهاية المطاف كانت النتيجة حسنة للغاية ويبدو أن الشيخ زايد قدم جميع التنازلات ليجعل قيام الاتحاد امرا ممكنا. وهكذا تمت تسوية نزاع الحدود بين البلدين بدون محادثات مطولة: فمنحت ابو ظبي حقل البترول البحري النفيس «فاتح» لدبي لقاء تخلي الاخيرة عن مطالبتها بحوالي ستة عشر كيلومترا من ساحل ابو ظبي. ثم أقدم الحاكمان على خطوة

غير متوقعة وأعلنا عزمهما على «تكوين اتحاد يضم البلدين له علم واحد..» وربما لم يُقصد بهذا الاعلان سوى اعطاء دفع للمحادثات العامة، ولقد نجح في ذلك، اذ حضر اعضاء الاتحاد التسعة المحتملين (البحرين وقطر والدول المتصالحة السبع) مؤتمرا دستوريا بعد مضي اسبوع على ذلك. وعلى الرغم من التطابق الظاهر بين وجهات نظر الشيخ راشد والشيخ زايد، فلقد بقيا كما كانا دائما، صديقين متذمرين ومتنافسين، نادرا ما يعملان سوية، يسعيان لضمان الحد الاقصى من أي شيء معروض لشعبيهما.

وهكذا فكل منهما أراد إنضمام قطر والبحرين الى الاتحاد لأغراضه الخاصة، ولم تنبع تلك الارادة من الاعتقاد بأن هاتين الدولتين ستنضمان فعلا الى الاتحاد: إذ كان الشيخ أحمد بن علي آل ثاني، صهر الشيخ راشد، هو الحاكم في الدوحة، ويمكن الاعتماد على تأييده لوالد زوجته، وبالمثل، كان للبحرين روابط وثيقة مع ابو ظبي، التي قدمت العون والتأييد للشيخ عيسى، ولذا يمكن الاعتماد على تأييده للشيخ زايد في أي نزاع.

عُقد اجتماع الحكام التسعة بتاريخ ٢٥ فبراير (شباط) وصدر عنه اعلان (اتفاقية دبي) أعرب عن نيتهم في اقامة اتحاد فيما بينهم، ولكن شيئا لم يحدث اذ ان قطر كانت تضيف المزيد من البنود في كل اجتماع للخبراء وكانت كل دولة تراوغ حول أدق التفاصيل. لقد كانوا في الواقع يراوغون في سرهم، على أمل أن تحدث تغييرات سياسية في لندن البعيدة تجنبهم الحاجة الى اتخاذ القرارات بأنفسهم.

وهكذا عُقد الاجتماع تلو الآخر، بحضور بعض الحكام احيانا، علما بأن مثل هذه المؤتمرات كانت نادرة، نظرا للخلافات القائمة بين الحكام، وبحضور مستشارين مصريين وفلسطينيين يمثلون الحكام، كانوا يراوغون ويناورون من أجل الرقي بمصالح اسيادهم. وتقول احدى قصص تلك الفترة ان حاكم احدى الامارات المتخلفة قضى معظم الوقت في أحد المؤتمرات يهز رأسه ويتمتم «أنا لا أفهم». وعندما تمت في نهاية الامر صياغة البيان الختامي، كان الحاكم لايزال يهز رأسه ويتمتم «أنا لا أفهم». فسأله احد المستشارين الفلسطينيين بفارغ صبر «ما هو الشيء الذي لا تفهمه يا سمو الشيخ؟» فرد عليه الاخير «أنا لا أفهم كيف استطاعوا ادخال هذه الطاولة الضخمة عبر

هذا الباب الضيّق!».

وثمـة مشكلة أخرى وهي أن الخبراء الذين إختارهم الحكام أو فُرضوا عليهم كانوا معنيين بالتفاصيل القانونية اكثر من اعتنائهم بروح الاتحاد. فكان الدكتور عبد الرزاق السنهوري، مؤلف دستور الكويت، مصدرا دائما للمضايقة بمراوغته حول كل كلمة وجملة بدلا من ان يدع الحكام يقضون الوقت في التركيز على بنود عريضة. ودُعي الدكتور وليد رفعت، وهو مستشار قانوني مصري آخر، لمراجعة المشروع الذي أعده زميله وبطبيعة الحال وجد فيه عشرات العيوب. ثم أعد الدكتور حسان الطويلبي، الذي كان في حينه واحدا من بين المستشارين الكثيرين الحاضرين ثم أصبح مسؤولا كبيرا في الحكومة الاتحادية، قائمة من الاسئلة قام بتوزيعها على الاطراف المعنية. لقد بدت المسألة في حينه معقدة ومغيظة بلا داع. فلقد حدث التقدم الحقيقي أثنـاء عطلة صيف عام ١٩٦٩، عنـدمـا زار كل من الحكـام لندن لاجراء محـادثات ثنائية مع الوزراء والمسؤولين البريطانيين. وبما ان الانتخابات العامة كانت تدنو بسرعة، لم يكن باستطاعة هؤلاء الوزراء ان يفعلوا شيئا سوى شرح مواقف أحزابهم. وهكذا كانت النتيجة الاخيرة ثمرة جهود وزارة الخارجية البريطانية.

وفي نهـاية الصيف برزت هناك دلائل على ان المحادثات التي استمرت أشهـرا قد أثمرت ، اذ وافق الحكام التسعة على حضور اجتماع ما سُمي بالمجلس الأعلى المؤقت للاتحاد في أبو ظبي يوم ٢١ اكتوبر (تشرين الاول). لقد كان هذا الاجتماع السادس والاخير، وتم حتى اعداد البيان الختامي قبل ان يجتمع الحكام: وأعلن هذا البيان تعيين الشيخ زايد رئيسا للاتحاد وتعيين الشيخ راشد نائبا للرئيس، وأن ابو ظبي هي العاصمة المؤقتة وأنه سيتم بناء عاصمة دائمة للاتحاد على الحدود بين ابو ظبي ودبي.

كان المفروض ان يتم التوقيع على هذا البيان بتاريخ ٢٤ اكتوبر، بعد ثلاثة ايام من المناقشات والمفاوضات والمساومات المعتادة. الا ان الحكام أخفقوا في التوصل الى اتفاق، وهكذا تقرر عقد جلسة إضافية غداة اليوم. وحضر اثناء تلك الجلسة جيمس تريدْويل، الوكيل السياسي في ابو ظبي، ومعه رسالة من المعتمد البريطاني، السير ستيوارت كروفورد، قام بقراءتها على المجتمعين. لقد

كانت رسالة غير مؤذية، مجرد تكرار لرغبة بريطانيا في قيام الاتحاد واعراب عن الامل بأن يوفق الحكام في التوصل الى اتفاق. ولكن الشيوخ اعتبروها محاولة متعجرفة للتدخل في شؤونهم. فغادر حاكما قطر ورأس الخيمة القاعة بغضب اثنــاء قراءتهــا، بينما راح باقي الحكام يتململون ويتمتمون. وفور إنتهاء تريدْويل من قراءة الرسالة، رُفعت الجلسة، ولكنها لم تلتئم ابدا مرة أخرى. وربما أرادت بريطانيا ان تعطي الشيوخ دفعة خفيفة كي يسيروا في الاتجاه الذي أرادته ولكن يبدو أنها أخطأت فهم الموقف. ومما زاد الأمر سوءا اعلان ايران بأن أي اتحاد يشمل البحرين لن يكون مقبولا.

لذا شرعت البحرين في الاستعدادات للاعتماد على نفسها، وتبعتها قطر في ذلك، لانها كانت عازمة على ان لا ترى منافستها القديمة تنعم بالاستقلال بينما هي تُذيب هويتها في اتحاد. وفي الذكرى السادسة عشر لتولي الشيخ عيسى السلطة اعلن في خطاب يوم ١٦ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦٩ عددا من الاصلاحات، هدفها اعطاء الشعب المزيد من السلطة في الحكم، وبعد مضي شهر على ذلك اعلن تشكيل حكومة جديدة مكونة من ١٢ وزيرا، كان خمسة منهم فقط من آل خليفة. وفي شهر مارس (آذار) أصدرت قطر دستورا مؤقتا، وفي شهر مايو (ايار) تم تشكيل مجلس وزراء مكون من سبعة أعضاء في الدوحة، كان من بينهم ثلاثة وزراء من غير آل ثاني.

فاز المحافظون في بريطانيا بالانتخابات، وأصبح سير أليك دوجلاس هيوم وزيرا للخارجية، الا انه تمسك بسياسة سلفه. وأعلن يوم ١ مارس (آذار) ١٩٧١ انه ستعرض معاهدات صداقة على جميع دول الخليج التي تربطها علاقات خاصة ببريطانيا. وبحلول هذا الوقت تم الاتفاق على جميع الامور حسنا، جميع الامور تقريبا لأنه عندما اجتمع حكام الدول المتصالحة السبع في دبي في شهر يوليو (تموز) لاعلان اتحادهم، اصبح هذا الاتحاد مكونا من ٦ دول فقـط، اذ قرر الشيخ صقر، حاكم رأس الخيمة، ذلك الرجل النبيل والمسن وسريع الانفعال الذي لم تفعل السنوات اللاحقة اي شيء لتليينه قرر في آخر لحظة ان لا يشترك. لقد طالب بأن يكون للامارات الصغيرة وزن مساو في المجلس الاعلى للاتحاد بدلا من ان يكون هذا المجلس تحت هيمنة أبو ظبي ودبي. وبما ان الآخرين رفضوا التنازل، قرر الشيخ صقر الانسحاب.

وفي ١٤ اغسطس (آب) ١٩٧١ أذاع الشيخ عيسى الاعلان بأن البحرين ستصبح مستقلة، وبعد ذلك بشهر حذت قطر حذوها. ان هذا لم يكن على الاطلاق ما كانت النيـة معقـودة عليـه، ولكن ربما كان ذلك افضل، نظرا للمنـافسـات والعداوات التي كانت قائمة بين الحكام. وفي الواقعان اتحاد الامارات الست كان انجازا يستحق التهنئة. وكما كان متوقعا، لم تستطع رأس الخيمة الوقوف على قدميها طويلا، فانضمت الى شقيقاتها الست في فبراير (شباط) ١٩٧٢.

وبعد رحيل بريطانيا، كان هناك خطر من احتمال ان تقوم قوى خارجية باستغـلال الموقف لكي تتدخل في المنطقة. وفي الواقع، منعت ايران بقيادة الشـاه محمد رضا بهلوي ذلك. كما سارعت الولايات المتحدة لملء الفراغ. فقدم أول سفير امريكي في الخليج بالمعنى الضيق للكلمة اوراق اعتماده ـ فأُرسال الى الكويت وتم اعتماده لدى بقية دول المنطقة الاخرى. كانت هذه بداية اهتمام امريكي متزايد بالمنطقة، وهو الاهتمام الذي كان محصورا في السعـوديـة حتى ذلك الحـين. لقـد رأت واشنطن أن عليها ان تحل محل بريطانيا، لذا عقدت معاهدة مع البحرين في نفس السنة، سمحت لها بأن تستعـير القاعدة البحرية البريطانية السابقة «الجفير». واحتفظت الولايات المتحـدة فيهـا بسفينة قديمة بصورة دائمة، بينما قامت مدمرتان بأعمال الدورية في الخليج بإنتظام. ولقد كانت هناك مشاكل اذ أُجبرت البحرين على المطالبة بانهاء الوجود الامريكي في عام ١٩٧٣، احتجاجا على تأييد الولايات المتحـدة لاسرائيل في الحرب، ولكن بعد مرور عام أُعيدت للولايات المتحدة حقوقها في القاعدة وبقيت هذه الحقوق منذ ذلك الحين. ان الوجود الامريكي في البحـرين مكبوت ولكنه تم بناء عددا من المرافق، وتملك البحرين شبكة اتصالات حديثة، ولا شك في ان الجزيرة ستُستخدم كقاعدة اذ ظهرت هناك حاجة لتدخل امريكي مباشر.

ادى الاختتام الناجح للمحادثات حول تشكيل الاتحاد ـ الذي كان الى حد بعيد نتيجة ادراك جميع الحكام بأن بريطانيا عنت هذه المرة ما قالته، وأنها مصممـة على الانسحاب من الخليج ـ ادى مباشرة الى استقلال البحرين وقـطر، كمـا كان له تأثـير بالغ في الكويت، التي كانت من الناحية النظرية

مستقلة منذ عام ١٩٦١. ولكن الكويت في الواقع حافظت على روابط وثيقة مع بريطانيا، وكانت لاتزال تربطها اتفاقية دفاع مع بريطانيا في عام ١٩٧١. ولقد تم الغــاء هذه الاتفــاقيــة بواسطة تبادل للرسائل في مايو (ايار) بإيعاز من الكويت الى حد بعيد، لأنه بحلول ذلك الوقت كانت الكويت تقف على قدميها وكانت الطريق امامها واضحة. ان اي اقتراح بتكرار انزال القوات البريطانية في الكــويت كالذي حدث عام ١٩٦١، كان من شأنه ان يخيف حكام هذه الدولة الغنية أكثر من اي تهديدات عراقية أو من أي مكان آخر. لأن الكويت، على الرغم من امتــدادها العمراني، ومستوى فن عمارتها الوضيع، ونسبة حوادث الطرق المــرتفعة، والمادية المفرطة، التي مثلها انهيار سوق المناخ ـ سوق الاوراق المالية غير الرسمي في الكويت ـ يجب اعتبارها واحدة من أكبر نجاحات الخليج والعالم العربي. ولقد حققت ذلك بأقصر وقت ممكن، من فقر مدقــع الى اعــلى نسبــة دخــل للفرد الواحد في العالم. والأهم من كل شيء استنبــطت سيــاســة خارجية راسخة خاصة بها مختلفة عن دول الخليج الاخرى ومع ذلك تمكنت من المحافظة على علاقات حسنة مع تلك الدول وهي عضــو متحمس وفعــال في مجلس التعــاون الخليجي. وكانت حتى الامس الوحيــدة من دول الخليج التي لها علاقات دبلوماسية مع كل من الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية. وفي عام ١٩٦٧ ارسلت الكويت فرقة من جيشها الى مصر لمحاربة اسرائيل وقد كررت هذه الخطوة عام ١٩٧٣. ولقد ظهرت ثقة الكويت بنفسها في نوع الحكومة الذي تبنته. ان آل صباح ابقوا بكل تأكيد السلطة المطلقة في ايديهم، وعندما اصبح مجلس الامة الذي اقاموه صعب المــراس، لم يتــرددوا في حله. وتأتي صحافة الكويت في المرتبة الثانية بعد الصحافة اللبنانية في حرية رأيها وتعبيرها. وأنه لمن الجلي بأن هذا هو وليد ثروتها العظيمة، التي لا تضمن للمواطن الرعاية الطبية والتعليم المجانيين فحسب، بل تضمن له ايضا معاشا لمدى الحياة ان لم يتمكن من العثور على عمل يناسبه!

ولا بد ان يكون كذلك نتيجة لتاريخ هذا البلد وموقعه الجغرافي، إذ أن الكويت كانت دائما ممرا للقوافل، علاوة على كونها ميناء صيد وغوص. وربما يعود إسمها الى كلمة كوت التي تعني حصن، مما يدل على أن أهلها حصنوا

ديارهم لحمايتها من الغزاة. وتم تأسيس البلدة على يد ثلاثة أفخاذ من عشيرة العتوب، الا انها تُركت تحت سيطرة آل الصباح عندما رحل آل خليفة وآل جلاهمة الى الزبارة عام ١٧٦٦. ولقد بقيت تحت سيطرتهم منذ ذلك الحين، علما بأنه تعيّن عليهم أن يتقاسموا السلطة مع بعض العائلات التجارية الكبيرة في المنطقة، وبكل تأكيد فإن نجاح الكويت في السنوات الاخيرة يعود الى حد ما الى توازن القوى بين هاتين الفئتين.

لقد كانت الكويت حتى الثلاثينات من هذا القرن كباقي دول الخليج، تعتمد على اللؤلؤ وصيد الاسماك والتجارة، بإستثناء انه كان هناك ايضا نحو ٤٠ مركبا تعمل في نقل الماء من شط العرب. وكانت في مطلع القرن بلدة يقطنها نحو ١٠,٠٠٠ نسمة منتشرين بمحاذاة الساحل، على عمق لا يزيد على ربع الميل يحميها سور سُمكه قدم واحد من جانب الصحراء. ولقد تميّز حكامها بالتسامح، اذ كانوا يرحبون بكل من أراد ان يتاجر هناك دون فرض أي رسوم على التجار ودون التمييز ضد أحد بسبب جنسه أو دينه ـ ولقد كانت هناك جالية يهودية مزدهرة لمدة طويلة من الزمن. ولعل أكثر الاحداث اثارة في تاريخ الكويت القبلي كان تولي مبارك الكبير السلطة بقتل أخويه عام ١٨٩٦، ونقلا عن تقرير من ذلك الحين «مُنع بصعوبة من قلع عيون عدد من ورثتهما كي يجعلهم غير مأهلين للوراثة». كان احد الاخوين، وهو محمد، الحاكم في حينه وكان يعمل بتعاون وثيق مع الاخ الثالث، جراح، بينما كان مبارك نفسه رجلا مستهترا يجري وراء المغامرات وكان يقضي معظم وقته مع البدو، واثبت مهارته القتالية في الحروب القبلية التي كانت تحدث دائما في حينه.

ولم تزدهر الكويت بقيادة محمد وبما ان دخلها اخذ يتناقص، اتخذ قرار بفرض الرسوم الجمركية والضرائب، وهو قرار لا يُحبب ، بطبيعة الحال، الحاكم الى رعاياه او ضيوفه. ولقد حُملت المسؤولية عن هذا القرار الأحمق على مستشار عراقي هو يوسف بن عبد الله آل ابراهيم . ولكن مهما كانت الحقيقة، فلقد فرضت الضرائب وازداد الاستياء وقرر مبارك بأن هذه هي فرصته: فقاد مجموعة صغيرة من اتباعه وفاجأ شخصيا أخويه وذبحهما. لقد كانت هذه، كما يبدو، مجرد جريمة قتل عادية ولكن كانت لها عواقب وخيمة، لان الكويت كانت تُعتبر خاضعة لسلطة الوالي العثماني في البصرة، الذي لجأ

اليه يوسف بن عبد الله. واستغل الشيخ مبارك هذه المناسبة الاولى ليثبت انه ليس فقط مجرد محارب عديم الرحمة وحسب، بل أنه مفاوض ماهر ايضا. فعندما تسلم استفسار الوالي حول مصرع اخويه،، أجاب نعم لقد قُتل الاثنان وأن الشبهة تحوم حول عراقي يدعى يوسف بن عبد الله، الذي فر من الكويت. ورجا من الوالي السعي للقبض على المجرم..

وقرر الوالي بأنه لا يمكنه ان يفعل شيئا حيال مثل هذه الاهانة، وترك الشيخ مبارك وشأنه. وبعد مضي عامين اتُخذت قرارات في برلين واسطنبول بشأن تمديد سكة حديد برلين ـ بغداد المقترحة حتى الكويت. ولم تطب هذه الفكرة للشيخ مبارك، وعندما ارسل الاتراك كأمور ميناء تركيا الى الكويت ليتولى ادارة الامور هناك، طرده الشيخ مبارك. ولقي فريق من المسّاحين الروس نفس المعاملة، ولكنه أدرك خطورة لعبته وكان بحاجة الى اصدقاء. وكانت بريطانيا هي القوة الوحيدة التي ناسبت احتياجاته بحضورها المحصور في الممرات المائية وعدم اهتمامها الواضح بشؤون داخل شبه الجزيرة العربية.

وهكذا وقّعت الكويت وبريطانيا معاهدة عام ١٨٩٩ جعلت الكويت في واقع الأمر محمية بريطانيا، لقاء تعهد من حاكمها بعدم انشاء علاقات مع اية دولة اخرى، وكانت هذه احدى الاتفاقيات التي عُرفت بإسم «الاتفاقيات الخاصة» (Exclusive Agreements). وبهذا الدعم من ورائه، شعر الشيخ مبارك بأنه قادر على اطلاق العنان لولعه بالحروب الصحراوية والغزو. فقام هو وصديقه ابن سعود، الذي كان يعيش في المنفى في الكويت في حينه، بغزو آل رشيد، الذين كانوا قد طردوا آل سعود من الرياض. ولم يكن هدف مبارك هو التمتع برياضة ذلك الحين (الغزو) فحسب، بل ابقاء جزيرة العرب منقسمة على نفسها ايضا، لانه اعتبر قيام أية دولة موحدة في بلاد العرب تهديدا لحكمه. ولكن أفكار مبارك كانت أكبر من أفعاله، إذ أنه هُزم شر هزيمة في صريف، وفَر عائدا الى الكويت يجر أذيال الهزيمة. وكانت السفينة الحربية البريطانية «بيرسيوس» تقوم بمهام الحراسة قبالة الكويت، لردع الاتراك والألمان واي شخص آخر. وبعد بضعة اشهر زحف آل رشيد على الكويت للانتقام. فهب أهلها والبدو الموالون للشيخ مبارك للدفاع عنها. وعندما شاهد

قبطان «بيرسيوس» الحشود الكبيرة حول المدينة، قرر ان يذهب الى الشاطىء ليتحرى الامر. وبعد ان اطلعه الشيخ مبارك على حقيقة الموقف رأى ان انتصار آل رشيد سيعني اخضاع الكويت للاتراك. فأمر بانزال مدافع ثقيلة من السفينة لمساعدة مبارك وبتوجيه مدافعها نحو البر. وعلى ضوء هذه التطورات قرر آل رشيد الانسحاب، تاركين الكويت تحت السيطرة البريطانية في واقع الامر.

ولقد تم تعزيز ذلك التأثير عام ١٩١٤ عندما زحفت بريطانيا على العراق لمنع العثمانيين من الاستيلاء عليها، واعطت في نفس الوقت تعهدا رسميا بضمان استقلال الكويت تحت الحماية البريطانية. لقد كانت الكويت في مطلع الحرب العالمية الاولى بلدة تتكون من ٣٠٠٠ بيت و٥٠٠ دكان، يقطنها نحو ٢٥,٠٠٠ نسمة، يضاف اليهم نحو ١٠,٠٠٠ من البدو يجوبون الصحراء. واستنادا لتقارير من تلك الفترة، كانت مكانا تعسا وفقيرا وقذرا، حيث كان منظر الاهالي وهم يقرفصون كل صباح عند الشاطىء لقضاء حاجتهم منظرا مألوفا. فلم تكن هناك مجار وترك أمر المحافظة على نظافة المكان للمد والجزر. واثناء الحرب لم يأت التهديد للكويت من الاتراك، بل من الاخوان، رعايا ابن سعود. فلقد هاجموها عام ١٩١٧ ومرة اخرى عام ١٩٢٠، ولكن الكويتيين صمدوا في القصر الاحمر القائم في طرف المدينة، وهو أحد المباني القديمة القليلة التي تمت المحافظة عليها. فقامت السعودية بمحاصرة الكويت لمدة سبع سنوات، حتى عام ١٩٢٩. اما اليوم، فالسعودية كفيل لحرية واستقلال الكويت، علاوة على نفوذ وثروة الكويت نفسها.

لقد كان الشيخ عبد الله هو الذي اشرف على تطوير الكويت. فقد شاهد في عهده الذي دام ١٥ عاما، ابتداء من عام ١٩٥٠، شاهد المدينة تتحول من بلدة صيد بسيطة الى مدينة حديثة، مزدهرة وصاخبة. وبطريقة ما، استطاع ان يحافظ على القيم والطرق القديمة في حياته الخاصة بينما تقبل احدث التطورات لصالح شعبه. فكانت له زوجة واحدة وسيارة كاديلاك واحدة، كما قال مرارا لزواره. وكان مجلسه مفتوحا دائما لشعبه، واظهر تفهما كبيرا للاحداث في معاملاته مع الاجانب. وخلفه في الحكم الشيخ صباح، العضو الثاني عشر من آل صباح الذين حكموا دولة الكويت منذ عام ١٧٥٦. وقام

الامير الجديد بتعيين الشيخ جابر الاحمد رئيسا للوزراء، محافظا بذلك على توازن القرى بين آل صباح، الحكام التقليديين وآل جابر، مجموعة التجار الثرية ذات الاهمية المتزايدة على الدوام.

وتم في عام ١٩٦٣ انتخاب اول مجلس للأمة. وشارك في التصويت نحو ٢٧,٠٠٠ من الناخبين الذكور. وكانت هناك ضغوط كبيرة ومختلفة الانواع لضمان فوز المرشحين المؤيدين للحكومة. وعلى الرغم من ذلك انتخب عدد من المعارضين. وفي البداية، في انتخابات عام ١٩٦٣ و١٩٦٧، شكل الدكتور أحمد الخطيب والقوميون العرب كتلة المعارضة، التي كانت صريحة للغاية لدرجة أن الامير قرر حل مجلس الأمة. وفي انتخابات عام ١٩٨١، شكّل الاسلاميون قوة ضاغطة فعالة. لقد كانت الغاية من تأسيس مجلس الأمة بلا شك هي أن يكون بمثابة صمام أمان، اي وسيلة لتمكين الساخطين من التنفيس عما يجول بأنفسهم، إذ أن إحتمال حدوث تغيير في الوضع الراهن ضئيل نظرا لامتلاك ١٨ عائلة نسبة ٩٠ بالمئة من استثمارات الكويت الخاصة في الخارج. والحال هذه، فان الانتخابات في الكويت ملفتة للنظر حسب المعايير الغربية، إذ أنها خالية من الخطب أو الشعارات، وهناك نقاط خلاف قليلة في بلد لا توجد فيه ضريبة دخل، وفيه طبيب لكل ٥٢٥ من السكان وهبات حكومية من جميع الانواع لكل من يطلبها ـ بشرط ان يكون مواطنا كويتيا. ومع ذلك، تنافس في الانتخابات الاولى ٢٠٤ مرشحا على خمسين مقعدا.

قليل هو عدد الاجانب الذين حصلوا على الجنسية الكويتية، وحق الانتخاب مقصور ليس فقط على الاهالي الاصليين، بل ايضا على المواطنين من «الدرجة الاولى»، اي العدد القليل من الاجانب الذين حصلوا على الجنسية قبل اكثر من خمس سنوات. ولقد تميزت الانتخابات الاولى بكثرة التلاعب في الاصوات وتبديل صناديق الاقتراع، ولكن الاجماع العام هو ان الانتخابات التالية كانت نزيهة وحرة بوجه عام. لقد كان مجلس الأمة بعيدا كل البعد عن كونه مجرد إمّعة، ولقد تمكن من مقاومة عدد من الافكار التي طرحتها الحكومة. وسن قانونا يمنع منح الجنسية لغير المسلمين، الأمر الذي أقلق عددا من كبار المستشارين الفلسطينيين المسيحيين، وصدّ خطوة لمنح حق

التصـويت للنسـاء، ورفض اقتـراحات تفرض قيودا على حرية الصحافة، وأوقف الدعم المـالي لقـوات الردع العربية التي كانت تحت سيطرة سوريا احتجاجا على تجاوزات السوريين في لبنان. ولسبب ما، انتاب المجلس دائما هاجس المسكرات في بلد لا يتعاطى الناس فيه الخمور في الواقع. ففي عام ١٩٦٥ سن المجلس قانونا يحرم المسكرات: كانت الكويت حتى ذلك الوقت بلدا لا يسمح فيه للمسلمين بتعاطي الخمور ولكن كما كان معمولا به في معظم بلدان الخليج، كان يسمح للمسيحيين ممن يكسبون مبلغا معينا من المال بمقدار معين من المسكرات للاستهلاك الفردي. وكان البريطانيون يديرون هذه الخـطة حتى استقلال الكويت عام ١٩٦١، عندما عُهدت هذه المهمة لشركة جري ماكنزي. ويبدو أن هذا كان سبب المشكلة، لأن تجار الكويت عارضـوا منـح هذا الامتيـاز المغـري لشركة أجنبية، وبما أنه لا يليق بهم كمسلمين أن يقوموا بذلك، كان الحل الذي ارتأوه هو اصدار قانون يحرم بيع المسكرات جملة. وثمة عامل آخر ساهم في ذلك، وهو قلق الحكومة من انتشار مرض الادمان على المخدرات، مما أدى الى ارتفاع هائل في حوادث الطرق، وحدوث عدد من الفضائح، بما في ذلك حالات سُكر في المدارس الثانوية. وبكل تأكيد إزدادت حركة السير في البصرة الى اربعة أمثال ما كانت عليه قبل هذا التحريم، وارتفع سعر زجاجة الويسكي الى عشرة امثال ما كان عليه، كما كان هناك سيل من الوفيات من جراء شرب السبيرتو والكولونيا والكحول المثيلي. ولم تثن تجربة الماضي المجلس عن عزمه اذ قام عام ١٩٨٣ بسن قانون يمنع السفـارات من استـيراد المسكـرات، وهـو أمـر يتم التغاضي عنه حتى في السعودية. وفي الواقع يبدو ان المجلس كان يستعرض عضلاته، ليبيّن لآل صباح، انه على الرغم من أنه تم اقتلاع العناصر اليسارية والشيعية منه، فإن آخـرين حلوا مكـانهم، وأبـرزهم المسلمـون الاصوليون. ان مجلس الامة الكـويتي، حيث تُنتقـد الاسرة الحاكمة بصورة منتظمة، هو ظاهرة فذة في الخليج، وحتى في الدول العربية «التقدمية» حيث تُعامل المعارضة بقساوة بالغة.

لم يؤد انسحاب بريطانيا عام ١٩٧١ الى استقلال البحرين وقطر والكويت فحسب، بل كانت له كذلك نتائج غير متوقعة في بعض الاماكن، ففي قطر على

الاخص كان له تأثير فوري، لأن البلد كان يعاني من نفس نوع الحكم الذي أدى في ابو ظبي الى الاطاحة بالشيخ شخبوط. لقد كانت هناك عدة أوجه شبه بين الشيخ أحمد بن علي آل ثاني، حاكم قطر منذ عام ١٩٦٠، والشيخ شخبوط. ولم يجد الشيخ احمد مثله في ذلك مثل الشيخ شخبوط سببا لتوفير العديد من اسباب الراحة التي أحبها لنفسه لأبناء شعبه ايضا. الا انه لم يذهب بالأمور الى الحد الذي بلغه الشيخ شخبوط، كما ان فهمه للامور المالية كان أعمق. لقد شعر الشيخ أحمد بأنه يحق له شخصيا كل شيء وان على شعبه ان يتدبر أموره بقدر استطاعته. ونتيجة لذلك كان الشيخ احمد يقضي فترات طويلة خارج قطر ـ فكان «في اجازة» في سويسرا عندما حصل بلده على الاسقتلال ـ وأخفق على نحو غريب في الحكم، بينما كان يضمن لنفسه أكثر من نصيبه العادل من عائدات البترول المتزايدة. وفي السنوات التي سبقت الاستقلال، كان هناك مثال يومي على الفرق بين الشيخ احمد والرجل الذي خلفه: فعندما كان يحل الظلام، كانت المصابيح التي نُصبت حديثا في جميع انحاء الدوحة تُضاء، وكان قصر الشيخ أحمد يتفجر في سمفونية من الالوان، بما في ذلك آيات نيون قرآنية خضراء حول بوابات القصر. بينما كان بيت الشيخ خليفة غير البعيد مضاء بسلسلة من المصابيح الكهربائية العادية. وبالرغم من كل هذا الاسراف، نادرا ما كان الشيخ احمد حاضرا لمشاهدته: فهو لم يتغيب عن استقلال بلاده فحسب، بل اختار سويسرا لتوقيع معاهدة الصداقة مع بريطانيا التي تلت الانهاء الرسمي لاتفاقية الحماية. وكان الشيخ أحمد غائبا ايضا عندما عقدت عائلته اجتماعا سريا في الدوحة لتنحيته عن الحكم.

وهكذا تولى الشيخ خليفة الحكم بتاريخ ٢٣ فبراير (شباط) ١٩٧٢ وجاء في الاعلان الذي صدر بهذه المناسبة ان الشيخ خليفة «يتمتع بمباركة عائلته، والقوات المسلحة وشعبه». وتم ارسال رسالة مؤدبة ولكن قوية اللهجة الى الشيخ احمد، الذي كان يقوم برحلة صيد في ايران. ولم يقم الاخير بأي محاولة للطعن في ما حدث، خاصة بعد ان سمع بأن ابن عمه الحاكم الجديد أمر بزيادة رواتب الموظفين والقوات المسلحة بنسبة ٢٠ بالمائة وأعفى المواطنين من تسديد القروض التي قُدمت لهم لشراء بيوتهم. اذ انه سيكون

من الصعب تحـريض الشعب على حاكم قام باتخـاذ مثل هذه الاجراءات المعقولة فور توليه الحكم.

تحـدث الشيـخ خليفة في أول خطاب يوجهه للشعب عن «العناصر غير المسؤولة التي كانت تضع العقبات في طريق التقدم». وقال انه كثيرا ما نصح الحاكم السابق ولكن نصائحه ذهبت ادراج الرياح، ونتيجة ذلك أجبر على التحرك لوضع الامور في نصابها.

رحّب سكـان قطر (١٥٠.٠٠٠ نسمة في حينه) بما حدث ترحيبا حارا، خاصة وأن الشيخ خليفة وعد بتخفيض مخصصات الحاكم وتوفير المزيد من المال للصالح العام. فعندما تولى الحكم، كانت مخصصات الشيخ أحمد تقدر بنحو ٢٠ بالمئة من دخل الدولة، وهو على الارجح الرجل الذي أكسب القطريين سمعتهم كأصحـاب ملايـين مسرفـين. وبيّن الشيخ خليفة عزمه على جعل القطريين يديرون شؤون بلدهم بفصل كوكْرين، قائد الجيش، من منصبه بعد يومين من توليه للحكم، كما أحال قائد الشرطة الانجليزي رونْ لوك الى التقـاعـد، ولكي يظهـر ترحيبـه بمسـاعـدة الاجـانب، إحتفـظ بالاثنـين كمستشارين. وكان من بين الأسباب التي أعطيت لتنحية الشيخ أحمد أنه فشـل في تنفيـذ بنـود الدستـور التمهيدي التي نصت على إنشاء مجلس إستشـاري، وهكذا كانت هذه أيضا من بين الخطوات الأولى التي قام بها الشيـخ خليفة. وبما أن حجة الشيخ خليفة إعتمدت الى حد كبير على هذه الحقيقة، فلقد حرص على الاشارة الى أن الخطوة التي أقدم عليها لا تعتبر في الواقع خرقا للدستور الجديد. لقد نص الدستور بأن يكون الحاكم من بين آل ثاني، إلا أنـه لم يقل شيئا عن طول مدة حكمه. وفي الواقع كان ثلاثة من أسلاف الشيخ أحمد قد تنازلوا عن الحكم بسبب تقدمهم في السن. وهكذا فإن تبـديل الحاكم جاء وفقا لنص الدستور الجديد، الذي كان مزيجا من الأعراف القبلية والتشريع الحديث، إذ نص على أن تكون السلطات التشريعية والتنفيـذية العليا بيد الحاكم، وأعطى صبغة رسمية لضرورة التشاور بين الحاكم ورعيته.

كان من المفروض أن يكون الدستور وتكون التعيينات التي أقرها حاكم ما أصبح يعرف بإسم «إتحاد الامارات العربية» عام ١٩٧١ بمثابة إجراءات

مؤقتة، على أن يتم إعداد دستور دائم وإجراء إنتخابات في غضون خمس سنوات. وفي الواقع، إستمر ما تم الاتفاق عليه في حينه أكثر من عشرين سنة، ولو ان الاتحـاد كاد ان ينهـار احيانا. وهكذا إنتهت سيطرة بريطانيا على الخليـج التي دامت ١٥٠ عاما يوم ١ ديسمبر (كانون أول) ١٩٧١ بالغاء معاهدات الحماية مع كل من الدول المتصالحة. ولقد تم إستبدالها بمعاهدة صداقة بين بريطانيا والامارات العربية المتحدة، قام الشيخ زايد وجيفري آرثار، الرجل الذي ضمن لنفسه مكانا في التاريخ بكونه آخر مقيم بريطاني في الخليج، بتوقيعها في دبي. وأصبح الوكيل البريطاني في أبو ظبي أول سفير بريطاني لدى الامارات، ولو أنه حتى في ذلك الحين، بدت المنافسة المستمرة بين أبو ظبي ودبي جلية للعيان، إذ أصر الشيخ راشد على ان يصبح الوكيل البريطاني في دبي القنصل العام، ومضى يعامله كسفير! إن دبي تضاهي أبو ظبي وليتذكر الجميع ذلك!!

ويا للسخرية، لقد كان احد اسباب الخلاف حين تأسس الاتحاد هو احد اسباب قوتها ـ وهو الجيش الصغير والفعّال الذي حافظ على السلام. لقد كان كشافة ساحل عُمان لا يزالون تحت إمرة ضباط بريطانيين، وكان هناك بعض الضباط الفنيين الباكستانيين، أما الافراد فكان معظمهم من البالوش او من عُمان. وتم تعيين اول ضابط من بين الأهالي عام ١٩٦٩، عندما كان الكشافة يتخـذون من البريمي قاعدة رئيسية لهم. وكان الكشافة كقوة أكبر من ان تُعـطى لأي من الحكام، حتى لو كان ذلك الحاكم هو الشيخ زايد، أكثرهم إلتزاما بالاتحاد. ولقد دعي الجنرال سير جون ويلوبي، الجندي البريطاني البارز، عشية إعلان الاتحاد ليقرر ما يجب عمله. وبما ان أبو ظبي كانت تبني قوة دفاعية خاصة بها، كما كانت تفعل بعض الامارات الأخرى، إقترح إنشاء جيش موحـد للاتحـاد، على أن يتم تطويـره بالتـدريج. فكانت النتيجة ان الكشافة أصبحوا الكتيبة الأولى في قوة دفاع الاتحاد وأصبحت قوة دفاع أبـوظبي الكتيبـة الثـانيـة. وكان الهم الأول للشارقة، موطن الكشافة، هو التمسك بمبلغ ال ٤٠٠،٠٠٠ جنيه إسترليني الذي كانت تتقاضاه سنويا لقـاء القـاعـدة والمؤن. وهكذا تم تسليم الكشافة رسميا لاتحاد الامارات العربية بتاريخ ٢٢ ديسمبر (كانون اول) ونُظمت إستعراضات في الشارقة

وفي المراكز المتقدمة حيث كان الكشافة يحافظون على السلام بين القبائل، ويلقون القبض على المتسللين والمعارضين ويقومون بمهام الشرطة في المنطقة بكاملها. وقضى القائد الجديد، الشيخ محمد المكتوم، ابن نائب رئيس الاتحاد، يوما في التنقل بطائرة عمودية من موقع لآخر لتلقي التحية وتوزيع الهبات على الجنود العرب، وبصورة عامة لضمان نوع من الولاء الشخصي. ولقد تم الاحتفاظ بالضباط البريطانيين الثلاثة والثلاثين وضباط الصف الخمسة والخمسين الذين كانوا يعملون في كشافة ساحل عُمان، وتم إستبدالهم تدريجيا بعد ان بدأت فكرة قوة الاتحاد تترسخ.

وهكذا عادت الجحافل البريطانية الى بلادها، وأصبحت الامارات المتصالحة تعرف بدولة الامارات العربية المتحدة، وحصلت قطر والبحرين على الاستقلال التام وانضمت هذه الدول الى الأمم المتحدة، وأجبرت الكويت رسميا على إدراك ما كان مفهوما ضمنيا لسنين عديدة ـ وهو انه فور انتهاء حادثة عام ١٩٦١ العرضية والسخيفة الى حد ما، عندما قامت بريطانيا بإرسال جنود لمجابهة خطر غير قائم، يمكنها فقط الاعتماد على قوة مالها لتفادي المتاعب.

واخيرا أصبح الخليج سيد نفسه. ولحسن حظ الدول المعنية، فان جميع التنبؤات المتشائمة التي تم التكهن بها في حينه لم تتحقق. إن الاحتلال السوفياتي لأفغانستان بلا شك أقلق بلدان الخليج، الّا ان خطط اميركا الخاصة بالمنطقة أزعجت هي الأخرى هذه الدول. ولم تواجه الامارات أي خطر فعلي من قبل قوى خارجية، إن الأخطار التي هددت الاتحاد كانت نتيجة مشاحنات وخصومات محلية، ولم تكن نتيجة ضغوط خارجية. ولقد كانت المنافسة بين أبو ظبي ودبي، بين الشيخ زايد والشيخ راشد هي لب المشكلة. ولقد تم الاعتراف بهذا الواقع منذ البداية، ولتقليل الخطر الى الحد الأدنى تم تبني النظام الفدرالي، الذي يضمن لكل دولة قسطا عظيما من الحكم الذاتي.

وعلى الرغم من ذلك كاد الاتحاد ان ينهار في عام ١٩٧٠ بسبب الخلاف حول القوات المسلحة ومسألة توزيع الوزارات الرئيسية. وبدا ان التنافس بين الشيخ راشد والشيخ زايد ينبع من المواقف المختلفة التي يقفها كل

منهمـا: لقـد كان الاقتصـاد في دبي دائمـا مبنيا على مبدأ إطلاق الحرية للنشاطات التجارية والأعمال، والاعتزاز بمجهود الفرد، وتقدير الرجل الفقير الذي أصبح ثريا بمجهوده الخاص مهما كانت خلفيته. إن هذا الموقف موجود بطبيعة الحال في جميع الامارات ولكن ليس بنفس درجة دبي، حيث أوجد الشيخ راشد المناخ الملائم لذلك منذ سنوات عديدة. أما في أبو ظبي، ولأنها أجبرت على ان تكون الداعم (ماليا) للامارات الاخرى، ولأن الشيخ زايد يأخذ على محمل من الجد دوره كرئيس ولأنه ملتزم بالاتحاد، فهناك تحكّم أكثر، وتدخل أكثر من جانب الحكومة. وهكذا فإن قانون الوكالات في أبو ظبي، الذي نص على ان تكون أية شركة تملك وكالات لشركات أجنبية مملوكة كليا من قبل مواطني إتحـاد الامارات العربية، أجبر عددا من البحرينيين والكويتيين ـ الذين سُمح لهم في ما بعد بالعودة في إطار مجلس التعاون الخليجي ـ على الرحيل. كذلك تريد الحكومة الاتحادية ان ترى قوانين هجرة أكثر إحكاما، او على الأقل تطبيق أكثر صرامة للقوانين القائمة، إلا ان دبي قاومت ذلك دائما، لاعتمادها الأكثر على الأيدي العاملة الاجنبية. ولقد كان هناك إمتعاض، يعود الى الأيام الأولى، عندما كانت أبو ظبي تستعمل ثروتها للحصول على افضل الأشياء والخدمات والاستشارات والايدي العاملة، الخ.

يشرف على شؤون الاتحاد من الناحية النظرية «مجلس أعلى» مشكل من حكام الامارات السبع، له صلاحيات تشريعية وتنفيذية، ولكن الرئيس هو الذي يقوم في الواقع بقدر كبير من المبادرات ويقوم مجلس الوزراء بصياغة مشـاريـع القوانين ويقدم الى المجلس الوطني مواضيع لمناقشتها. ويتكون مجلس الوزراء من سـتـة أعضـاء من أبو ظبي واربعة من دبي وثلاثة من الشـارقـة وواحـد من كل من الامارات الأخرى. اما المجلس الوطني فهو إستشاري بإمكانه تعديل القوانين ولكن يمكن نقض قراراته. وقد بدأ في المدة الأخـيرة يكشف عن أنيـابه بنفس الطريقة التي أصبح فيها مجلس الأمة الكويتي قوة فعلية.

واجه الاتحاد خطر الانهيار عدة مرات في تاريخه القصير، وفي عام ١٩٧٦ هدد الشيخ زايد بعدم قبول فترة رئاسية أخرى إحتجاجا على رفض الدول الاعضاء إقرار دستور دائم للاتحاد، ولولا أنه أقنع بالاستمرار في منصبه

لانهار الاتحاد بكل تاكيد، وكاد هذا ان يحدث في السنة التالية. لقد كان من شأن الدستور الدائم المقترح ان يمنح الحكومة المركزية صلاحيات اكبر على حساب كل دولة من الدول، وأن يجعل دبي تساهم بقسط اكبر في الخزينة المركزية. وليس من المدهش ان الشيخ راشد كان اشد المعارضين للفكرة، وإستطاع ان يكسب تأييد أصغر الامارات لموقفه. وفي عام ١٩٧٩ رفض كل من الشيخ راشد والشيخ صقر، حاكم رأس الخيمة، حضور اجتماعات المجلس الاعلى للاتحاد للحيلولة دون القيام بأية خطوات من شأنها تقوية سلطة الحكومة المركزية على حساب صلاحيات الاعضاء.

إن تشكيل الاتحاد لم يفعل الكثير،في البداية، لوضع حد للمنافسات بين الامارات المختلفة، فكما كانت النزاعات في الماضي حول الآبار او اشجار النخيل تؤدي الى إندلاع حروب قبلية،وهكذا فإن عادات الأجيال كانت خليقة بأن تنفجر. ففي يونيو (حزيران)، اي بعد مرور أقل من عام على إعلان الاتحاد، نشبت حرب صغيرة بين الفجيرة والشارقة حول ملكية بستان بالقرب من خورفكان. ومما يبعث على السخرية أنه كان قد تقرر، أن يُهدى هذا البستان للشيخ زايد، رئيس الاتحاد. فتحركت الشرطة الاتحادية لاعتقال تسعة من البدو، بدت عليهم الدهشة من هذا التدخل في رياضتهم التقليدية، وغضبوا جدا عندما قامت الشرطة بمصادرة بنادقهم القديمة.

وفي غضون أيام معدودة، تعيّن على قوة دفاع الاتحاد أن تتدخل مرة أخرى لتفصل بين المتحاربين عندما شوهدت مجموعة كبيرة من رجال الشارقة وهي تتقدم نحو قرية المسافي التابعة للفجيرة، فتم إعتقال نحو اربعين رجلا منهم كي يهدأوا، وعملا بالروح الجديدة طار الشيخ محمد بن حمد، حاكم الشارقة، الى أبو ظبي لحل المشكلة مع الشيخ زايد. إن هذه لطريقة متمدنة لحل الأزمات ولكن ليست أفضل من تلك التي سويت بها حرب صغيرة سابقة بين الشارقة وأبو ظبي. عندها إلتقى جيشا القريتين وتقدم قائدا المعسكرين وأخذا يسخران من بعضهما البعض. ثم دعا زايد بن خليفة من أبوظبي خالد بن سلطان لنزال فردي. فوافق خالد، الذي هُزم وقُتل في العراك. عندئذ عاد كل من الجيشان الى بلده. كان ذلك عام ١٨٦٨، بيد أن مثل هذه الاحداث كانت تجري في القرن العشرين. ففي عام ١٩٤٧ مثلا قاد الشيخ راشد رجال

ضد أبو ظبي، وشنوا هجوما مفاجئا في الفجر على رجال أبو ظبي وقتلوا منهم ٥٢ رجلا ـ ولقد كانت هذه خسارة فادحة بمعايير ذلك الوقت لأن الحروب القبلية كانت تتسم عادة بكثرة الضجة والكلام، إلا أنها كانت تسبب خسارة قليلة في الارواح والمباني، إنها كانت من نوع المعارك التي تصفها كتب الاطفال، حيث كان المعسكران يتوقفان لتناول الطعام، ويسمح للنساء بالتنقل بحرية بين المعسكرين، وكانت المسألة بكاملها وكأنها لقاء رياضي. وعلى الدبلوماسيين الذين يزورون الشيخ زايد لبحث مواضيع مملة أن يتذكروا أنه كان بالأمس القريب يشارك في هذه المناوشات القبلية، ولقد شوهد في إحد المناسبات وهو يطارد عدوا في العين، شاهرا سيفه بيده.

لقد كانت هذه «الحروب» عادة مسائل صغيرة حول أمور تافهة ولم يكن لها تأثير على تاريخ الخليج العام، أو على أفعال القوى الخارجية. وكما قال لوريمر في مطلع هذا القرن «لا يمكن المبالغة بعدم الأهمية البالغ للأحداث في داخل الأمارات». ولكنها كانت مسلية!

الجزء الثالث

تحديد الحدود

● أزمة في البريمي ● إيران تطالب بالبحرين وجزرها ● سوابق للنزاعات الحديثة ● المعاهدات الخاصة ● نوايا العراق نحو الكويت ورد بريطانيا الغريب ● النزاعات الاقليمية والمحلية ● تأثير الجيران وقيام مجلس التعاون الخليجي.

من غابر العصور وحتى يومنا هذا كان إستقلال دول الخليج الصغيرة دائما غير وطيد ومقيدا، وتحت رحمة جيران أكبر وأقوى. وهكذا كانت البحرين عبر العصور مغناطيسا دائما للمفترسين الذين كانوا يطمعون في ثروتها التي إعتمدت على الغوص وراء اللؤلؤ والتجارة، وفي موقعها الاستراتيجي ومياهها العذبة وأرضها. أما قطر، فلم يكن فيها إلا القليل مما يسترعي إهتمام الجيوش والحكام الذين كانوا يبحثون عن المكاسب، ولم تعاني من الهجمات والغزوات الا عندما قررت دول أقوى ان تنتقم منها أو عندما تدخّل القطريون أنفسهم في نزاعات الآخرين. وبالمثل، لم يخرج احد ابدا عن قصد لاحتلال الدويلات الواقعة على ساحل الخليج من رأس الخيمة وحتى أبو ظبي، ولو ان هذه المنطقة شهدت كثيرا من المعارك من اجلها. وبما أنها كانت محرومة من معظم الموارد الطبيعية دأب أهلها على «أخذ» ما يحتاجونه من التجار المسالمين أثناء مرور مراكبهم أمام هذا الساحل، وتعيّن عليهم أن يعانوا من نتائج افعالهم. أما الكويت، والتي جعلها موقعها في رأس الخليج، ملتقى للقوافل التي كانت تعبر الجزيرة العربية، فقد تمكنت من تجنب الحروب حتى الأزمنة الحديثة. ثم أصبحت تدخل في الحسابات الدولية، في البداية عندما سعت المانيا لبسط نفوذها بواسطة بناء سكة حديد برلين ـ بغداد، ومرة ثانية

عندما قرر العراق ان يستعرض عضلاته وإختار أضعف وأقرب جار له كهدف مناسب.

وفي نفس الوقت، كانت هناك حزازات عبر السنين بين دول الخليج التي تعيش الآن في وئام وتتوثق علاقاتها بثبات في إطار مجلس التعاون الخليجي، وخاصة بين الدول التي تكوّن اليوم دولة الامارات العربية. وكانت الحروب بينها في الماضي تدور حول الآبار وبساتين النخيل وهيرات اللؤلؤ، واليوم لا تزال النزاعات قائمة تحت السطح ولكنها تدور حول النفط والغاز، وبالتالي على المال. إن شيوخ الساحل لم يشعروا بالحاجة الى حدود دقيقة حتى عام ١٩٥٥ ـ وحتى وقتئذ، فلقد دفعهم نحو ذلك الوكيل البريطاني في حينه، جوليان ووكر، نيابة عن الحكومة البريطانية. ونتيجة لذلك قام ووكر وخلفاؤه بالمهمة التي يجد فيها متعة خبراء الشؤون العربية في وزارة الخارجية البريطانية، وهي السفر الى الأماكن النائية من أجل تحديد من من الشيوخ يملك تلك القطعة من الارض الجرداء.

ولقد كانت الامور أكثر جدية احيانا. وهكذا عندما حاولت السعودية توسيع أراضيها شمالا وشرقا داخل أبو ظبي، تحول الامر الى حادثة دولية، إقتضت إلقاء خطب مهيبة في مجلس العموم البريطاني في لندن وتشكيل لجنة تحكيم في جنيف ونشر مقالات جدية في الصحف وتدخل منظمة الامم المتحدة. وفي المنطقة، جُرح ضابط سعودي في رجله وأصيب جنديان من مجندي ساحل عُمان بجراح طفيفة.

كان البترول منذ البداية تقريبا قلب هذا النزاع الذي بات يعرف بإسم أزمة البريمي. ففي عام ١٩٣٣ منح إبن سعود إمتيازا للتنقيب عن البترول لشركة «ستاندرد اويل أف كاليفورنيا» « في الجزء الشرقي من ممتلكاتنا العربية السعودية داخل حدودها». ولكن الملك ومن قاموا بصياغة صك الامتياز لم يحددوا تلك الحدود، لأنه لم تكن عند أحد أية فكرة عن هذه الحدود أو أنها ستصبح ذات يوم مهمة. ووضعت أمريكا نيابة عن شركة البترول الامريكية، في وضع محرج إذ تعيّن عليها أن تسأل البريطانيين عن موقع الحدود. فإختارت وزارة الخارجية البريطانية ما يسمى بـ« الخط الازرق» الذي تم الاتفاق عليه بين بريطانيا وتركيا عام ١٩١٣. إلا أن

السعودية رفضت هذا الخط، وإستمرت المحادثات حول تحديد الحدود عامين دون التوصل الى نتيجة.

ولقد نُسي الموضوع إبان الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) لأن أعمال التنقيب كانت قد توقفت بسبب الحرب. وفي عام ١٩٤٩، أرسلت شركة البترول فريقا من المسّاحين للقيام بعمليات المسح ومعه بعض الحراس السعوديين الى أراضي إبو ظبي. فسارع باتريك ستوبارت، الوكيل البريطاني السياسي في أبو ظبي الى عين المكان لاعتراضهم وتحذيرهم بضرورة العودة من حيث أتوا. إلا أنهم إحتجزوه لبضعة ايام وإستولوا على بنادق المجموعة الصغيرة من مجندي ساحل عُمان التي كانت برفقته. فإحتجت بريطانيا للسعودية ولكن بدلا من أن يتنازل إبن سعود راح يطالب بالمزيد من الاراضي، بما في ذلك واحة البريمي، وهي مجموعة من تسع قرى، ست منها تعود الى أبو ظبي والثلاث الباقية تعود الى سلطان عُمان. وكانت هذه القرى أماكن كريهة، بائسة ومتداعية. إن حرارة الشمس قوية للغاية لدرجة أن الكهول كانوا يجلسون في الظل وينسجون جوارب لوقاية أرجل الرجال الذين يعملون من حرارة رمال الصحراء!

لقد كانت مطالبة إبن سعود بالواحة مبنية على مدى النفوذ الوهابي في القرن السابق ـ إذ أن الوهابيين كانوا قد بنوا حصنا في البريمي للتحكم بطرق القوافل التي تربط عُمان وساحل الخليج بداخل شبه الجزيرة العربية، والتي كانت المصدر الأصلي لسلطتهم على القواسم في رأس الخيمة. ولكن هذا النفوذ تلاشى قبل عام ١٨٧٠، ومنذ ذلك الحين فصاعدا أقر سكان البريمي الذين كانوا يناهزون ٦٠٠ نسمة، إما بحكم السلطان في مسقط أوبحكم شيخ أبو ظبي.

وفي أعقاب فشل مؤتمر آخر حول النزاع عُقد في الدمام في وقت مبكر من عام ١٩٥٢، حاول السعوديين ان «يوجدوا حقائق». فأرسلوا الامير تركي بين عطيشان الى قرية حمسا، إحدى قرى البريمي، محملا بالهدايا للاعيان والغذاء للسكان والمال لكسب ولاء القبائل، ورسالة من أمير الأحساء يطلب منهم بأن يعتبروا انفسهم رعايا سعودين. ولقد وقع الخيار على حمسا لأنه كانت قد نشبت هناك في العشرينات من هذا القرن مناوشات قبلية في البريمي

أدت الى قيام بعض الشيوخ المحليين بطلب المساعدة من حاكم الأحساء. ولقـد تم بالفعـل تقديم المساعدة، ولقاء ذلك اصبح حاكم الأحساء يجبي الزكاة من عدد من المشايخ، أبرزهم زعماء حمسا والنعيم.

وكان برفقة تركي بن عطيشان حرس سعودي مسلح، وهذا دليل واضح على أنه لم يتوقع ترحيبا حارا. وفي الواقع إستعدت قبائل أبو ظبي وعُمان لمهاجمة الغزاة السعوديين. ولكن الوكيل البريطاني أقنعهم بالعدول عن ذلك، بتأييد من حاكم أبو ظبي، الشيخ شخبوط، وبدأت جولة أخرى من المحادثات بين البريطانيين والسعودية. ومرة أخرى لم يُحرز أي تقدم حقيقي حول المسألة الجوهرية، ولكن الطرفان إتفقا على تجميد الوضع، أي عدم إرسال المزيد من الجنود أو المنقبين الى المنطقة. ولكن السعودية، حسب الادعاءات البريطانية، قامت بإرسال تعزيزات، وهكذا أرسل البريطانيون جنودا لمحاصرة المتطفلين في حمسا. ثم إقترحت بريطانيا إحالة النزاع الى التحكيم، وقبل السعوديون هذا الاقتراح. وهكذا تم تشكيل هيئة تحكيم دولية من خمسة أعضاء، باشرت عملها في جنيف عام ١٩٥٥.

وفي هذه الاثناء بقي المجندون العُمانيون في مواقعهم في أنحاء الواحة، على الرغم من ان الطرفـين كانا قد إتفقا على سحب قواتهما، على أن تقوم قوة مشتركة من أبو ظبي والمملكة العربية السعودية بمهام الشرطة في المنطقة. وكما هي العادة في الخليج، كان الموقف في المنطقة أقل توترا مما كان يبدو في لنـدن والرياض: فكانت الحامية السعودية الصغيرة في حمسا تُرسل رجالا وعربات الى دبي لشراء المؤن في حين كان من المفروض ان تكون محاصرة من قبل مجندي ساحل عُمان! وفي جنيف أخذ النزاع على محمل من الجد، ولكن العضو البريطاني في هيئة التحكيم، سير ريدر بولارد، إستقال بعد اسبوعين من بدء المداولات، إحتجاجا على تصرفات يوسف ياسين، ممثل السعودية، الذي إعترف علنا بأنه شخصيا معني بالمسألة كلها، ولم يحاول كثيرا إخفاء جهوده لتلقين شاهد بما يجب أن يقوله. وبسرعة قدّم الرئيس البلجيكي لهيئة التحكيم وممثل كوبا استقالتيهما، وهكذا إنهارت محاولة التوصل الى تسوية معقـولة. وأصدرت الحكومة البريطانية في لندن بيانا إتهمت فيه السعودية بأنها حاولت أن ترشو فردا من عائلة الشيخ شخبوط كي يقتله، ودفْع مبالغ

كبيرة لأعيان البريمي سعيا الى كسب ولائهم ومحاولة دفع رشوة للشيخ زايد نفســه، أخو الشيخ شخبوط وحاكم البريمي. وقالت بريطانيا ان السعودية عرضت عليه مبلغ ٤٠٠ مليون ريال ـ حوالي ٣٠ مليون جنيه إسترليني في ذلك الوقت ـ لقاء سماحه لشركة أرامكو، التي خلفت شركة ستاندارد أويل، بالعمل في أبو ظبي، وشمل هذا العرض فكرة قيام الشيخ زايد بتولي السلطة من أخيــه. وفي الواقع قام الشيخ زايد بذلك، ولكن في وقت لاحق وبطريقة مشرفة. لقد عاش الشيخ شخبوط بعد تنحيته عن الحكم لسنين عديدة وكان أخوه وأعيان أبو ظبي يزورنه على الدوام.

وفي ٢٦ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٥ نفذ صبر بريطانيا. فصدرت الاوامر لمجنـدي ساحـل عُمان، بقيادة الكولونيل أريك جونسون، بالاستيلاء على حمسا وطرد السعوديين. ولقد بدت المسألة في لندن سهلة بما فيه الكفاية، ولكن الامور كانت قد تبدلت وقتئذ، وبدت المسألة في عين المكان اكثر صعوبة، وذلك لأنه لم تكن عند الكولونيل جونسون ولا عند رجاله ولا عند حكومة أبو ظبي أية رغبة للبدء بهجوم قد يؤدي الى مقتل عدد كبير من السكان الموالين لعُمــان أو لأبو ظبي. وكانت هناك فرقتان من مجندي ساحل عُمان، الذين أعيدت تسميتهم كشافة عُمان المتصالحة، حول حمسا، كانتا تتبادلان إطلاق النار مع السعوديين في القرية: ولقد كان كل شيء معدا لمعركة صغيرة قذرة، خاصــة وأن نائب قائــد الكشافة كان ضابطا متعطشا للقتال. وقرر المقيم البريطاني في البحرين أن يرسل مبعوثا خاصا حتى يتحرى إمكانية تسوية الأمور بالطرق السلمية، وإختار إدوارد هندرسون المحنك والذي كان في حينه موظفا في إحدى شركات البترول وأصبح فيما بعد مسؤولا في وزارة الخارجية البريطانية.

ذهب هنـدرسـون الى البـريمي وأرســل معــه الشيخ زايد احد رعاياه لمساعدته. ونصح نائب القائد البريطاني السيد هندرسون بعدم الذهاب الى السعوديين، قائلا أنه بكل تاكيد سيقع في الأسر. فجنّد هندرسون عدداً من النساء المحليات اللاتي كن قادرات على إجتياز خطوط المواجهة بأمان بموجب عرف البـاديــة للمســاعـدة في هذا الخصوص. وقامت النساء بنقل عرض

هندرسون للسعوديين وهو العرض الذي تلخص في أنه سيسمح لهم بمغادرة المكان بسلام وإلا فإنهم سيهزمون شر هزيمة نظرا لتفوق الكشافة عليهم عُدة وعددا.

ولكن هم هندرسون الأول لم يكن السعوديين، بل نائب القائد البريطاني الذي كان مولعا بالقتال، والذي كان قد أعد خطة لمهاجمة حمسا في الليل بعد قصف مركّز بمدافع الهاون وغيرها من الاسلحة. ومما زاد الامور تعقيدا، انه وصلت الى عين المكان قوة من جيش عُمان بقيادة الكولونيل ووترفيلد لحظة بدء المفاوضات. وكان الكولونيل جونسون، قائد كشافة عُمان المتصالحة، كان يدرس مواقع العدو بمنظاره عندما جاء اليه الكولونيل ووترفيلد ليؤكد له دعم القوة العُمانية، وإقتراحا بكيفية مهاجمة القرية. وبدون أن يرفع منظاره عن عينيه رد الكولونيل جونسون عليه قائلا «ووترفيلد، من فضلك روح إنتاك!». وهكذا إنصرف ووترفيلد ووحدته العمانية. في هذه الاثناء قرر نائب جونسون أن يغفو لبضع ساعات وأعطى تعليمات بأن يوقظ من نومه في الساعة الحادية عشرة ليلا إستعدادا لهجوم ليلي. وطلب هندرسون من جنوده المحافظة على الهدوء وعندما دنت الساعة الحادية عشرة أرسل سائق الضابط البريطاني في مهمة ما.

وسارت الامور على ما يرام: إذ إستمر الضابط البريطاني في نومه وعندما كاد الليل أن ينتصف، موعد الهجوم المقرر، ظهرت الحامية السعودية المكونة من ١٥ رجلا في سيارة بيك ـ أب واحدة من حمسا. واستيقظ الضابط البريطاني من نومه غاضبا جدا. فقال له هندرسون «تعال وقابل العدو» الأمر الذي هدأ من غضبه. وجُرح القائد السعودي، النقيب عبدالله أبن نعامي، برصاصة في ساقه عندما حاول إزاحة بعض المستندات من صندوق أحضره معه من حمسا. وكان النقيب هو الاصابة الوحيدة من الجانب السعودي، بينما أصيب إثنان من الكشافة بجروح.

كان من المفروض أن تكون هذه نهاية المسألة، لو انها كانت مناوشة قبلية ولكن تدخل السعودية فيها والخطب التي ألقيت في البرلمان البريطاني ومساعي التحكيم في جنيف، جعلت النزاع يستمر لسنين عديدة. إذ إدعى

السعـوديـون بأن «آلافـا» من اللاجئـين نزحـوا عن البـريمي عندما كفل البريطانيون سلامة المرور لكل من يريد مغادرة المكان مع الحامية السعودية المنسحبة، بينما إحتج البريطانيون على هذا الادعاء وأكدوا بأن نحو مئتين من الاهالي فقط قد غادروا المكان. وفي النهاية تمت تسوية المسألة بعد ان قضى مبعوث من الامم المتحدة عامين في زيارة المنطقة لاحصاء «اللاجئين» والتأكد من أين جاؤا أصلا والى أين يريدون الذهاب، ورسم حدود ممكنة على الخـارطة. وأخـيرا قررت بريـطانيا والسعودية عام ١٩٦٣ إعادة العلاقات الدبلوماسية بينهما بعد ان كانت قد قطعت إبان ازمة السويس، وذلك بضـغط من الاحـداث في اليمن التي أزاحت جانبـا الاعتبارات الصغيرة مثل نزاع البريمي. ولربما كانت المسألة بكاملها سحابة صيف، ألا انها كانت إشارة مبكرة وتنبيها الى الضغوط التي قد تولدها إمكانية وجود النفط في اماكن نائية. كما أنها كانت أول أزمة دولية تنجم عن أمل العثور على النفط ولكنها لم تكن الاخيرة.

لقـد كانت مسألة السيادة على الجزر في الخليج منذ العصور الوسطى دائمـا مسـألة مشوّشة، أذ كان العرب من الساحل الغربي يهاجرون الى الساحل الفارسي، ثم يعودون الى الساحل الغربي بعد اجيال، وكانت ولاءات الشيـوخ وتحالفاتهم تتغير حسب متطلبات الموقف، وكثيرا ما أخفقت إرادة ملوك ايران من وصول مقاطعاتهم الجنوبية. وطالبت عُمان ذات مرة بجزيرة قشم ـ وكـانت تلك خطوة إنتهـازيـة من قِبل السلطان سعيد عندما كانت بريطانيا تبحث عن قاعدة في الخليج ووقع إختيارها على هذه الجزيرة. وكانت البحـرين وقـطر تتشـاجـران حول جزيـرة حوار حتى السنـوات القليلة الماضية.كما إختلفت الكويت والعراق على ملكية بوبيان، وتجادلت أبو ظبي ودبي حول بعض الألسنة الرملية، وطالبت إيران بالبحرين بكاملها.

إن مطالبة شاه إيران بالبحرين كانت عديمة الاساس وكادت ان تحول دون إنسحاب بريطانيا من الخليج عام ١٩٧١ وقيام إتحاد الامارات العربية. ولقد بلغ إصرارالشاه على أن البحرين إيرانية حد منع أي مسافر يحمل جواز سفر يحمل ختم «البحرين» من دخول إيران، لأنها كانت في نظر الايرانيين المقاطعة السادسة عشرة من بلدهم و«الجوهرة في التاج الامبرطوري» كما كان

الشاه يشير اليها. وهكذا عندما أعلنت بريطانيا فجأة ومن طرف واحد قرارها الانسحاب من جميع إلتزاماتها شرق السويس، جدد الشاه في ا لحال مطالبته بالجـزيـرة وهي المطالبة التي كانت مبنية على الفترة من عام ١٦٠٣ حتى ١٧٨٣ عندما كانت الجزيرة خاضعة للاحتلال الايراني، أو عندما اعترف شيخ البحرين بتبعيته لبلاد فارس، وعلى اساس ان جزءا لا يستهان به من سكـان البحـرين هم من الشيعـة، ومن أصل ايراني او ممن هاجروا من الساحل الفارسي للخليج.

لقد كان من الواضح لكل من عرف البحرين ان اهلها، بغض النظر عن مذاهبهم الدينية، كانوا متحدين في عزمهم على الاحتفاظ بهويتهم المستقلة، ولكن رغبات الشعوب لا تعتبر مهمة في سياسات الدول العظمى إلا عندما يتيسر استعمالها لتعزيز مسلك تم تحديده مسبقا.

والآن وفي نهـايــة الستينـات، كان الشاه محمد رضا بهلوي يستعرض العضــلات الايـرانية ويؤكد عزمه على الاضطلاع بدور الدولة العظمى في الخليـج وهو الدور الذي تخلت عنه بريطانيا. وكان بحاجة الى ذريعة، الى مناسبة، كي يثبت عزمه ومقدرته على القيام بالدور الذي كان يطمع فيه، وبدت البحـرين في البـدايــة الخيار المثالي. بيد ان البحرين كانت تحظى بتأييد بريـطانيا والعالم العربي وأغلبية الدول الاعضاء في الامم المتحدة، وحتى الشاه لا يمكنه ان يتحدى مثل هذا التأييد. لذا كانت هناك حاجة لصيغة تحفـظ ماء الوجـه، وكما يحدث كثيرا، عُهدت هذه المهمة الى منظمة الامم المتحدة. وهكذا تم تعيين مبعوث خاص للتحقق من شيء كان الجميع يعرفونه ألا وهـو رغبات شعب البحرين. فقام بزيارة الجزيرة، وتحادث مع الحاكم والشعب، وتشاور مع المنضمات المختلفة، وفي النهاية رفع تقريرا قال فيه بأن «الاغلبيـة الساحقة من سكان البحرين... تريد دولة مستقلة تماما وذات سيادة، حرة في تقرير علاقاتها مع الدول الاخرى». وصادق مجلس الأمن الدولي بأغلبيــة ١٨٦ مقابل ٤ اصوات على تقرير ونتائج تحريات المبعوث الخاص. كما صادق عليه المجلس الايراني بعد ذلك ببضعة أيام.

إن مطالبة إيران بالبحرين لم تكن تستند ابدا على دعائم قوية. ففي عام ١٨٤٤ عدّد الحاج ميرزا آغاسي، رئيس وزراء إيران، الاسباب التالية لتأكيد

سيادة بلاده على البحرين «ان الخليج الفارسي من بداية شط العرب حتى مسقط يعود الى بلاد فارس وجميع جزر ذلك البحر بلا إستثناء وبدون مشاركة أية حكومة أخرى، تعود بالكامل الى بلاد فارس». واشار رئيس الوزراء الى إستعمال بريطانيا للاصطلاح «الخليج الفارسي» دعما لهذا الادعاء الغريب، وربما يكون هذا هو سبب الأهمية التي يعلقها العرب والايرانيون على إسم هذا الممر المائي. وفي عام ١٨٤٤ إدعى الفرس بأن البحرين «كانت دائما تخضع لسلطة حكام فارس منذ عام ١٣٠٠» وأن «جميع كتب الجغرافيا الأوروبية والتركية، علاوة على كتب الرحالة، تعتبر البحرين فارسية».

إن هذه لحجة ضعيفة جدا، خاصة وان جميع المراجع إتفقت على إن البحرين كانت جزءا من الامبرطورية الاسلامية في الفترة ما بين القرنين السابع والحادي عشر، حكمها حكام محليون حتى عام ١٥٢٢ عندما وقعت تحت سيطرة البرتغاليين، وانها خضعت لسلطة الفرس في الفترة ما بين عام ١٦٠٣ و١٧٨٣ فقط، تخللتها فترات من الحكم العربي. وعلى الرغم من ذلك، جدد آية الله خميني مطالبة الايرانيون بالبحرين عام ١٩٧٩.

وفي اعقاب المصادقة على تقرير مبعوث الامم المتحدة في نيويورك وطهران، بدا وكأن مشكلة البحرين قد حُلت. وكما انه لا توجد وجبة طعام مجانية، فهناك سعر في الشؤون الدولية يجب ان يُدفع لقاء كل تنازل. وفي حالة البحرين، تعيّن على دولتين أخريين لا علاقة لهما بالنزاع أن تدفعا ثمن ذلك التنازل. فعلاوة على البحرين ارادت إيران ان تسيطر على ثلاثة جزر صغيرة في الخليج وهي أبو موسى وطنب الصغرى وطنب الكبرى. وكانت الاولى تابعة للشارقة بينما كانت الجزيرتان الأخريان تابعتين لرأس الخيمة. وكان حكام هاتين الدولتين من القواسم: الشيخ صقر بن محمد في رأس الخيمة والشيخ خالد بن محمد في الشارقة. وكان لكل منهما سمات مختلفة أدت الى معالجة مختلفة للمشاكل التي واجهتهما. فإتبع حاكم الشارقة سياسة معقولة ولها ما يبررها من جانب دولة صغيرة تواجه مخططات جار اكبر واقوى، والتي ربما ضمنت لها، على الرغم من كل الانتقادات التي وجهت اليها، الحد الاقصى من المستطاع. أما حاكم رأس الخيمة، فقد رفض المفاوضات وأمر رجاله بمقاومة أية محاولة للاستيلاء على الجزر بالقوة، الأمر الذي أكسبه الثناء والتصفيق

في العالم العربي، بيد أنه فقد الجزيرتين وبعض رجاله، في حين توصل الشيخ خالد الى إتفاقية ضمنت لشعبه الفقير دخلا ووعدته بالحماية، وجلبت حتفه. فبعد مرور شهرين فقط على توقيع الاتفاقية مع الشاه، لقي الشيخ خالد مصرعه في قصره عندما قامت مجموعة من المعارضين بقيادة إبن عم له يدعى هو الآخر الشيخ صقر والذي كان خالد قد حل محله قبل ذلك بست سنوات، قامت بإجتياح قصره. ولم يكن هناك مجال للشك في أن الشيخ كان مدفوعا بدافع الانتقام ولكن ربما لم يكن بوسعه كسب التأييد لولا الاستياء الذي نجم عما فعله الشيخ خالد بالنسبة لجزيرة أبو موسى.

إستولى الشيخ صقر على القصر في الشارقة وشن معركة متواصلة ضد القوات المؤيدة للحاكم بقيادة أخيه الشيخ سلطان. وفي النهاية كان النصر حليف قوات الشيخ سلطان وإستسلم الشيخ صقر. ولكن عندما دخل الشيخ سلطان القصر، وجد أخاه ميتا من رصاصة في رأسه أصابته على ما يبدو اثناء الهجوم الاول. وكان الشيخ قد نجا قبل ذلك عندما وضعت قنبلة تحت كرسيه في المجلس. ولكن الشيخ صقر قام بالمهمة بنفسه، ونجح في ذلك.

كانت المشكلة حول الجزر الثلاثة، الى حد بعيد، وليدة وجهات النظر المختلفة لكل من بريطانيا والبلدان العربية. فقد كان حجر الزاوية لسياسة بريطانيا في الخليج، وخاصة في أعقاب هزيمة حكومة حزب العمال في يونيو (حزيران) ١٩٧٠، هو قيام الشاه بالاضطلاع بدور الشرطي في المنطقة وهو الدور الذي كان الشاه تواقا للقيام به. وعليه، إعتقدت بريطانيا بأن الشاه تصرف بحكمه وبروح من المسؤولية عندما تخلى عن مطالبته بالبحرين، ولم تجد أي سبب يحول دون مكافأته، كما ان الشاه كان يؤمن كأسلافه من قبل بأن البحرين وأبو موسى وطنب الصغرى والكبرى هي جميعا جزء من نفس الصرة. وبما أنه تخلى عن البحرين ، فإنه توقع أن تقوم بريطانيا ومشيخات الخليج بالتنازل عن الجزر الثلاث الاخرى. وتبنت بريطانيا هذه الفكرة بهدوء وهي الفكرة التي شجعها مبعوثها الخاص، السير وليام لوس، عندما وصل الى طهران في يونيو (حزيران) ١٩٧١. وبحلول ذلك الوقت حذر شاه إيران بأنه سيلجأ الى القوة ما لم يتم التوصل الى إتفاق حول الجزر. وكانت الصحافة الايرانية تهيء الجمهور لمثل هذا الاحتمال. ولم تبد بريطانيا اية اعتراضات.

وفي النهـايـة توصل الشاه والشارقة الى إتفاقية تسمح بمرابطة القوات الايرانية في نصف الجزيرة لقاء منحة إيرانية مالية سنوية للشارقة مقدارها ١،٥ مليون جنيه إسترليني الى ان تصل عائدات الشارقة نفسها من البترول الى ٣ ملايين جنيه في السنة. ووافقت إيران على ان تحتفظ الشارقة بالسيادة الى الجزيرة بإستثناء النصف الذي ترابط فيه القوات الايرانية، وان أي حقل نفط يتم العثور عليه في مياه أبو موسى الاقليمية ستتقاسمه إيران والشارقة.
وتم الاعلان عن الاتفاقية بتاريخ ٢٩ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٧١، وفي اليوم التـالي نزلت القـوات الايـرانيـة في الجـزيـرة وقامت قوات إيرانية خاصة بالاستيلاء على جزيرتي طنب، والتي لم يتم التوصل الى إتفاقية عليها بين إيران ورأس الخيمة. وكانت كل الدلائل تشير الى وجود إتفاق بين بريطانيا وإيران، الامر الذي كان ضروريا بموجب بنود المعاهدات المختلفة التي كانت ساريـة المفعـول والتي تُلزم بريـطانيا بالدفاع عن اراضي وممتلكات الدول المتصالحة المختلفة حتى تاريخ الأول من ديسمبر (كانون الاول). وإذا كان هناك مثل هذا الاتفاق فلا بد أنه كان سريا: فقبل ذلك باسبوعين أكد لي ضابط كبـير في سلاح الجـو البـريـطاني كان يشرف على نقـل المعـدات والجنود البريطانيين من الشارقة بأنه إذا حاولت إيران الاستيلاء على الجزر بالقوة فإن بريطانيا لن تقف مكتوفة الايدي، «حتى اللحظة الاخيرة». ومن الواضح ان هذا الضابط لم يكن على علم بأي إتفاق. وفي ساعة مبكرة من الصباح أيقـظ احـد موظفي وزارة الخـارجية البريطانية السير جفري آرثر، المقيم البريطاني، ليبلغه بتحركات الشاه. ومما له دلالته أن المقيم رد عليه بجفاء على إزعاجه وعاد في الحال الى سريره ليواصل نومه.

قُتل ثلاثة من شرطة رأس الخيمة واربعة جنود إيرانيين في الهجوم الايراني على جزيرتي طنب. لقد كانت هذه بداية مشؤومة لاتحاد الامارات العربية الذي تم إعلانه في الأول من ديسمبر (كانون أول)، وسبّب مشكلة جديدة لبـريـطانيـا وإيران والسلطات الفتية في إتحاد الامارات، إذ تمت مهاجمة الايـرانيـين في كل من رأس الخيمـة والشارقة وألحقت الاضرار بالممتلكات الايـرانيـة، واطلقت النـار في الشـارقة على أخ الحاكم الذي قام شخصيا بالتـرحيب بالايـرانيـين في أبو موسى، فأصيب بجروح بالغة. وقطع العراق

علاقــاته الدبلوماسية مع بريطانيا، بينما قامت ليبيا بتأميم شركة البترول البريطانية (بريتش بتروليوم). وأدانت جامعة الدول العربية إيران على عملها وطلب من مجلس الامن ان يتحرك. وعلقت صحيفة التايمز على ما حدث وقالت ان اية معاهدة تكون سارية المفعول في يومها الأخير كما في يومها الاول. وفي مجلس العمـوم البـريـطاني تحـدث الوزراء بصـورة غير مقنعة عن عدم «إستطاعة» بريطانيا الدفاع عن الجزر. وعلى الرغم من كل شيء، فلم تتخذ إجراءات عملية، وبقي الاحتلال الايراني، بينما تُصر جامعة الدول العربية والامارات من حين لآخر على عروبة الجزر.

إن أبـو موسى هي جزيـرة صغـيرة قاحلة اقرب الى ايران من الساحل العـربي، يقطنها عدد قليل من السكان يعملون في الصيد وتربية الماشية. وعندما زرت الجزيرة عام ١٩٧٢ وجدت ان الجنود الايرانيين قد نصبوا بعض المـدافع الثقيلة المصوبة نحو البحر، وبنوا مهبطا للطائرات المروحية. وعلل الشاه احتلاله للجزيرة بالحاجة الى منع القوى المعادية من دخول الخليج ومنع الارهابيين من محاولة عرقلة الملاحة في الخليج عن طريق إغلاق مضيق هرمز. ولكن كما اشار ضباط من الجيوش المختلفة بإمكان مركبين صغيرين أن يزرعا الالغام في المضيق تحت جنح الظلام دون أن تتمكن القوات المرابطة في الجزر من عمل اي شيء ضد مثل هذا العمل.

بيد ان بريطانيا كانت انشط في حمايتها للخليج في السنة السابقة فقط عنـدمـا واجهت ندا اضعف نوعـا ما: شركة بترول. فقد تم ارسـال فرقاطة بريـطانية الى مسرح الاحداث عندما بدأت شركة أكسيدنتال تستعد للقيام بعمليات الحفر على بعد ستة أميال ونصف من أبو موسى بموجب امتياز منحه حاكم أم القوين، لأن حاكم الشارقة كان يطالب بمنطقة عرضها ١٢ ميلا حول الجزيرة، وكان قد سمح لشركة باتيس أويل آندغاز بالقيام بأعمال التنقيب هناك. وامام تهديد مدافع البحرية البريطانية وافقت الشركة على وقف اعمالها الى ان تتم تسوية المشكلة.

ومرة أخرى عملت بريطانيا بحزم عندما تعرضت أبو موسى لحادثة دولية أخرى قبل ٧٣ سنة. كتب السير بيرسي كوكس، المقيم البريطاني، في حينه عن الجزر وكأنه يعلم بالغيب: « لا يوجد هناك نقص في الدلائل بأنه ما لم نتبع

سياسة نشيطة بصدد هذه الجزر فلن يطول قدوم اليوم الذي سنواجه فيه صعـوبـات بشـأن مناطق صيد اللؤلؤ القريبة التي كانت حمايتها دائما، بموجب الشروط التي أضفى عليها إجلالا، أحد المعالم الاساسية لسياستنا في هذه المياه». إستبدل الكلمتين «صيد اللؤلؤ» بالكلمتين «إمتيازات البترول» وستكون كلمات السير بيرسي سديده في عام ١٩٧١ كما كانت عندما كتبها عام ١٩٠٤. وفي الواقع، كان السير بيرسي يحتج في حينه على اعمال المسؤولين البلجيكـين الذين كانوا يعملون في مصلحة جمارك الامبراطورية الفارسية، والذين قاموا برفع العلم الفارسي في الجزر بدلا من رايات شيوخ القواسم. وفي تلك المرة أدت الاحتجاجات لدى الديوان في طهران الى حل، ولو أن الفرس وافقوا على إنزال علمهم، وطلبوا بأن لا يقوم الآخرون ايضا برفع راياتهم. ولكن السـير كوكس أمـر في الحال شيخ الشارقة بأن يرفع علمه في جميع الاوقات. اما الفرس فقد إحتفظوا لأنفسهم بحق إجراء مباحثات في المستقبل مع بريطانيا حول مطالبتهم بالسيادة على الجزر.

وبعـد ذلك ببعض سنوات حدث حادث أخطر وللمرة الثانية عمل بيرسي كوكس بحزم دفاعا عن المصالح البريطانية كما رآها. وهذه المرة كان الألمان هم الذين يحاولون بسط نفوذهم في الخليج إذ شرعوا في مباحثات إستهدفت مد سكة حديد برلين ـ بغداد حتى الكويت، الأمر الذي عارضته بريطانيا بحـزم. وكان بعض تجار هامبورغ قد بدأوا يمارسون نشاطاتهم في مناطق كانت تعتبـر حكـرا على بريـطانيا، توقعا لزيادة النفوذ الألمـاني. وكان احد مشـاريعهم يرمي الى استغلال معدن الأكسيد الاحمر في جزيرة أبو موسى بالاشتـراك مع شركـة الحـاج حسن بموجب امتياز منحه حاكم الشارقة. والاكسيد الاحمر هو مادة تستعمل في الدهانات لذا فان مناجمه كانت مربحة واستراتيجية في نفس الوقت. وكانت الشركة الالمانية وونكهوس تتبجح بأنها لا تعمل فقط مع الحاج حسن بل تملك جزءا من الامتياز الذي منحه الحاكم. وكان السير بيرسي كوكس عاقدا النية على وقف ما اعتبره تسللا المانيا، وهكذا استشهـد بالبنـد في المعـاهدة الخاصة مع حاكم الشارقة الذي يمنعه من «اعطاء او التخلي عن او بيع أو تأجير أو رهن» أي جزء من اراضيه لاية دولة او شخص سوى بريـطانيا والرعايا البريطانيين. وبلا شك لقد كانت حجة

المقيم البريطاني واهية لذا قرر معالجة القضية بطريق غير مباشر. وهكذا تم اقناع عضو في شركة الحاج حسن كان ابن أخت وكيل القنصل البريطاني في الشارقة بأن يحتج على مشاركة الالمان في الشركة. وقام حاكم الشارقة، بعد ان جرى تلقينه هو الآخر بما يجب عمله بسحب الامتياز الذي منحه لشركة الحاج حسن وأمرها باجلاء رجالها ومعداتها عن ابوموسى. الا ان الشركة واصلت أعمالها في الجزيرة بتشجيع من الالمان، وعندما لم يحدث شيء لعدة شهور اعتقدت الشركة بأن المشكلة قد انتهت. ولكنها لم تنته!

فلقد ظهرت السفينة البريطانية لابوينج (Lapwing) فجأة امام ساحل أبو موسى وعلى متنها القنصل البريطاني في بندر عباس، تجر وراءها عددا من البوارج تقل ٣٠٠ من رجال حاكم الشارقة المسلحين. فتم جمع عمال شركة الحاج حسن ونقلهم الى لنجه، وعندما اقترب مركب يحمل العلم الالماني من الجزيرة بعد ذلك بعدة ساعات، اطلقت السفينة البريطانية النار عليه حسب ادعاءات الالمان. فتعالت الاحتجاجات في برلين وفي افتتاحيات الصحف الالمانية، وشعرت لندن ببعض الاحراج اذ ان السير بيرسي كوكس كان قد تصرف بقدر وافر من حرية العمل. الا انه ونائبه، أرنولد ويلسون كانا قد اعدا حجة مقنعة، وبعد نوبة من «التبرم والتكشير»، تراجع الالمان.

ولم تكن المانيا هي الوحيدة التي كانت تسعى لبسط نفوذها في الخليج في مطلع هذا القرن. فقد قامت سفن حربية فرنسية وروسية بزيارات استعراضية للخليج. ولقد كسبت فرنسا كثيرا من الاعتبار عندما ارسلت سفينة حربية ذات اربعة مداخن الى الخليج، اذ ان عدد المداخن كان يعتبر دليلا على قوتها القتالية. ولكن بريطانيا كانت الوحيدة التي احتفظت بسفنها الحربية بصورة دائمة في الخليج، وحتى لو انها لم تقم بذلك فلم يكن باستطاعة المتطفلين عمل الكثير، نظرا لانه كانت لبريطانيا اتفاقيات خاصة مع جميع حكام المنطقة لم تعن فقط منع الشيوخ من «اعطاء او التخلي عن او رهن» اي جزء من البلاد وهلما جرا ، بل منعتهم ايضا من استقبال السفراء الاجانب.

وهذا نص الاتفاقيات الخاصة التي وقعها مختلف الشيوخ :

« .... بحضور (المقيم) أُلزم نفسي رسميا وورثتي وخلفائي بالشروط التالية:

اولا ـ انني لن أدخل بأي حال من الاحوال في أية اتفاقية او مراسلة مع اية دولة عدا الحكومة البريطانية.

ثانيا ـ انني لن اقبل بغير موافقة الحكومة البريطانية بأن يقيم في بلادي وكيل لأية حكومة اخرى.

ثالثا ـ انني لن اتنازل (أو) أبيع (أو) أرهن (أو) أعطي بطريقة اخرى لغرض الاحتلال اي جزء من بلادي الا للحكومة البريطانية» ★

فكانت النتيجة أن بريطانيا «أدارت» الخليج حتى عام ١٩٧١، كما فعلت ذلك لمئة عام او نحو ذلك، عن طريق نظام الوكلاء السياسيين والمقيمين. ولقد تم نقل مقر المقيم من بوشهر الى البحرين عام ١٩٤٦ ولم يكن هناك شك في ان المقيم كان يعتبر نفسه، وكان الاخرون يعتبرونه، أرفع الناس مقاما في الخليج. وفي هذا الوقت بالذات، وعندما بات استقلال الهند يلوح في الافق القريب، اتخذت وزارة الخارجية البريطانية على عاتقها من حكومة الهند، مهمة تعيين الوكلاء في الخليج، كما تم استبدال حرس المقيم المكون من الهنود بفوج من الجنود البريطانيين.

لقد إكتسب الوكلاء السياسيون والمقيمون في الخليج عبر مائة عام هيبة عظيمة، لدرجة ان كاتبا قطريا قال عنهم «لقد كان جميع الاداريين البريطانيين عبر السنين طوال القامة، وسيمو الوجه وشقر الشعر». انهم طبعا لم يكونوا كذلك، ولكنهم كانوا يعملون في ظروف صعبة للغاية وخطيرة ـ ففي مسقط توفي المقيمون الاربعة الاوائل قبل ان تنتهي مدة خدمتهم هناك. وكان الرجال الذين خدموا في الخليج يعملون لحساب «الدائرة السرية والسياسية» لحكومة الهند، وكانوا اما مُعارين من الجيش او من الادارة المدنية. وفور تولي وزارة الخارجية زمام الأمور في الخليج، اصبحوا جميعا دبلوماسيين في السلك

★ وهذه صيغة الترجمة العربية كما وقعها الشيوخ:

«إنني لن ادخل ابدا في قرار ما ولا محاورة مع احد من الدول سوى الدولة البهية الانكليس بغير رضاء الدولة البهية الانكليس لا اقبل ان يسكن في حوزة ملكي وكيل من دولة غير الدولة البهية الانكليس ـ ابدا لا اسلم ولا ابيع ولا ارهن ولا اعطي للتصرف او للتبوء بنوع ما شيئا من ممالكي لاحد الا الدولة البهية الانكليس».

الاجنبي، وكانوا دائما رجالا ممن قرروا التخصص في بلاد العرب واكملوا دورة لدراسة اللغة العربية في شملان في لبنان طولها ١٨ شهرا، هذا إن لم يكونوا قد درسوا اللغة العربية في الجامعة.

وبسبب الوجود المدني والعسكري في الخليج، في شكل المقيم وقائد القوة البحرية، فلقد كانت هناك بالطبع أوقات لم تتفق فيها وجهات النظر. ولقد حُلت هذه المشكلة بصورة نهائية بعد ان حدث مثل هذا الاختلاف في الرأي، بطريقة عززت سلطة المقيم ومكانته الخاصة. ففي عام ١٨٤١ أُرسل تقرير الى المقيم مع نسخ الى قائد القوة البحرية في الخليج والى المقر الرئيسي في الهند، جاء فيه: «يُصرح الحاكم في مجلسه بأن سلطة المقيم هي الاسمى في الخليج الفارسي، ويضع السرب البحري الهندي الذي قد يرابط في اي وقت من الاوقات في تلك الناحية بأسره تحت تصرف المقيم للقيام بأية خدمة يعتقد بأنه من المستحسن ان يُعهد بها اليه، بالكامل او جزئيا، وان هذا الضابط لا يعتبر مسؤولا عن تصرفاته امام اية سلطة سوى الحكومة التي يُعتبر هو ممثلها». والغريب في الامر ان احدا لم يسيء استعمال هذا التفويض الشامل.

وتأكدت أهمية المقيم للمرة الثانية اثناء زيارة اللورد كيرزون ، نائب الملك، الى الخليج عام ١٩٠٣. ففي الاجتماع الذي عقد على متن الطراد «ارغونوت» (Argonout) الراسي قبالة ساحل الشارقة وحضره شيوخ الخليج، جلس المقيم على يمين اللورد كيرزون بينما وقف الشيوخ وابناءهم أمامه. وبالمناسبة تعرض حاكم البحرين للانتقاد بعد ذلك ببضعة أيام لأنه لم يخلع صندله عندما خاطب نائب الملك. وثمة دليل آخر على القيمة النسبية للناس هو عدد الطلقات التي كانت المدفعية تطلقها تحية لهم، فكان اللورد كيرزون، ذلك الرجل الأرفع مقاما، يُعطى دائما ٣١ طلقة مقابل خمس طلقات لحاكمي الكويت والبحرين. وثمه لمسة أخرى جاءت للدلالة على ان الوقت يتغير: كان الحكام يُهدون سيوفا، بينما كان أولادهم يمنحون بنادقا. ولقد كانت جولة اللورد كيرزون في الخليج إجمالا مسألة عجيبة، هدفها الاساسي عرض تفوق بريطانيا في وقت كانت فيه كل من المانيا وفرنسا تتحديان سلطان بريطانيا. ومن الجدير بالذكر ان العربة المزخرفة الغريبة التي تم فيها نقل اللورد كيرزون الى الشاطىء على اكتاف الرجال لاتزال محفوظة في البحرين. ولقد

كان الجو سيئا والرصيف زلقا، وكاد اللورد كيرزون والحمالون أن يُجبروا على السباحة الى الشاطىء، بدلا من الظهور على الشاطىء في مشهد مهيب!

ان اول سجل للمقيم البريطاني في الخليج كان في بوشهر عام ١٧٥٣ ولقد بقي مقره هناك حتى عام ١٩٤٦ عندما أصرت وزارة الخارجية البريطانية على نقله كي لا تصبح تحت رحمة الأقدار باحتفاظها بالرجال على الساحل الفارسي. وبالاضافة الى المقيم كان هناك وكلاء في اماكن مختلفة، حسب الاهمية النسبية للمكان في ذلك الوقت وحسب توفر الموظفين. ولقد أُنشئت الوكالة في الشارقة كإجراء مؤقت خلال الحرب العالمية الثانية لأن سلاح الجو البريطاني كان هناك. وتم نقلها عام ١٩٥٤ الى دبي اعترافا بالاهمية المتزايدة للميناء والتدهور التدريجي للشارقة ـ بسبب الحقيقة التعسة وهي سرعة امتلاء خليجها الصغير بالغرين بفعل الرياح والتيارات ولم تكن تملك المال الضروري لتنظيفه. لقد كانت أهمية الخليج الوحيدة في الايام المبكرة هي بالنسبة للهند وكان الهدف الرئيسي هو حرمان الاخرين منه. لقد كان هم السياسة البريطانية دائما هو الاحتفاظ بطريق المواصلات من اوروبا الى الهند عبر البصرة وابقاءه مفتوحا، اما المسائل الاخرى مثل مكافحة تجارة الرقيق والقرصنة وتهريب السلاح فلقد تمت اضافتها الى مهام الوكلاء السياسيين في وقت لاحق ـ وحتى في ذلك الوقت، كانت للقرصنة وتهريب السلاح علاقة مباشرة بالأحداث في الهند. ولقد كانت العبودية فقط هي الشيء الوحيد الذي تمت معالجته من باب الاحسان. ففي عام ١٨٣٤ لخص اللورد وليام بنتك، الحاكم العام للهند، السياسة البريطانية فكتب يقول «ان همنا الوحيد يتعلق بالتجارة البحرية في الخليج. وطالما لم يتم التعرض لها، فلا يهمنا اذا كانت هذه الدولة او تلك تسيطر على شواطئه».

وفي مطلع هذا القرن عُدلت هذه السياسة، وكانت الاحداث في المناطق الداخلية تزداد أهمية أكثر فأكثر. ويمكننا ان نأخذ فكرة عن انشغالات تلك الفترة من التعليمات التي أُعطيت للكابتن نوكس عندما ذهب الى الكويت عام ١٩٠٤. قيل له بأن يعمل على اقامة علاقات ودية ووثيقة مع الشيخ مبارك وكبار الشخصيات الاخرى في المدينة، وحماية مصالح التجارة البريطانية والتجار الذين يشتغلون بها، ومراقبة نشاطات الاتراك عن كثب وخاصة مواقع

تمركز قواتهم على الحدود. كما طُلب من نوكس الحصول على معلومات مفصلة وبصورة منتظمة عن الصراع القائم في نجد بين آل سعود وآل رشيد ومراقبة شحنات الاسلحة. ومما له دلالته انه صدرت تعليمات صريحة للوكيل بأن لا يتدخل في تلك التجارة، لأن الحكومة ادركت بأنه لو قام بذلك فإنه سيخالف الأوامر الاخرى الصادرة له من أجل تشجيع المصالح البريطانية.

لقد شغلت مسألة توريدات الاسلحة دائما بال الحكومات البريطانية: إذ كانت هذه تجارة مربحة من جهة، وكان من المؤكد أنه لو امتنعت بريطانيا عنها فسيقوم بها آخرون. ومن الجهة الأخرى كان هناك قلق على الهند، لأن جميع الأسلحة التي كانت قبائل الباتان والقبائل الاخرى تستعملها كانت تأتي من الخليج. لقد بدأت حركة الاسلحة في الثمانينات من القرن الماضي، حيث كانت الرحلة الى الداخل تبدأ من بوشهر. وقالت تقارير أرسلها الوكلاء في نهاية القرن الماضي «أن كل بدوي في جنوب بلاد فارس والعراق وشرق شبه الجزيرة العربية يملك بندقية وحزاما واحدا من الذخيرة على الاقل». وفي نهاية القرن منعت الحكومة الفارسية هذه التجارة واستولت على كميات كبيرة من الاسلحة المخزونة وتوصلت الى اتفاقيات مع بريطانيا وعُمان لوقف ارسال المزيد من الاسلحة. الا ان الفرنسيين واصلوا توريد الاسلحة سرا، وبلا شك واصل مُصدرو السلاح البريطانيون عديمو الضمير ارسال البنادق التي استعملت في نهاية المطاف ضد الجنود البريطانيين في ممر خيبر. ويعتقد مأرخو الخليج بأنه عندما وصلت الثورة الصناعية الى بريطانيا، أُضيف هدف آخر الى أهداف السياسة البريطانية وربما بلا وعي وهو ضمان سوق أسير للبضائع البريطانية في الخليج. وبكل تأكيد كان الخليج سوقا مربحة ولايزال كذلك - إن أول زيارة قمت بها للخليج في نهاية الاربعينات كانت على متن باخرة من مانشيستر تحمل بالات من الكوفيات.

أما اليوم فتكمن أهمية الخليج كلية في البترول ولكنه اهتمام يعمل في اتجاهين:

إن لزبائن دول الخليج ولزعماء ما يسمى بالعالم الحر مصلحة في ضمان توّفر مصادر البترول لهم وفي حماية المرات التي يتم عبرها تصدير البترول. اما البلدان المنتجة للنفط فترغب بدورها في ضمان سلامة طرق التجارة ولكنها

لا ترغب في الخضوع لهيمنة الشرق او الغرب. كما انها لا تريد ان ترى دولة اقليمية واحدة تهيمن على المنطقة. ولقد كان هذا هو الذي ادى الى سباق التسلح في الخليج، المربح جدا للغرب. ولكنه زاد من صعوبات حكام الخليج بإرغامهم على احضار المزيد من الاجانب. لقد بدأه شاه ايران: فقد أتاح له اعلان بريطانيا عن عزمها على الانسحاب من الخليج فرصة ناسبت افكاره الطنانة بخصوص مستقبل بلده واعتقاده بأنه تجسيد لأجداده العظام. لقد كان عاقدا النية على ان تصبح بلاده القوة الاقليمية في الخليج، ولقد أيدت الولايات المتحدة هدفه هذا من الفؤاد، كما حظي بتأييد بريطانيا والدول الاوروبية الاخرى، التي كانت معنية بفرص المبيعات المربحة اكثر من اعتنائها بالمفاهيم الاستراتيجية.

وهكذا راح الشاه يشتري الاسلحة من جميع الجهات: دبابات من بريطانيا وطائرات من امريكا، ومعدات حربية من مختلف الاوصاف من اي بلد عنده ما يعرضه. فجثمت الدبابات في قاعدة شيراز واصطفت الطائرات بجانب مدارج مطار طهران وفي قواعد أخرى بينما كانت تُبذل جهود محمومة لتدريب الشبان الايرانيين على استعمالها ـ وفي وقت من الاوقات كانت هناك ثلاث طائرات لكل طيار مؤهل. ولقد بدا كل هذا للشاه ولقليلين غيره منطقيا، وحول الخليج إنزعج الحكام وعلى الاخص من بضعة اشياء. أولا، تبجح الشاه بأنه قادر على نقل لواء مدرع عبر الخليج في غضون ساعتين. واعتبر السعوديون والكويتيون هذا بمثابة بيان بالنية. وكان السبب الثاني للقلق هو التقييم الذي توصل اليه الملحقون العسكريون وهو ان القوات التي بناها الشاه لم تكن في الواقع من النوع الذي يتطلبه تهديده المُعلن وهو اكتساح العراق، أو الحاجة لغزو تلك الدولة. فقد أشار الملحقون في عين المكان الى أنه حتى لو تحركت الدبابات الايرانية نحو الحدود العراقية فعليها ان تمر عبر أودية ضيقة حيث يمكن ان تصبح بسهولة اهدافا لسلاح الجو العراقي، الذي إعتبر في ذلك الحين متفوقا على نظيره الايراني.

كما ان الشاه نفسه لم يتوقع ان تقوم ايران بشن هجوم مضاد ضد الاتحاد السوفياتي، او بالقتال على حدود افغانستان. وهكذا تبقى البلدان الواقعة في الجانب الغربي للخليج. وفي ذلك الحين كان هناك اعتقاد راسخ بأن

الشــاه ينوي اخضاعهم. كما انها راقبت بقلق الوضع في عُمان حيث رجّح وصول القوات الايرانية وأسراب الطائرات المروحية كفة الميزان لصالح قوات السلطان ومكنت جيش عُمان بقيادة ضباط بريطانيين من هزيمة ثوار ظفار ومـؤيديهم في اليمن الجنوبي. وبهذا العمل، أوجدت ايران سابقة لعمل في الجانب الغربي للخليج، ولم يطب هذا لحكام الخليج من السعودية وحتى رأس الخيمة.

فكـانت النتيجـة الفـوريـة سباق التسلح في الخليج. فقامت السعودية بتخصيص مبـالغ هائلة لشراء الاسلحـة ردا على مشتـريـات الشـاه من الاسلحـة، بينمـا قامت الدول الصغـيرة ببناء مقدرتها العسكرية لمساعدة جارتهن الكبـيرة. وفي الامـارات كانت هنـاك ايضا المنافسة التقليدية بين مختلف الحكام. فاذا حصل احدهم على الدبابات، حصل الاخر على طائرات وهلمـا جرا. واظهـرت قطر كثـيرا من الادراك عنـدمـا سارعت الى تنسيق مجهوداتها مع السعودية وشرعت ببناء شبكة دفاع جوي مندمج مع شبكة الدفاع الجوي في الظهران، مع ان الامير بندر بن سلطان اعترف في حينه بأن الدور الذي كان منوطا به وهو حماية حقول النفط من هجوم جوي هو «مهمة مستحيلة»!

وفي الكـويت ، كان التهـديـد دائمـا من العـراق وكـان السيـاسيـون والعسكريون مصممين على الاعتماد على انفسهم بدلا من تكرار الاحداث التي تلت الاستقـلال مباشرة. حينئذ، اي في الخامس والعشرين من يونيو (حزيران) ١٩٦١، جدد الجنرال عبد الكريم قاسم، رئيس العراق، مطالبة بلده بالكويت، وهي المطالبة التي تمت المهاجرة بها عبر السنين ولكن احدا لم يأخذها على محمل من الجد. ويتلخص موقف العراق في ان حكام الكويت المتعـاقبون منذ علم ١٧٧٦ وحتى ١٩١٤ قد سلموا بانهم كانوا خاضعين لحماية او سلطة الامبراطورية العثمانية، وان ممارسة السلطة تمت عبر طريق الولاة في بغداد او البصرة. واعتبر العراق نفسه وريثا للامبراطورية العثمانية في المنـطقـة، بينمـا اعتبرت كل من الكويت وبريطانيا دولة مستقلة. ولقد اضيفت على هذا الوضع صيغة رسمية عندما إتفقت الكويت وبريطانيا في رسـائل متبادلة بتاريخ ١٩ يونيو (حزيران) ١٩٦١ على إلغاء إتفاقية عام

١٨٩٩ بينهمـا لأنها تعارضت مع «سيادة وإستقلال الكويت» وإستبدالها بمعاهدة صداقة بين البلدين. وتعهد البلدان بموجب هذه المعاهدة «بالتشاور» حول المسائل التي تخصهما، كما كان هناك بند نص على ان تقوم بريطانيا بتقديم المساعدة للكويت إذا ما طلبت الاخيرة ذلك. إن تبادل الرسائل هذا لم يقـل بطبيعة الحال شيئا عن العراق، أو مطالبته بالاراضي الكويتية، ولكنه اسقط في الواقع المطالبة العراقية بإشارته الى «دولة ذات سيادة ومستقلة».

وفي غضون اسبوع تحرك الجنرال قاسم: فعقد مؤتمرا صحفيا في بغداد أعلن خلاله بأن الكـويت هي جزء من ولاية البصرة العثمانية التي ورثتها العراق. وقال قاسم ان أمير الكويت ما هو الا حاكم محافظة الكويت العراقية وما إدعاؤه بالاستقلال إلا عصيان. وأضاف بأن اتفاقية بريطانيا مع الكويت غير شرعية و «أننا سنمد حدود العراق الى جنوب الكويت. إن العراق ولا احد سواه يعقـد اتفـاقيـات مع الكويت. وإننا نعتبر الاتفاقيات (بين بريطانيا والكويت) غير مشروعة من تاريخ سريانها. ولا احد، سواء في الكويت او في خارجها، له حق السيطرة على شعب الكويت، لأنه شعب العراق. ولقد ولّى عهد المشيخات. أن شعب الكويت لا يزال يئن تحت طائل الاستعمار البريطاني. وان خطوة واحدة عظيمة سوف تستأصل الامبريالية من الارض وتطرد شبحها».

ولم يهدد الجنرال قاسم بالهجوم او بالضم، وبدا انه اشتعل الظرف لمجرد تأكيد مطالبة بلده التاريخية بالكويت. وكانت الحدود بين الكويت والعراق، وبين العراق والسعودية لا تزال مبنية على الخطوط التي رسمتها بيرسي كوكس في مؤتمر العقير، ولم يجر تحديدها كما ينبغي: وكان من المسلم به انه سيتم ذلك يوما ما، إلا ان احدا من الحكام لم يبد حرصا على تعجيل حدوث المشكلة التي قد تثـيرها مثل هذه الخطوة. وهكذا لم تحظ كلمات الجنرال قاسم في البـدايـة بكثـير من الاهتمام، فأشارت بريطانيا الى انها ستقدم المساعدة للكويت إذا طلب الحاكم ذلك، وترك امر معالجة هذه المسألة للعالم العربي. فأعلن الملك سعود والشاه تأييدهما للشيخ عبد الله وأعربا عن استعدادهما للقيـام بمهام الوساطة بين البلدين. كما اعربت جامعة الدول العربية عن استعـدادهـا لمساعدة البلدين على حل الخلاف. وبدت كل المسألة وكأنها زوبعة في فنجان.

وبعد مرور ستة ايام على تصريحات الجنرال قاسم الاولى، وبعد ان ادلى بعدد من التصريحات إستهدفت على ما يبدو التقليل من احتمال نشوب اي نزاع، تقدم الشيخ عبدالله الى بريطانيا فجأة بطلب المساعدة. ولم يكن هناك مجال للشك في ان «طلبه» كان اجراءا شكليا. ان ما كان غريبا في الامر هو ان الضغط جاء من وزارة الحربية، وليس من وزارة الخارجية، وانه لم تصدر عن ممثل بريطانيا نفسها في الكويت، جون ريشموند، توصية بضرورة المساعدة العسكرية البريطانية. قالت وزارة الحربية بأن لديها تقارير سرية مفادها ان الدبابات العراقية كانت تستعد للزحف نحو الكويت من البصرة، مع ان الرجال في عين المكان قالوا بأنه لا علم لهم بذلك. ويبدو ان وزارة الحربية قررت انتهاز الفرصة لاختبار مفهوم جديد في الدفاع وهو قيام قوات متنقلة سريعة الحركة بمعالجة «نار الحروب الصغيرة». وكانت هذه القوات عادة مرابطة في بريطانيا، ولكن بالنسبة للشرق الأوسط كانت هناك قواعد في البحرين وعدن، وربما بدا لضباط الصف بأن الكويت هي فرصة ممتازة لاختبار فعالية خطط وزارة الحربية، التي كانت في الواقع عبارة عن مناورات ذات صبغة واقعية، رخيصة التكاليف ولا تنطوي على خطر أي قتال فعلي. علاوة على ذلك، كان هناك عنصر سياسي حاز على تقدير حكومة المحافظين في حينه: لقد كانت بريطانيا لا تزال تعاني من صدمة السويس عندما تواطأت بريطانيا وفرنسا واسرائيل لتأديب جمال عبد الناصر على تأميمه لقناةالسويس، إلا أن الولايات المتحدة حالت دون قيامها بتنفيذ خطتها حتى النهاية. ولا بد أن الخلاف بدا فرصة ذهبية كي تُظهر بريطانيا بأنها لا تزال قوة معتبرة شرق السويس وأنه لا يزال لها دور خاص في العالم العربي.

ومهما كانت الدوافع، بدأت القوات البريطانية في الوصول الى الكويت بتاريخ ٣ يوليو (تموز)، وبلغ عددها في النهاية نحو ٣٥٠٠ جندي، بينما رست السفينة الحربية «بولْويرك» المحملة بطائرات الهليوكوبتر ورجال الكوماندوز قبالة الشاطىء. وقام الجنود البريطانيون بحفر الخنادق على بعد ٢٠ ميلاً شمال مدينة الكويت على طريق البصرة. وتم إنزال الدبابات. إلا أن شيئاً لم يحدث. وبقيت الحدود بين الكويت والعراق مفتوحة. وزاول المواطنون الكويتيون أعمالهم كالمعتاد. ولم يعان أحد سوى الجنود البريطانيين الذين

كان يغمى عليهم باستمرار! ثم شرعت بريطانيا بسحب قواتها يوم ٧ يوليو (تموز) وحلت محلها قوات جامعة الدول العربية. وبعد ثلاثة أشهر وُضعت القوات البريطانية مرة ثانية في حالة استنفار عندما بلغت خطب الجنرال قاسم الطنانة ذروة جديدة. ومرة أخرى لم يحدث شيء. ويبدو أن بريطانيا أدركت أخيراً بأنه على الرغم من أن مطالبة العراق بالكويت قابلة للجدل في القانون الدولي، فإن أفضل دفاع عن الكويت هو تركه للكويتين أنفسهم.

وبكل تأكيد تعلم الشيخ عبد الله وخلفاؤه العبرة، واستدعوا على وجه السرعة مستشارين ماليين وشرعوا في إقامة عدد من المؤسسات الكويتية الخاصة التي تقوم اليوم بتوزيع مبالغ هائلة من المال في البلدان العربية وحول العالم، وتدير في نفس الوقت استثمارات الكويت بمهارة فائقة. إن الكويت هو قوة معتبرة في بورصة لندن، وهي مستثمر كبير في المانيا وفرنسا وأمريكا، ولا تشتهر في العالم العربي بكرمها فحسب بل وبسلامة الرأي وسداد النصح الذي تقدمه للمنتفعين من مساعداتها.

وعلى الرغم من أن العلاقات بين الكويت والعراق هي اليوم حسنة، إلا أن بغداد لا تعترف بالحدود بين البلدين. كما أن العراقيين لم يتخلوا أبداً عن مطالبتهم بجزيرتي بوبيان ووَرْبَة. وبعد سنين من المحادثات أعلنت بأنها اقترحت حلاً تقوم بموجبه باستئجار نصف جزيرة بوبيان لمدة ٩٩ عاماً وتقوم الكويت بالتخلي عن سيادتها على وَرْبَة لقاء اعتراف العراق بالحدود على اليابسة. إلا أن مجلس الأمة الكويتي نسف هذه الفكرة بإصداره قراراً يؤكد سيادة الكويت على «جميع أراضيها في إطار حدودها التي تمت الموافقة عليها بموجب اتفاقيات دولية وثنائية بين الكويت وجاراتها». والتزاماً بهذا القرار أعلن الوزراء بأن وربة وبوبيان هما ملك للكويت وأنه تم الاعتراف بهذه الحقيقة في رسائل متبادلة مع العراق عام ١٩٣٢ وفي اتفاقية عام ١٩٦٣.

وفي الآونة الأخيرة، أحيا الرئيس صدام حسين في عام ١٩٨١ فكرة استئجار نصف جزيرة بوبيان لمدة ٩٩ سنة ولكن لانشغال العراق بالحرب مع ايران شعرت الكويت بأنه بإمكانها تجاهل الأمر ولكنها اتخذت الاجراء الوقائي الحكيم بمواصلة مساعدتها السخية للعراق اعترافاً منها بأن العراق تحارب نيابة عن جميع دول الخليج. واليوم اذا كانت الكويت تواجه أي خطر

فهو لا يزال من العراق، البلد الذي شعر إبان حكم الرئيس صدام حسين وحكم سلفه الجنرال احمد حسن البكر، بحرية التصرف في الكويت دون أن يحاول ضمها بالقوة. ولقد تبنى قادة العراق رأي الجنرال قاسم القائل بأن الكويت ستصبح في نهاية المطاف جزءاً من العراق بالطرق السلمية نتيجة مجريات الأحداث العادية. ومع ذلك فكثيراً ما أبدى العراقيون عدم اكتراث بالحنق الكويتي على أفعالهم. وهكذا فقد نفذ عملاء العراق في الكويت عدداً من الاغتيالات في الكويت - إن العراق يعتبر الاغتيالات السياسية شكلاً مقبولاً من أشكال ممارسة القوة - كما أن القوات العراقية والمنقبين العراقيين أبدوا في بعض الأحيان قليلاً من الاحترام للحدود المسلم بها بين البلدين.

وثمة مثال ساطع على موقف العراق المتعجرف من الكويت هو اغتيال حردان التكريتي، نائب رئيس الجمهورية العراقية سابقاً، في أبريل (نيسان) ١٩٧١. لقد كان من الواضح أن القتل كان من فعل فريق من رجال الأمن العراقيين المحترفين، وهي حقيقة لم تكلف السلطات العراقية نفسها عناء نفيها.

وعلى الرغم من ذلك، بقيت الكويت. وعلاوة على حسن استغلال ثروتها، قامت ببناء قواتها المسلحة، لا لأنها تأمل في صد أي غاز، بل لاعطائها مهلة حتى تتمكن من تقديم طلب للمساعدة الى الأمم المتحدة أو جامعة الدول العربية، أو الى دولة صديقة. وفي الوقت الحاضر تبدو السعودية هي المنقذ، إذ أنها جعلت نفسها بصورة مقنعة القوة الاقليمية في الخليج وهو الأمر الذي فشل الشاه في تحقيقه.

تساور كل دولة من دول الخليج بعض المخاوف من جاراتها أو من القوى المحيطة بها، وهناك أيضاً نزاعات إقليمية صغيرة يمكن أن تُستغل دائماً إذا ما ظهرت هناك حاجة لعمل ما. وهناك نزاع يغلي بهدوء بين البحرين وقطر: إن جزر حوار القاحلة هي ملك للبحرين من الناحية الرسمية ولكن قطر تطالب بها، وربما هي الأحق، لأنها تبعد أقل من ميلين عن ساحل قطر. إن حجة البحرين تستند كلياً على حكم أصدرته بريطانيا عام ١٩٣٩ عندما كان لقطر نفوذ أقل بكثير من نفوذها الحالي وعندما كانت مصالح بريطانيا مرتبطة أكثر بالبحرين. وكما هي العادة، فإن المسألة بكاملها ليست مهمة بسبب البترول

فقط، فهناك أيضاً مسألة الكرامة الوطنية. ولقد انزعج القطريون كثيراً عندما قررت البحرين تسمية إحدى قوارب دورياتها الجديدة حوار، وأحيت بذلك الموضوع من جديد. فأسرعت البحرين الى إعلان سلطتها القضائية على سكان الزبارة، ولكن ليس على البلدة، بإعتبار أنها موطن أجداد حكام البحرين وأن أهلها هم من قبيلة تدين بالولاء لآل خليفة. ودُعيت السعودية للتوسط في النزاع واتفق البلدان على تجميد الوضع مع قيام مجلس التعاون الخليجي.

ولكن هذه المسائل الصغيرة ليست هي التي تقلق حكام الخليج، فلقد تعلموا كيف يتعايشون مع مثل هذه المشاكل عبر العصور. إن القلق الحقيقي ينبع من المنافسة بين الدول العظمى، والأعمال التي قد تقوم بها من أجل الارتقاء بمصالحها. فعلى الرغم من اختلاف آراء حكام الخليج وشعوبه فإنهم متحدون حول شيء واحد وهو أنهم لا يرغبون في أن تصبح منطقتهم ساحة أو مسرحاً للمواجهة بين الدول العظمى. لأن الخليج هي المنطقة الأكثر احتمالاً في العالم لاندلاع نزاع بين الدول العظمى، كقيام القوات الروسية باجتياح الخليج وقيام أميركا بالرد على هذا كما وعدت. إن البترول في الخليج هو مغناطيس للشرق والغرب. إن حقول نفط الخليج تزوّد اليابان بثلثي احتياجاتها من الطاقة، وثلاثة أخماس احتياجات أوروبا الغربية وسُدس احتياجات أميركا. ويمر خمسا امدادات الغرب من البترول عبر مضيق هرمز. وفي نفس الوقت، فإن كمية البترول المتوفرة للاتحاد السوفياتي من موارده التقليدية تتلاشى ولذلك فإن الخليج هو جائزة يطمع الروس في كسبها. لذا فعلى دول المنطقة أن تلعب لعبة حذرة، إنها تعلم بأنها غير قادرة على صد أي غزو لها من جانب أميركا أو روسيا وهكذا يجب أن يكون هدفها هو حرمانها من أية حجة للقيام بذلك.

جعل سقوط الشاه أهل الخليج يركزون تفكيرهم أكثر من أي وقت مضى. إن أحداً لم يحب الشاه أو يثق به، وكانت السعودية بصفتها القوة الاقليمية الأخرى في المنطقة تسلح نفسها لتضاهي قوة ايران. ومع ذلك كان الشاه حاكماً محلياً بإمكان الآخرين أن يتعاملوا معه، وكان مستعداً بلا شك للدفاع عن الخليج في نهاية المطاف. إلا أنه تم استبدال الشاه بالخميني الذي تعتبر

أفكاره الخاصة بتصدير الثورة الاسلامية أخطر بكثير من حلم قيام امبراطورية فارسية جديدة وهو الحلم الذي كان يراود نفس الشاه. ففي كل دولة من دول الخليج هناك أقليات من الشيعة، بعضها صغيرة جداً مثلما هو الحال في الامارات وبعضها كبير كما في الكويت والبحرين، ويعلم جميع الشيوخ إن استغلالها الصحيح قد يحوّلها الى طابور خامس. ولقد وجد الكثيرون بريق أمل في شيعة العراق الذين وضعوا الاعتبار الوطني فوق كل اعتبار آخر ولم يترددوا في محاربة اخوانهم الشيعة الايرانيين دفاعاً عن الوطن.

إن الخطر الكبير في النهاية لا يكمن في الخميني ولكن في الأحداث المتوقعة بعد موته: إن الصراع على الخلافة سيفتح الباب مرة أخرى أمام التدخل السوفياتي وهذا هو الأمر الذي يخشاه حكام الخليج أكثر من أي شيء آخر. لقد استخف هؤلاء بهذا الخطر في البداية، وقالوا بأن أمريكا تستعمل البعبع السوفياتي لتعزيز مواقعها هي. ولكن غزو أفغانستان جعلهم يغيّرون موقفهم هذا. فقد شاهدوا أن الاتحاد السوفياتي لا يتقيد بالأعراف الدولية وأنه سيحتل أرض جاره عند الحاجة. والأهم من ذلك اعتبر حكام الخليج هذا الغزو محطة على الطريق الى حقول النفط. وفجأة اقتنعوا بأن أمريكا محقة، وأن الاتحاد السوفياتي يسعى لتطويق الخليج وأنه سيجتاح المنطقة عندما يحين الوقت أو أنه يسعى للاطاحة بحكومات كل دولة من أجل تنصيب عملائه.

ثم جاء في أعقاب هذين الحدثين المذهلين، حدث ثالث وهو الحرب العراقية ـ الايرانية. في البداية، وعلى الرغم من جميع احتجاجات دول الخليج فقد فرحت عندما وجد الرئيس صدام حسين له عذراً لمهاجمة ايران، ورجوا له حظاً سعيداً، وقاموا بدفع ثمن الأسلحة التي بدأ يحتاجها وثمن مشاريعه الانمائية. إلا أن بعض حكام الخليج الأذكياء قاموا بتقديم دعم سري لايران. ووجد تجار دبي الأذكياء تجارة جديدة في تهريب جميع الأشياء التي حرمها الحكام المتزمتون الجدد في طهران عبر الخليج. ولقد كانت جيوش الرئيس صدام أفضل من الناحية النظرية منها في الميدان اذ أنهما لم تتمكن من التقدم أبعد من الجبال التي تحف بسهل الحدود وسرعان ما تم دحرها

الى حدودها. ومرة أخرى لم يُقلق الأمر بالمرة الرجال الوقورين الذين يديرون الأمـور في الخليـج، طالما توقفت الأمور عند هذا الحد. لقد كانوا سعداء لمشـاهـدة القوتين الرئيسيتين في المنطقة تنهكان قواهما وثرواتهما في حرب ضروس، الأمر الذي يضمن أنهما لن تكونا في حال يمكنهما من القيام بأية مغامرات أخرى الى الجنوب منهما لعدة أجيال قادمة. ولكن الهم الوحيد الذي ينتـابهم هو أن تبلي ايران بلاء حسناً، فتتجه يساراً بعد اجتياحها للعراق وتحل مشكلة الكويت الى الأبد. وثمة هم آخر هو أن أي من هذه الأشياء أو جميعها قد تؤدي الى تدخل الدول العظمى في المنطقة.

كان رد دول الخليج ثنائياً إذ أكدت على علاقاتها الوثيقة بالولايات المتحدة وعملت بقيادة السعودية كل ما في وسعها للحصول على عهد أمريكي بالدفاع عنها. وسعت في نفس الوقت الى تجنب وجود أمريكي مباشر. وجاءت مكافأتهم على شكـل تصريـح للرئيس جيمي كارتر عام ١٩٨٠ قال فيه «ليكن موقفنا واضحاً تماماً: إن أية محاولة من جانب دول خارجية للسيطرة على الخليج الفارسي ستعتبر هجوماً على المصالح الحيوية للولايات المتحدة، وان مثل هذا الهجـوم سيصد بالوسائل الضرورية، بما في ذلك القوة العسكرية». ولكي يثبت الأمـريكيـون أنهم يعنـون ما يقـولون، أنشأوا قوة التدخل السريع خصيصاً لحماية الخليج، وهي القوة التي أثارت ضجة فور إعلانها تقريباً. لأن أهـل الخليج أرادوا الجمع بين الضدين: الحصول على تعهد أمريكي حازم بالدفـاع عنهم ولكنهم لم يودوا أي شيء ظاهر للعيان أو أي شيء قد يستفز الروس. لقد أرادوا «حضوراً وراء الأفق» وهو التعبير الذي استعمل في ذلك الحين، أو كما قال عسكري خليجي «قبّلني ولكن ليس على رؤوس الأشهاد». ومع هذا فلقد تقررت السياسة وعُملت الترتيبات وتُرك للحكام أمر القيام بكل شيء ممكن للحيلولة دون إيجاد ذريعة محلية للتدخل، وضمان عدم تصعيد النزاعات الاقليمية الى نزاعات أوسع.

إستمرت الكويت وقطر والمملكة العربية السعودية لبرهة من الزمن بهدوء في تقديم المساعدات الهائلة الى العراق، وقامت السعودية، على الأقل، بتقديم تبـرعات سرية لايران من باب الحيطة. ولكن مع استمرار الحرب وتصعيد النزاع انهار أمل دول الخليج في البقاء خارج النزاع.

ان ايران لم تكن قادرة على تجاهل المساعدة التي كانت تقدم للعدو من قبل دول كان من المفروض ان تكون محايدة، وقد استقر القرار على «معاقبة» الكويت وحدها. وفي البداية تم اتباع اسلوب الارهاب؛ فانفجرت ست قنابل في مدينة الكويت في شهر ديسمبر (كانون اول) ١٩٨٣، أدت الى مقتل خمسة اشخاص وجرح ٦١ شخصاً. وكان من بين الاهداف الرئيسية السفارتان الاميركية والفرنسية، علاوة على محطة لتوليد الكهرباء والمطار. واعترفت منظمة جديدة هي الجهاد الاسلامي بالمسؤولية عن الانفجار. وسرعان ما اتضح أنها منظمة شيعية على صلة بايران. ان الهجوم على الكويت جاء من الداخل.

جاء الرد الكويتي سريعاً، بيد انه كان منسجماً مع ما كان يرجوه الاعداء لانه أحدث فرقة اجتماعية. فلقد قامت السلطات الكويتية بطرد ٦٠٠ من الشيعة المنحدرين من أصل ايراني واتسع نطاق تطبيق هذه السياسة بمرور السنين لازاحة الشيعة من المراكز الحساسة. فكانت النتيجة انه تم اقصاء مواطنيين كويتيين مخلصين من مناصب هامة ورفيعة الى مناصب جانبية. ان المناصب التي عهدت اليهم كانت بنفس الراتب او حتى براتب اعلى ولكن هذا لم يعوّض عن شعورهم بأن الحكومة التي منحوها ولاءهم، لا تثق بهم. كما ان هذا لم يعوضهم على فقدان مركزهم في المجتمع نتيجة ابعادهم عن مناصبهم الهامة والرفيعة. فكانت النتيجة في الواقع ايجاد عناصر مناوئة للحكم من بين مواطنين كانوا مخلصين في السابق.

ومع ذلك فلقد كان من الصعب ان يقوم الكويتيون بشيء آخر. ففي هذا البلد الصغير الذي يعتمد على سلعة واحدة تقريباً، كانت المنشآت دائماً عرضة لأعمال التخريب. ويشكل الشيعة نحو ٣٠ بالمائة من السكان، قد يتطلع بعضهم الى آية الله خميني طلباً للالهام. وجعلت المساعي الرامية الى اطلاق سراح المتهمين بأعمال التفجير الوضع أكثر سوءً. فلقد تمت محاكمة وإدانة ١٧ منهماً، ومع انه صدر حكم الاعدام بحق عدداً منهم، الا أنه لم ينفذ، وهكذا قام المتطرفون بحملة مستمرة من أجل اطلاق سراحهم، بدأت بعملية اختطاف طائرة الى طهران حيث تظاهر الحراس الايرانيين الثوريون بمهاجمة الطائرة لاطلاق سراح المسافرين. ولكن الحراس كانوا في الواقع

يقـومون بتمثيلية أمام كاميرات التلفزيون. اذ ان المختطفين كانوا يعملون لصالحهم. ثم كانت هناك ضغوط من بيروت حيث تم احتجاز رهائن غربيين من قبل مجموعة يقودها قريب لأحد الاسرى في الكويت. وأدى هذا الى تورط الدول الغـربيـة، بيد ان الكويت كانت عاقدة النية على عدم الرضوخ الى الابتزاز. ولقد رفضت حتى منح تأشيرة دخول الى تيري ويت، مبعوث رئيس أسـاقفة الكنيسة الانجليزية والذي أصبح هو نفسه أحد الرهائن في وقت لاحق، عندما أراد زيارة الكويت لبحث مسألة الرهائن الغربيين والمجرمين الذين ادينوا في الكويت.

تلت ذلك عمليات ارهابية وتخريبية، بما فيها واحدة في عام ١٩٨٧ كانت ستؤدي الى كارثة، عندما وضعت قنبلة بالقرب من صهريج يحتوي على مواد كيماوية سريعة الانفجار وسط مجمع نفطي. ولو ان القنبلة انفجرت لقضت على نصف الكويت! وتبيّن للسلطات هذه المرة ان الرجل الذي قام بهذا العمل التخريبي كان في الواقع موظفاً موثوقاً به في شركة النفط وانه ينحدر من عائلة لها خلفية شيعية وايرانية. وتبين لهم ايضاً انه كان في الوقت المحدد لانفجار القنبلة في دبي ينتظر طائرة لتقله الى طهران!

بيد ان تغييراً في سياسة الكويت تم اعداده بكثير من التفكير العميق هو الذي أدى الى تغيـير الوضـع في الخليج. فلقد كان العراق منذ عام ١٩٨٤ يسعى عمداً لضمان تدخل اميركا في الحرب لصالحه بضرب ما اسماه «اهدافاً اقتصـادية»، أي المنشآت والناقلات النفطية الايرانية. وبتركيز العراق على عصب الحياة الاقتصادية لايران، أجبر غريمته على القيام بأعمال كان لها كبير الأثر على الملاحة الدولية المحايدة وعلى العراق نفسه. فهددت ايران في احدى المراحل باغلاق مضيق هرمز ـ وهذا أمر كان بامكانها ان تقوم به في ذلك الحين بزرع الالغام هناك. ولكن الولايات المتحدة رفضت عام ١٩٨٤ ان تجـر الى النزاع. لقد اكتفت واشنطن بإصدار التحذيرات الصارمة وهكذا فشل المسعى العراقي.

ولكن الكويت نجحت حيث فشل العراق. لقد كانت الكويت هي التي وقع عليها قرار المعاقبة الايراني وكانت الحكومة الايرانية تعتبرها طرفاً في النزاع تقـريبـاً بجـانب العراق. وهكذا كانت السفن المتجهة الى الكويت تتعرض

للتوقيف والتفتيش بانتظام. وكانت ناقلاتها البترولية هي التي تهاجم. وفي نهاية المطاف لم تعد الكويت قادرة على تحمل المزيد من هذه الاعمال فتوجهت الى الولايات المتحدة بطلب السماح لها بتسجيل ناقلاتها تحت العلم الامريكي. بيد ان امريكا تلقت الطلب بعدم اكتراث. فقد كان المسؤولون الامريكيون يعتقدون بان هذه عملية صعبة وستستغرق وقتاً طويلاً تنطوي على كثير من الشكليات التي ستقوم بها سلطات خفر السواحل الامريكية. كما ان الامر يتطلب تشغيل ملاحين امريكيين للتغلب على معارضة النقابات الامريكية وهلما جرا.

أصغى الكويتيون بأدب ثم توجهوا الى الاتحاد السوفياتي بطلب مماثل. وجاء الرد من موسكو مختلفاً تماماً: ان الاتحاد السوفياتي لن يسجل السفن الكويتية تحت العلم السوفياتي ولكنه سيؤجر ناقلاته بملاحيها الروس الى الكويت، وسيوفر حماية لهذه الناقلات. وقبل الكويتيون هذا العرض بكثير من الامتنان وقاموا في الحال بتبليغ الامريكيين بالترتيبات التي توصلوا اليها.

جاء الرد من واشنطن هذه المرة مرضياً للكويتيين. فلقد قرر الامريكيون فجأة ان الاعتراضات التي كانوا قد ذكروها من قبل يمكن التغلب عليها بسهولة. وتم في وقت قصير منح أسماء أمريكية وقباطنة أمريكيين لثلاثة عشر ناقلة بترول كويتية. وفجأة احتشدت البحرية الامريكية واحتشد جنود المشاة الامريكيين وسلاح الجو الامريكي في الخليج، الامر الذي غيّر الوضع في الخليج تماماً بين عشية وضحاها. وان شاءت امريكا أم أبت، فلقد بدأت الان تعمل بطريقة ساعدت العراقيين وأعاقت الايرانيين، ولو ان أول ضحية، المدمرة الامريكية ستارك ذهبت ضحية خطأ ارتكبه طيار عراقي.

ولكي لا تبدو العملية عملية أمريكية محضة، أقنعت الولايات المتحدة كلاً من بريطانيا وهولندا وفرنسا وبلجيكا بالمساهمة في ما أصبح أسطولاً غربياً. وكان الهدف من حيث المظهر هو ضمان حماية الملاحة في الممرات البحرية الدولية ولكن الهدف الامريكي الحقيقي كان مجرد منع السوفييت من الحصول على موطىء قدم في الخليج على حساب الامريكيين.

كما ان الدوافع الكويتية لم تكن تماما هي تلك التي تم التعبير عنها. لقد اراد الكويتيون بكل تأكيد ضمان سلامة أسطولهم. بيد ان السياسيين

الكـويتيين المحنكين كانوا ينظرون الى المدى البعيد. ان اشراكهم للولايات المتحدة في النزاع يضمن حمايتهم من ايران في الوقت الحاضر ويوفر ضماناً للمستقبل ضد أية مغامرات عراقية في الجانب العربي من الخليج بعد ان تتم تسـويـة النزاع بين العراق وايران. انهم يتذكرون مطالبة العراق بأرضهم والتهديدات العراقية، على الرغم من ادعاءات بغداد بأنها تخلت عن مثل هذه الافكار. ان الولايات المتحدة هي حليف أفضل من الاتحاد السوفياتي نظراً لمعـاهـدة الصـداقة بين العراق والاتحاد السوفياتي. لقد طوع الكويتيون الولايات المتحدة بكثير من الدهاء لمصلحة أمنهم في المدى القريب والبعيد.

ولتحقيق الهـدف الثاني أنشأ حكام الخليج مجلس التعاون الخليجي، وليـد فكـر السعودية وقد طرحت الفكرة رسمياً في اجتماعات عقدها حكام الخليج أثناء مؤتمر القمة الاسلامي الذي عُقد في الطائف عام ١٩٨١. إن النقـطة ذات الدلالة بشـأن أصل المجلس، وهي النقطة التي فاتت معظم الدبلومـاسيين والدول الأجنبية في ذلك الحين هي أن الأمير نايف بن عبد العزيز، وزير الداخلية السعودي، هو الذي قام بكل التحركات التي سبقت اجتماع الطائف. إذ أن الهدف لم يكن إنشاء تحالف عسكري وجيش قادر على ردع أي عدوان خارجي على المنطقة أو التصدي له، بل إنشاء تحالف معني بالشؤون الداخلية، للحيلولة دون وقوع أي شيء يعطي القوى الأجنبية ذريعة للتدخل في المنطقة، ومن هذه الناحية على الأقل كان منصفاً كلياً: إنه لا يرحب بوجود جنود أمريكيين لحراسة حقول النفط تماماً كما لا يرحب بقيام الجنود الروس باحتلال هذه الحقول بالقوة.

لقد تمكن المجلس من ضم أعضاء متباينين كعُمان والكويت، الى حد بعيد، لأنه كان معنياً أصلاً بالشؤون الداخلية. فالكويت هي محرك رئيسي في شؤون النزاع العربي ـ الاسرائيلي، بينما عُمان تؤيد سياسة كامب ديفيد المصرية وهي في المعسكر الغربي تماماً. ومع ذلك تمكن الشيخ جابر الصباح والسلطان قابوس من الجلوس سوية. وهكذا فعل حكام آخرون بالرغم من خصوماتهم القديمة: الشيخ عيسى، أمير البحرين والشيخ خليفة، أمير قطر الشيخ زايد، رئيس دولة الامارات والملك فهد، عاهل السعودية. العراق فقط هو الذي كان غائباً عن هذا التجمع الذي كان يمكن أن يمثل منطقة الخليج الجغرافية،

وكان ذلك نتيجة للحرب مع ايران وليس نتيجة معارضة الدول الأخرى أو عدم الاهتمـام في بغـداد. وفي الواقـع شارك العراق في عدد من المشاريع الخليجية مع أنه ليس عضواً.

لقد كان الهدف الأصلي من مجلس التعاون الخليجي هو تسهيل انتقال المعلومات بين الدول الأعضاء وخاصة عن العناصر الهدامة أو المنشقة، ولقد حقق نجاحاً مبكراً عندما تم في دبي بالصدفة اكتشاف خطة أوعزت بها ايران لاثارة المشاكل في البحرين، فقامت قوات الأمن في الجزيرة بإحباطها. ونما مجلس التعـاون الخليجي بسرعـة وأصبـح الهـدف الأسـاسي، أي تبادل المعلومات الأمنية ـ حيث تم تخصيص كومبيوتر لهذا الغرض في مقر المجلس في الرياض ـ اعتباراً أقل شأناً وأصبح التعاون الاقتصادي هو الأهم. ولقد حقق المجلس في هذا المجـال نجاحاً كبيراً. وعلى نقيض النموذج الأوروبي (السـوق الأوروبيـة المشتـركـة)، لم تتنـافس الدول الأعضاء على جذب الصناعات لأراضيها: بالعكس، فبسبب الوعي المتنامي في الخليج بأن المزيد من الصناعة يعني المزيد من العمال الأجانب وهذا بدوره يعني المزيد من المشاكل، كان التنافس غالباً على إزاحة مصانع مخططة الى دولة مجاورة، بدلاً من القيـام بمجهـودات كبـيرة لجذبها. لذا كانت السعودية في البداية على استعداد للمساهمة في تمويل مصهر للألولنيوم في البحرين بدلاً من انتاج طاقتها الخاصة في الجبيل، بينما تعاونت السعودية والكويت في بناء مصنع للاسمنت بدلاً من أن تتنافسا في ما بينهما. كما اتفق الشركاء في المجلس على إنشاء جامعة الخليج في البحرين، على أن تولي عنايتها للتعليم المهني لتوفير القوى العاملة التي تحتاجها الدول الأعضاء.

ولقد كان أكثر الأمور إثارة للدهشة هو أن الدول الست شرعت أيضاً في تعاون عسكري حقيقي. فعقدت أول مناورة مشتركة بالقرب من البريمي عام ١٩٨٣. ولكن الخطوات التي كانت تستهدف توحيد المعدات العسكرية لم تنجح. فعلى الرغم من التزام الحكام بمجلس التعاون الخليجي، وهو التزام حقيقي، فإنهم لا يزالون يدركون بأنه ربما تظهر خلافات بينهم في المستقبل قد تتطلب اللجوء الى القوة. ومع ذلك فإن التعاون العسكري ينمو باضطراد بحيث أصبح المجلس قوة متماسكة بطريقة لم يتوقعها مؤسسوه.

كان حضور قادة المجلس الاحتفال بمناسبة وضع حجر الأساس لجسر البحرين ـ السعودية (أو جسر الملك فهد كما يسمى في السعودية) في نهاية قمة مجلس التعاون الخليجي التي عقدت في المنامة في نهاية عام ١٩٨٢، كان مشهداً معبراً للغاية. لقد كانت تلك مناسبة للفرق الموسيقية والاستعراضات والرقص والخطب. وشوهد جلالة الملك فهد وهو يهز ساعة يده ليتأكد من أنها تعمل، وغفى الشيخ زايد في وقت من الأوقات، بينما كان الشيخ خليفة يتثاءب وبدا المضيف الشيخ عيسى، قلقاً. وألقى الدكتور غازي القصيبي، وزير الكهرباء السعودي في حينه، وأحد الشعراء العرب البارزين، قصيدة تكريماً للمناسبة. وفجأة تنبه الجميع وأصغوا بانتباه. فَسُر الشيخ زايد بالاشارات الساخرة لمناسبات عظيمة في السابق وضحك الشيخ خليفة على الاشارات البارعة الى الصداقة بين قطر والبحرين، بينما أشرق وجه الشيخ خليفة.

بيد أنه حدث تأخير في افتتاح الجسر لحركة السير. وكان السبب الرسمي لهذا التأخير هو الحاجة لاتمام بناء محطات الجمرك ومرافق اجراءات الهجرة لكل من البلدين. ولكن السبب الحقيقي كان حدوث تردد في اللحظة الاخيرة من الطرفين. فيبدو ان الوجود الفعلي للجسر حث السياسيين والمسؤولين في البحرين والسعودية على التفكير في نتائج الوضع الجديد. وحتى ذلك الحين، كان كل واحد يتكهن بصورة غير جدية حول التغيير الذي سيحدثه الجسر ولكن القليلين فكروا في النتائج العملية، ولقد تعيّن عليهم الآن القيام بذلك، الأمر الذي ادى الى تأخير الافتتاح لمدة زادت عن السنة. فلقد تعيّن الآن تحديد رسوم العبور والاجراءات الرسمية للسيارات التي تعبر من جانب الى الجانب الآخر وتقسيم مسؤوليات قوات الشرطة والجمارك والهجرة في البلدين. واستغرق كل هذا وقتاً، ولكنه تم التوصل الى اتفاقية سياسية. وبدأت حركة السير تتدفق عام ١٩٨٦ وأدت الى تخفيض مذهل للأسعار في البحرين. وراح السواح السعوديين يتدفقون على المنامة كل يوم خميس، ودخل رجال الاعمال البحرينيون في مشاريع مشتركة مع زملائهم السعوديين. بالطبع هناك صعوبات، تمثلت في قيام بعض السعوديين بقيادة سياراتهم بصورة هوجاء وبعض الحدوات المؤسفة من قبل بعض الشبان السعوديين الذين تعرضوا لفتيات بحرينيات او الذين وجدوا المشروبات الكحولية المتوفرة

بحرية في البحرين أقوى مما إعتادوا عليه في المملكة. ولكن بعد أن زال عنصر الاثارة الأولى، استقر الحال على نحو أفضل. اذ ان السعوديين الذين يعبرون الى البحرين في نهاية الاسبوع يتصرفون الان بكثير من الاتزان والاعتدال، ان بعض الحوادث لا تزال تحدث، ولكن كما أشار طارق المؤيد ذات مرة: حتى لو قام السعوديون بإلحاق بعض الاضرار بحانة أو بمطعم، فانهم من نوع الزبائن القادرين على دفع تعويضات على ما قاموا به. وتضمن شرطة البحرين بسرعة قيامهم بذلك!

لقد فعل مجلس التعاون الكثير من أجل تقليل احتمال قيام الأجانب بإثارة المتاعب في الدول الأعضاء، كما اتخذت السعودية إجراءات صارمة لمنع تسلل المنشقين بين صفوف ملايين الحجاج الذين يحلون بمكة كل عام. ومن بين الخطوات الهامة التي قام بها المجلس تلك التي استهدفت إزالة العداوة بين عُمان واليمن الجنوبية والتي دامت سنوات طويلة. ونتيجة لوساطة دولة الامارات العربية، التي تيسرت بفعل المال الذي وفرته كل من السعودية والكويت، تمكن المجلس من إحداث مصالحة على الورق، على الأقل، بين هذين الندين، الأمر الذي مكّن من إحتواء الخلافات بين البلدين.

إن دول الخليج لا تزال تخشى التدخل الخارجي، إلا أن ثقتها في مقدرتها على السيطرة على الأمور الداخلية تتعاظم. إن خطر حدوث أعمال هدامة قائم دائماً، ليس فقط في الخليج ولكن في أي بلد آخر أيضاً يتعرض للضغوط الناجمة عن وجود أعداد هائلة من العمال الأجانب وعن الثروة المفاجئة وعن امتلاك سلعة حيوية لبقية العالم.

ولقد تم في الخليج تقليل هذه المخاطر بقدر الامكان، ليس فقط عن طريق استعمال وسائل معقدة لاكتشاف مكان وجود المتاعب المحتملة والعناصر الهدامة، بل وعن طريق الاستعمال الأمثل أيضاً للمال لتقليل السخط وعدم الاستياء: فمن الصعوبة بمكان أن يصبح المرء ثورياً إذا توفرت لديه جميع الأشياء المادية، وهو يعلم بأنه إذا أراد أي شيء آخر، فما عليه إلا أن يُعد حجة معقولة ويبلغها لسمو الشيخ.

إن الأخطار الخارجية لا تزال قائمة: فبإستطاعة الاتحاد السوفياتي دائماً أن يستغل الوضع عند حدوده مع ايران لايجاد حجة كي يخطو خطوة أخرى

نحو حقول النفط. وقد تعتقد الولايات المتحدة بأن نوايا الاتحاد السوفياتي توسعية للغاية وتضغط من أجل السماح لقواتها بالمرابطة في المنطقة لردع أية مغامرة من نوع مغامرة أفغانستان. إن بلدان المنطقة ستقاوم هذين الاحتمالين بنفس القوة. ومع ذلك فطالما بقي النفط سلعة حيوية في العالم، فسيبقى الخليج وعاء العسل الذي يجذب القوى العظمى، ونقطة مواجهة محتملة والمنطقة التي ستبدأ فيها على الأرجح الحرب العالمية التالية.

إن لامتلاك أغنى ثروات العالم مساوءه!

الجزء الرابع

البترول: شيك على بياض

● أول بئر بترول في الخليج ● الميجور هولمز والإسترن آند جنرال سنديكيت ● مؤتمر العقير ● إنشاء بابكو ● بدايات في قطر ● نجاحات في الكويت ● إزدهار في الامارات.

غادر المنامة، عاصمة البحرين المنظمة، بالسيارة، ماراً بعمارات مدينة عيسى المبنية من الاسمنت، عبر شوارع الرفاع السارة للعين والمحفوفة بالأشجار، حيث تقيم الأسرة الحاكمة، فتصل الى العوالي، مقر صناعة النفط في الجزيرة. ويحتفظ المجمّع بمباني الادارة والنوادي والبنايات الفنية والبيوت، بطريقة ما بجو مؤقت، وكأنه لا يزال معسكر بترول يسكنه عمال في حالة تأهب لحزم أمتعتهم القليلة والانتقال الى موقع آخر. وفي الواقع، توجد مدينة العوالي، كما تُعرف الآن، في هذا الموقع منذ نحو خمسين سنة، وهي من بعض النواحي أرسخ من بيوت بعض الشيوخ ـ فلقد جرت العادة في البحرين حتى الأمس القريب أنه عندما يموت أحد الأعيان كان بيته يُهجر ويُترك ليتداعى بفعل حرارة الشمس تماماً كما تتحول بقاياه الى رفات.

وفي مكاتب شركة نفط البحرين، بابكو، في العوالي حيث يفوق اليوم عدد الموظفين البحرينيين عدد زملائهم الأجانب، يتذكر المسؤولون بفخر أن شركتهم كانت معروفة باسم جامعة الجزيرة في وقت لم يعرف معنى كلمة جامعة إلا نفر قليل من البحرينيين. فقد بدأت الحياة العملية لكثير من الوزراء وكبار المسؤولين فيها، حيث جرى تعريفهم على تعقيدات الادارة عن طريق دورات دراسية نظمتها الشركة. وهم يعودون في المناسبات الى الكلية الأم كضيوف شرف، ربما لالقاء محاضرة أمام الدفعة الجديدة من «الطلاب».

وعلى الرغم من ذلك، فلا يزال هناك إحساس بالزوال، شعور بأن كل هذا هو عبارة عن تمثيلية متقنة أعدها الكبار من أجل الأطفال.

عد الى سيارتك واتجه جنوباً الى حقل النفط نفسه، الممتد حول جبل دخان، فيصبح ذلك الاحساس أقوى عندما تشاهد المضخات أمامك. إنها من النوع المسمى بالحمار المثقل بالنعاس بسبب شكلها الذي يشبه رأس الحمار وطريقة عملها. إن حقل البترول في البحرين مأهول بزرافات وحمير وحشية وغيرها من المعدات التي تجعل المشروع يبدو وكأنه ملعب للأطفال ـ وربما قام الاداريون بقليل من الوعي بتهيئة البحرينيين لليوم غير البعيد عندما سترحل حديقة الحيوان هذه ببطء، مخلفة وراءها أرض الصحراء الجرداء للأغنام والماعز.

اتجه بسيارتك نحو «ذروة» جبل دخان غير المهيب إذ لا يتجاوز ارتفاعه ٤٠٠ قدم. ومع ذلك فلقد كانت هنا بداية التحوّل الذي غيّر الخليج تماماً، عندما بدأ البترول يتدفق من أول بئر يحفر في البحرين بعمق ٢٠٠٨ أقدام وذلك يوم ٢١ يونيو (حزيران) ١٩٣٢. إن البئر «البحرين رقم ١» لم يكن الأول في الجزيرة فحسب، بل والأول في الخليج بالمعنى الضيق للكلمة، وهو سلف الحقول العظيمة في السعودية والكويت وقطر وأبو ظبي. ومن سخريات الأقدار الكثيرة في الخليج أن أول حقل يتم استغلاله كان أصغر الحقول وأقلها أهمية. وفي نفس الوقت، إن كون البحرين أول مكان يعثر فيه على البترول لم تكن أمراً سيئاً، نظراً لبنيتها الاجتماعية والاقتصادية والادارية المتطورة نسبياً، وتفتحها على الأجانب والأفكار الأجنبية. ولقد كان هذا الاكتشاف بالنسبة لأناس كثيرين في ذلك الحين دليلاً آخر على أنها أرض بوركت على نحو خاص، وعلى أن بلاد دلمون القديمة، كما اعتقد الكثيرون، لا تزال تنعم بالخير. لأن اكتشاف البترول تم في الوقت الذي بدأ فيه تدهور الصناعة الأساسية في المنطقة. فلقد اشتهرت البحرين بلؤلؤها الذي كان مصدر قوت الفقير والغني على حد سواء. وكانت مهاجع المحار (الهيرات) توجد في الضفاف الضحلة حول الجزر الثلاثة والثلاثين التي تكوّن دولة البحرين. ولكن اكتشاف اليابان طريقة لعمل اللؤلؤ الصناعي عام ١٩٣٢ دمر سوق اللؤلؤ الطبيعي (الحر) ودمر بالتالي اقتصاد البحرين، واقتصاد دويلات الخليج الأخرى!

وفي هذه اللحظة المناسبة حقق ايمان فرانك هولمز، مهندس المعادن

النيوزيلندي، النتائج المرجوة. فهو الذي بات مقتنعاً بوجود البترول في الخليج ودعم قناعته هذه بماله وسمعته وبمهنته. خدم هولمز إبان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) في الجيش البريطاني في العراق وسافر في شمال الخليج وجنوبه بصفته مأمور تموين. وعاد بعد الحرب الى لندن حيث عمل في وزارة البحرية لبعض الوقت، وحيث كان يقضي وقت فراغه منكباً على خرائط الشرق الأوسط. كما قرأ الكتب القديمة، وقصص الرحالة القدماء التي تحدثت عن «بلاد النار التي تنبعث من تحت الأرض» أو عن المادة السوداء التي كان الناس يجمعونها من على وجه الأرض والتي كانت تطلق لهباً ساطعاً عندما تحرق. وعندما ترك هولمز وزارة الحربية عام ١٩٢٠، كان أحد الأفراد الذين شكلوا شركة صغيرة في لندن بهدف التنقيب عن البترول في الخليج سميت «ذا إيسترن آند جنرال سنديكيت» ولم تكن هذه الشركة تملك سوى ايمان هولمز وخبرته، ومبلغ محدود جداً من المال. ولم يلاحظها أحد في ذلك الحين، بل لم يلاحظها أحد لعقد من الزمن بعد ذلك. ومع هذا فلقد كانت الأداة التي ستغيّر وجه المنطقة والجغرافية السياسية للعالم!

في البداية، عملت الشركة بسبب حاجتها لجمع المال بسرعة، في حفر الآبار الارتوازية، وهي عملية قليلة التكاليف، اعتقد هولمز وبحق أنه يمكن استعمالها كوسيلة للوصول الى أهداف أعظم ـ فكل شيخ في الخليج كان يعرف قيمة الماء. وذهب فرانك هولمز أولاً الى البحرين بسبب تسربات البترول المعروفة في الجزيرة الرئيسية ولأنه حتى في ذلك الحين كانت المنامة إحدى المدن القليلة المعروفة نسبياً والتي كان الوصول اليها سهلاً، يحكمها حاكم على دراية بالعادات والطباع وطرق التجارة الأجنبية، بسبب صلات دولته القديمة مع الهند. وأثناء تلك الزيارة الأولى ازداد طموح هولمز: فقرر، وكان محقاً هذه المرة أيضاً، بأنه حتى لو تم العثور على النفط في البحرين، فإن الامكانيات لن تكون عظيمة. لقد بات مقتنعاً بأن الفرصة الحقيقية توجد في شبه جزيرة العرب.

ولاحت الفرصة التي كان ينتظرها عندما عُقد مؤتمر عام ١٩٢٢ لتسوية مسائل الحدود بين السعودية والكويت وبين الكويت والعراق وهو المؤتمر الذي توج بمعاهدة أوجدت منطقة محايدة بين السعودية والكويت وأخرى بين

العراق والكويت، فكانتا أعظم انجازات السير بيرسي كوكس، المندوب السامي في بغداد، وأكثر الانجليز نفوذاً في الخليج حينئذ، والرجل الذي قضى حياته العملية هناك والذي كان يعرف المنطقة أحسن من أي موظف آخر، لقد كان الاداري المثالي. قام كوكس بدور فعال في تنصيب فيصل على عرش العراق، وكان يخشى أن تقوض الفوضى عند الحدود الجنوبية عمله، حيث كان بدو ابن سعود يمارسون رياضتهم المفضلة، ألا وهي الغزو وتوسيع حدود مملكة سيدهم. وقرر كوكس بأنه يجب أن يُفرض النظام وأن يُكبح الغزاة وهكذا أقنع ابن سعود بالاجتماع به في قرية العقير المقابلة للبحرين لبحث مشاكل الحدود.

تجادل ممثلو السعودية والعراق والكويت لأيام دون التوصل الى نتيجة. عندها تدخل السير بيرسي كوكس وفي يوم واحد فرض حلاً اذ قام برسم خط أحمر من رأس الخليج حتى الحدود المعروفة مع شرق الأردن، ثم رسم خطين آخرين لتحديد المنطقتين المحايدتين حيث تشارك كل دولة جارتها في السيادة على المنطقة المحايدة بينهما. إن قرار كوكس الاعتباطي هذا لم يرض أحداً، إذ أنه أعطى قطعة أرض معتبرة من أراضي الكويت للسعودية وأعطى أراضي سعودية للعراق بينما نتج عن إحداث المنطقتين المحايدتين نزاعات وخصومات دامت سنوات عديدة فيما بعد. ومع ذلك فإن الخطوط التي رسمت في ذلك اليوم في العقير شكلت حدود البلدان الثلاثة لمدة ٤٥ عاماً. ومع أن هذه المناطق قد اقتسمت الآن، فإن انتاجها الهائل من البترول تتقاسمه السعودية والكويت بدون نقاش، وهناك اتفاقية حول تقسيم أي معادن أخرى يتم العثور عليها.

بالنسبة لفرانك هولمز كان مؤتمر العقير بمثابة استجابة لدعواته. فمع أنه كان متأكداً من وجود البترول في البحرين، إلا أنه واجه في الفترة القصيرة التي قضاها هناك مشكلة بدا حلها أمراً مستحيلاً ـ ألا وهي تعهد الحاكم بأن لا يسمح إلا للشركات البريطانية بالتنقيب عن المعادن في أراضيه أو باستغلال أي بترول يتم الحصول عليه. وكان هولمز يعلم بأن الامكانية الوحيدة لكسب المال هي الحصول على امتياز يمكن بيعه الى شركة أمريكية، لأن الأمريكيين هم الذين كانوا متلهفين حينئذ على دخول الخليج في أعقاب

الحرب، بعد أن اتضح أن الانتاج المحلي قد لا يكون كافياً لسد حاجة السوق المحليـة، وراح السيـاسيـون في أميركا يتحدثون عن مزايا سياسة «الباب المفتوح» ـ أي السماح للشركات الأمريكية بالعمل أينما شاءت، علماً بأنه لم يكن يُسمح للشركات الأجنبية في ذلك الحين بالعمل في الولايات المتحدة!

ومن بين جميع دول الخليج، كانت السعودية هي الدولة الوحيدة التي لم تكن لها معاهدة خاصة مع بريطانيا، وبما أن ابن سعود بات على بعد عدة ساعات سفر بالمركب، قرر هولمز التوجه الى العقير. وهكذا وصل هولمز الى هناك حاملاً رسالة من ممثل ابن سعود في لندن، الدكتور مان، تقدمه للملك، وكان شخصية أخرى غير مرغوبة في اجتماع عجيب: فلقد كان الاجتماع، كمؤتمر، ميؤوس منه: إذ كان الميجور ج. س. مور هو الناطق بإسم الكويتيين وكان قليل الكلام، بينما كان ممثل العراق صبيح بك، وزير المواصلات، يردد ما يقول له كوكس، في حين بدا ابن سعود غير قادر على التوصل الى قرار. ولكن بعد أن قام المندوب السامي البريطاني بفرض إرادته، ساد المؤتمر جو من المـودة، واصـطف المؤتمرون كي تلتقط صورهم وهم يبتسمون. ولعل أكثر الصور تعبيراً تلك التي تبين ابن سعود وكوكس وهولمز معاً ـ الملك عبد العزيز بزيه العربي وبجانبه السير بيرسي ببدلته السوداء بينما وقف هولمز خلفهما وكأنه هو المضيف!! وكان هولمز قد أحضر معه من البحرين عشرات الهدايا لابن سعود، وكسب ود الملك بشخصيته. وفي غضون بضعة شهور حصل على أول امتياز للتنقيب عن البترول في السعودية شمل المنطقة الشرقية بكاملها لقاء ٢٠٠٠ جنيه استرليني في السنة*.

لقد كان هذا نصراً لهولمز الذي اعتقد هو وشركته بأنهم سيتمكنون من بيعه بسرعة الى شركة أمريكية اذا ما استطاعوا إثبات وجود البترول. إن الشيء الذي ربما كان هولمز يجهله، والذي كان معلوماً بالتأكيد للسير بيرسي، هو أن شركة البترول الانجليزية الفارسية الناجحة للغاية كانت مقتنعة بعدم وجود البترول في السعودية. ولعدم توفر المال للقيام بحفر آبار تجريبية، عجز هولمز

---

*إقـرأ التفـاصيـل الكـاملة في كتاب «المملكة» بقلم روبرت ليسي والصادر بالعربية في لندن.

عن توفير الدليل المطلوب كي يتمكن من بيع الامتياز لقاء مبلغ كبير من المال. وجدد ابن سعود الرخصة التي منحها لشركة هولمز مرتين، ولكن بعد زيارة واحدة فقط قام بها خبير جيولوجي غير معروف أرسلته الشركة، سمحت الشركة لامتيازها بأن يصبح لاغي المفعول عام ١٩٢٧ بعد أن توقفت عن دفع الأجرة السنوية.

لقد كان هولمز هو المفاوض والرجل المقدام وممثل الشركة في الميدان، لذا حوّل أبصاره بعد نجاحه في الحصول على الامتياز الى الكويت، والى ذلك الجزء من المنطقة المحايدة الخاضع لسيطرتها. وفي الكويت لم يواجه هولمز الشيخ احمد بن صباح، أمير الكويت الذكي والمرتاب فحسب، بل واجه أيضاً وكيلاً سياسياً معادياً عاقداً النية على صيانة مصالح شركة البترول الانجليزية الفارسية. ومع ذلك حصل على حقوق التنقيب عن النفط في المنطقة المحايدة، وتبعه خيار من السعودية والكويت بخصوص امتيازات أخرى في المستقبل. لقد أبلت ايسترن آند جنرال بلاء حسناً نتيجة نشاطات هولمز ومقدرته على الاقناع، إلا أنها لم تحقق أبداً الثروة المرجوة!

وبقي هولمز على قناعة بأن فرصة العثور على البترول فرصة طيبة وعاد الى الجزيرة عام ١٩٢٥ حيث شرع في حفر آبار إرتوازية لصالح الشيخ حمد بن خليفة، حاكم البحرين، بموجب عقد فريد من نوعه: إنه لن يطالب بأي أجر في حالة فشله في العثور على الماء ولكن إذا كُللت مساعيه بالنجاح فإنه سيتوقع، علاوة على أجره، أن ينظر الحاكم بعين «الاعتبار الجدي» في طلبه للحصول على امتياز للتنقيب عن البترول. لقد كان هولمز واثقاً من أنه سيعثر على الماء في إحدى المناطق القليلة في الخليج التي عرفت بينابيعها ومائها العذب. وفعلاً، عثر على الماء بوفرة في البئرين اللذين حفرهما، الأمر الذي بعث البهجة في نفس الشيخ حمد، فمنح هولمز امتيازاً خاصاً للتنقيب عن البترول وحقاً اختيارياً بخصوص الاستثمار في الجزيرة بكاملها. بيد أنه كانت هناك عقبة وحيدة، وكانت من فعل البريطانيين: إنه لن يكون قادراً على بيع الامتياز الى جهة أخرى إلا بموافقة بريطانيا!

ترك هولمز لشركائه في لندن أمر المفاوضات، بينما بقي هو في البحرين يفكر في خطوته التالية، إلا أن شيئاً لم يحدث لمدةٍ طويلة. فبسبب القيود التي

فرضتها الاتفاقية التي وقعتها البحرين وبريطانيا من خلال حكومة الهند، في عام ١٩١٤ تعين على شركة هولمز الاتصال بشركات بريطانية فقط بقصد بيع الامتياز. إلا أن شركة شل والشركة الانجليزية الفارسية رفضتا بأدب العرض، لأنهما لم تكونا مؤمنتين بوجود البترول في البحرين بناء على تقارير خبرائهما

وأظهرت شركة ستاندارد أويل أوف نيو جيرسي الأميركية بعض الاهتمام، إلا أنها كانت تخشى معارضة بريطانيا لمثل هذه الصفقة. وقبل أن تنقضي مدة الخيار الذي حصل عليه هولمز بأسبوع، أي في شهر ديسمبر (كانون أول) ١٩٢٧، قامت جالف أويل كوربوريش بشراء الحقوق التي حصل عليها هولمز في البحرين والكويت والسعودية. وأرسلت على وجه السرعة رجالها الى البحرين، حيث أثبتت التقارير الجيولوجية المفصلة صحة اعتقاد هولمز بوجود البترول فيها. ثم ظهرت هناك مشكلة أخرى: فبموجب احدى الصفقات المعقدة التي بدأت تعطي صناعة البترول سمعة سيئة، كانت شركة جالف أويل شريكة في صفقة مع شركة البترول التركية الممنوعة من العمل في أي مكان من شبه الجزيرة العربية بموجب «اتفاقية الخط الأحمر» ـ تلك الاتفاقية التي أبرمت بين شركات البترول والتي تحدد مناطق نفوذ كل منها. وبما أن جالف أويل كانت ممنوعة من العمل في البحرين، قامت ببيع حقها في الامتياز الى شركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا، سوكال.

ومع ذلك بقيت هناك مشكلة الاتفاقية الخاصة بين بريطانيا وحاكم البحرين. إلا أن هذه المشكلة التي بدت عويصة لمدة طويلة من الزمن، حُلت في غضون أسابيع معدودة، عن طريق ما وصف في حينه بـ «مراسلة دبلوماسية»، كانت في واقع الأمر انذاراً. ونظراً لعدم اهتمام الشركات البريطانية بالبحرين، تنازل المسؤولون البريطانيون بهدوء. ولقد تمت المحافظة على شرف بريطانيا عندما قامت ستاندارد أويل بتشكيل شركة تابعة لها في كندا، الأمر الذي أوفى بالشرط الذي يقضي بأن تكون الشركة التي ستستثمر بترول البحرين بريطانية. ولكن شركة بترول البحرين، بابكو، كانت في الحقيقة شركة أمريكية ولم يبذل أحد أي جهد في الجزيرة لاخفاء هذه الحقيقة. وعندما هب حريق في المصفاة بعد ذلك بعدة سنوات، اتصلت الادارة المحلية بسان فرانسسكو قبل أن تبوح بشيء عن الكارثة التي كان

باستطاعة الجميع في البحرين أن يشاهدوها!

في شهر مايو (أيار) ١٩٣٠، وصل وليام تايلور، مدير الانتاج في سوكال، وفرد ديفيس، كبير الجيولوجيين في الشركة، الى البحرين. وكان الاثنان شيئاً جديداً في الجزيرة، التي كانت قد اعتادت حتى ذلك الحين على شبان سلك الخدمة السياسي الهندي الذين كانوا يقومون بمهمة الوكلاء السياسيين، أو على ملاحي السفن الحربية التي كانت تزور الجزيرة. لقد كان هذان الرجلان ببنطلوناتهما القصيرة الواسعة وقمصانهما المفتوحة الياقة يختلفان في المظهر عن الزوار البريطانيين الذين شاهدهم البحرينيون في الماضي. ولقد أدهش فرد ديفيس المواطنين أكثر عندما شرع في ما أسماه «مسيرة قصيرة» حول محيط جبل دخان، أي مسافة ٥٦ كيلومتراً من المشي، لمعاينة طبيعة الأرض هناك وتحديد مكان حفر البئر الأولى. ووضع كومة من الحجارة في المكان الذي وقع عليه الاختيار، وحيث وصل إد سكينر ومجموعة من الحفارين في شهر مايو (أيار) ١٩٣١. وأقسم هؤلاء الرواد الأمريكيين الذين كافحوا تحت أشعة الشمس المحرقة من أجل حفر أول بئر في البحرين بأن ديفيس اختار المكان الوحيد في الجزيرة المحروم من نسمة هواء أو أي ظل. كما أنهم وجدوا في وقت لاحق أن المكان الذي اختاره ديفيس يبعد مسافة ٢٠ قدماً فقط عن ذروة القبة المشبعة بالبترول، أي الموقع المثالي تقريباً، معتمداً على أبسط الأدوات، ألا وهي الخبرة وقوة الملاحظة، وعلى ذلك الشعور الحدسي الذي يتمتع به كل خبير بترول قدير!!

تدفق البترول لاول مرة في تاريخ ١ يونيو (حزيران) ١٩٣٢ بمعدل ٩٦٠٠ برميل في اليوم من عمق ٢٠٠٨ اقدام. بيد ان هذا لم يكن نجاحا كبيرا نظرا لكمية البترول القليلة ولانعدام الغاز تقريبا، الامر الذي عنا بدوره انعدام الضغط الطبيعي الضروري لدفع البترول الى سطح الارض. وعلى الرغم من ان الحاكم والمواطنين فرحوا لسماع خبر اكتشاف البترول، الا ان الامريكيين كانوا عابسين، وشرعوا في حفر بئر ثانية. وسرعان ما تدفق البترول هذه المرة بقوة. ووصفه تشارلز بلغريف، ذلك الرجل الشاب الذي كان قد تم تعيينه لتوه مستشارا للحاكم ما حدث فقال: «في يوم عيد الميلاد (١٩٣٢)، وعندما كنا نوشك على الذهاب الى كنيسة الارسالية الامريكية، تسلمنا رسالة من الميجور

هولمز تدعونا للحضور في الحال الى حقل البترول. وعلى الرغم من الشمس، كانت درجة الحرارة في بيتنا حوالي ٥٠ درجة (فهرنهايت) ـ قليلون من الناس يدركون كم تصل درجة برودة الشتاء في الخليج. وعندما وصلت انا ومارجري (زوجته) الى البئر في التلال المحاذية لجبل دخان، شاهدنا بركا من البترول الاسود وجداول سوداء تنساب في الاودية. وكان البترول وما بدا لنا مثل الدخان، والذي كان في الواقع غازا، يندفعان بقوة من جهاز الحفر، وكانت جميع الالات والعمال يقطرون نفطا. ولقد استحالت معرفة من منهم كانوا امريكيين ومن منهم كانوا عربا. ولم يكن المشهد جميلا، الا انى وجدته مثيرا. اذ تمكنت بلا ادنى شك من مشاهدة وجود حقل نفط في البحرين. ولقد كان ذلك يوما عظيما بالنسبة للميجور هولمز، الذي شاهد الان البرهان المرئي لما كان يعتقد به دائما».

ان بلغريف، الشاب الانكليزي الكامل ـ من عائلة جيدة، خريج جامعة اكسفورد، خدم في الجيش وخدم في سلك المستعمرات ـ لم يشاطر الرأي البريطاني الرسمي في هولمز، الذي كان يعتبره شخصا متهورا ومشبوها بعض الشيء، يجب ان يراقب دائما. وبالعكس، انه «لم يكن من النوع العادي لصيادي الامتيازات، ولقد ذكرني بإحدى شخصيات (القصّاص) سومرست موم. لقد عاش هولمز في جميع انحاء العالم وبامكانه ان يستحوذ على انتباه اي شخص لساعات طوال بقصصه الحقيقية عن الناس الذين قابلهم. ويبدو من حيث المظهر من نوع رجال المستعمرات الجفاف الا ان طباعه كانت تخفي مهارة وقدرة عظيمة في التعامل مع العرب. انه لا يتكلم سوى لغته، ولكنه يتفاهم مع اهل البحرين الذين كانوا لا يعيرون انتباها لعادته في الصراخ بوجوههم ولطمهم على الظهور، الامر الذي كان من شأنه ان يثير استيائهم لو قام به اي شخص آخر».

لقد كان بلغريف هو الذي اعطى هولميز وبحق الكنية «ابو النفط» والتي لا يزال يعرف بها، وذلك لايمانه الراسخ واستعداده لتكريس حياته من اجل ذلك الايمان بوجود النفط. لقد امسك بالفرص، ولم تثن الصعوبات التي اوقفت الاخرين عزيمته، وفاز في نهاية الأمر. لقد كان يأمل بالطبع في ان يصبح ثريا، ولكنه في النهاية لم يتعد كونه ميسور الحال، واراد فوق كل شيء ان يثبت بأنه

كان على حق، وما اجهزة الحفر وانابيب البترول والغاز الملتوية كالثعابين في الصحراء والمدن التي ازدهرت من عائدات النفط الا نُصُبا تذكارية له. لأن نجاح هولمز في البحرين هو الذي حث الاخرين بسرعة على المجيء الى المنطقة. ان الشركات التي سخرت من فكرة وجود البترول بمحاذات الشاطىء الغربي للخليج بدأت تتنافس في الحصول على الامتيازات، بينما سعى الرجال الذين كانوا قد سخروا من هولمز واعتبروه رجلا مغامرا ودجالا الى طلب نصائحه. وبقي هولمز في البحرين كممثل لبابكو عندما شرعت الشركة في بناء مدينة النفط في عوالي، وحفر المزيد من الآبار ومد خط انابيب حتى جزيرة سترة والى مراسي الناقلات قبالة الشاطىء، واقامة مصنع لفصل الغاز وبناء الصهاريج. ولم يبدأ تصدير البترول الا بعد مرور عامين، اي في يونيو (حزيران) ١٩٣٤، بما مجموعه ٤٠,٠٠٠ طن في الاشهر الستة الاولى. وارتفع الانتاج بسرعة الى ١٧٠,٠٠٠ طن عام ١٩٣٦ و ٦٢٠,٠٠٠ طن عام ١٩٣٥، ثم استقر عند نحو مليون طن لسنين عديدة. وكانت معظم الصادرات تذهب الى اليابان واوروبا الجنوبية. ولقد تم في عام ١٩٣٤ استبدال الحقوق التي حصل عليها هولمز اعتمادا على الآبار الارتوازية التي حفرها عام ١٩٢٥ بعقد تأجير يشمل مساحة ١٠٠,٠٠٠ فدان انجليزي من جزيرة البحرين، استثنيت منه جزر الأرخبيل الاخرى والمياه الاقليمية. ولقد سعت شركة بترول العراق جاهدة للحصول على امتياز للتنقيب عن النفط في الاراضي الباقية. ولكن الشيخ حمد منح الامتياز في النهاية لبابكو على اساس الحجة المعقولة جدا وهي ان حجم البحرين الصغير لا يتسع لشركتي بترول متنافستين.

وكان من الجلي ان يوّجه هولمز انظاره الى اقرب مشيخة الى البحرين، قطر، على الرغم من المنافسة بين البلدين. ولقد واجه هولمز في قطر مشاكل اصعب من تلك التي كان قد تغلب عليها في الماضي. وكالمعتاد كان هناك معاهدة وقعت هذه المرة عام ١٩١٦، تُلزم الحاكم بمنح الامتيازات للشركات البريطانية فقط. بيد ان هولمز اثبت انه لمن السهولة بمكان التغلب على هذه العقبة. وكانت المسألة الاصعب هي المنافسة من قبل الشركات الامريكية، التي باتت الآن عاقدة العزم على دخول هذه المنطقة التي ثبت بأنها قد تكون مربحة جدا، وكانت شركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا، سوكال، اولها. اذ طلبن من ابن

سعـود منحها امتيازا للتنقيب عن البترول في الاحساء، وكان الامريكيون مستعدون للدفع بالجنيهات الذهبية في حين اصرت الشركات البريطانية على الدفع بالروبية الهندية، العملة التي كانت دارجة في الخليج حينذاك. وليس من المدهش ان العروض الامريكية خلفت انطباعا حسنا لدى الحاكم.

تم ادراك امكانية وجود البترول في قطر اثناء عمليات التنقيب في البحرين، وحصلت شركة بترول العراق على حقوق للتنقيب عن النفط من الشيخ عبدالله في عام ١٩٣٠. استغـرقت عمليـة المسح ثلاث سنوات وربما عاد التأخير للتضـاريس الطبيعيـة الصعبة والانعدام التام لأي مرافق وعدم وجود أي وسـائـل مواصـلات مع الاجزاء الاخرى من الخليج. وجعلت الاكتشافات الجديدة في البحرين الأمر أكثر إلحاحا واجبرت البريطانيين في نفس الوقت على اعادة النظر في سياستهم النفطية، او في اعداد مثل هذه السياسة لأن اكتشاف البترول بأي كمية لم يكن واحدا من الاحتمالات التي أخذتها وزارة الخارجية او وزارة الهند بعين الاعتبار. وهكذا فبينما قام المسؤولون في وزارة الخارجية بكتابة تقييماتهم ببطء وارسلوا رسائلهم الى الهند، كان الممثلون المتعطشون لشركات النفط في الميدان يضـغطون على الشيخ عبدالله الهرم كي يمنحهم الامتيـازات. لقد كانت هناك سوكال ومجموعة ايسترن آند جنرال سنديكيت ممثلة في شخص هولمز، والشركة الانكليزية الفارسية ذات الصلات بشركة بترول العراق. وفي الوقت ذاته، كان المقيم البريطاني في الخليج، فاول، يراقب التطورات بقلق من مقره في بوشهر ويعمل كل ما في وسعه لضمان منح الامتيازات لشركة بريطانية.

واتضح في النهاية ان المسألة كانت مسألة سياسية اكثر من كونها مسألة مالية او اقتصادية. فقد بات ابن سعود يفكر في ضم قطر الى مملكته، الامر الذي بدا معقـولا من النـاحيـة الجغـرافيـة ولأن اهـل قطر كانوا يؤمنون بالمعتقدات الوهابية. ولقد طابت الفكرة للشيخ عبدالله الهرم والعاجز اذ انها وعدته بضمان حقوقه وامتيازاته المحلية وكانت ستريحه من المتاعب. الا ان الفكرة لم تكن لتحظى بتأييد لندن لأنها كانت ستفتح قطر امام الشركات غير البريطانية، الامر الذي يتنافى مع اتفاقية الخط الاحمر. وكان المسؤولون في لندن، والبعيدون كل البعد عن الواقع، يحبذون الضغط على الشيخ عبدالله

كي يراعي بنود اتفاقية عام ١٩١٦ مراعاة دقيقة. ونصح فاول، الذي كان على علم بما كان يحدث بين قطر والسعودية، بعدم القيام بمثل هذا الضغط وحذر من ان التهديدات والضغوط لن تؤدي الا الى ارتماء الشيخ عبدالله في احضان السعودية. وساد هذه المرة رأي الموظفين في عين المكان. وأرسل فاول الى الدوحة بتاريخ ٩ مارس (آذار) ١٩٣٤ ومعه تفويض بإعطاء الشيخ عبدالله ما يريد لقاء قيامه بمنح الامتيازات لشركة بريطانية او لشركة يملك البريطانيون حصة فيها ـ لقد أجبرت بريطانيا على التنازل حتى قبل ان تبدأ المفاوضات. وفي الدوحة انتقد فاول الشيخ عبدالله على مفاوضاته مع ابن سعود، مذكرا اياه بإتفاقية عام ١٩١٦، وأمره بمنح الامتيازات للشركة الانجليزية الفارسية.

الا ان الشيخ عبدالله اصر على ان لا يقوم بذلك الا اذا كانت الشروط صحيحة. ورجع فاول الى بوشهر، ولكنه عاد بعد شهر الى قطر وهو متلهف الى التوصل الى صفقة لصالح شركة بريطانية، لأنه ظهر هناك عاملان جديدان جعلا السرعة فجأة مسألة حيوية: اولهما ان الامريكيين قدموا طلبا رسميا للندن يستفسرون عن موقع الحدود الغربية لقطر وكان الثاني هو اكتشاف وزارة الهند فجأة بأن معاهدة ١٩١٦ التي تنص على منح اي امتيازات لشركات بريطانية فقط كانت في واقع الامر اتفاقا شخصيا مع الشيخ عبدالله، يصبح لاغيا في حالة وفاته!

وحصل فاول هذه المرة على تأييد الشيخ حمد، ابن الحاكم، من اجل الضغط على والده. ووعدته بريطانيا بالاعتراف به كولي عهد لقاء التزامه بأتفاقية عام ١٩١٦. وقبل حمد هذا الشرط، الا ان والده لم يبد اي علامة من علامات الاستعجال، الامر الذي حيّر البريطانيين جدا واقلقهم جدا! لقد كانوا مقتنعين بأن ذلك هو نتيجة مكائد الميجور هولمز الذي كان لا يزال يسعى للحصول على الامتياز وعزا اليه المفاوضون البريطانيون المقدرة على التأثير على الشيخ عبدالله . لقد كان البريطانيون على علم بالديون التي كانت تثقل كاهل الشيخ عبدالله ـ فلقد اضطر الى رهن بيته لقاء مبلغ ١٧٠،٠٠٠ الف روبية ـ وان خزينته فارغة. لذا احتاروا من صموده في وجههم. فلا بد ان احدا اعطاه مالا او وعده به؟ ولكن الحقيقة كانت ان الرجل الكهل لم يكن

قادرا على التوصل الى قرار. فعلاوة على ارتيابه في الاجانب ومن التغيير، بات يعاني من فقدان الذاكرة ومن عدم المقدرة على التفكير. وفي نفس الوقت، كن ابن سعود يلح عليه بالتشاور مع السعودية قبل اتخاذ اي قرار نهائي، وكان المفاوضان البريطانيان: سي. سي. مايلز من الشركة الانجليزية الفارسية وفاول نفسه، يقللان من حجم الدخل الممكن الذي سينتج عن اكتشاف البترول. ولقد بدت المسألة بكاملها بالنسبة للشيخ عبدالله مسألة سياسية، مسألة تحديد حدود، وليست مسألة شيء سيدر عليه ثروة كبيرة.

وكيفما كان، تمت تسوية المسألة في النهاية وتم التوصل الى اتفاقية ـ ولقد قرر البـريـطانيون اخيرا ان لا امل في الفوز، وازداد شعورهم بالثقة، ربما بسبب التقارير السرية التي رفعها اليهم احد تجار الدوحة البارزين وكان البريطانيون قد اسندوا اليه هذه المهمة لقاء مبلغ ١٥٠ روبية في الشهر. ووعد الوكيـل السياسي البريطاني التاجر بأن هويته ستبقى سرا الى الابد، وكان يشير اليه في تقاريره بالحرف «K». ولكن التاجر نفسه افسد الخطة عندما كان يرسل تقاريره السرية الى البحرين على ورق يحمل اسمه!! وبحلول مايو (ايار) ١٩٣٥ بات كل شيء جاهزا، فعاد فاول الى الدوحة مرة اخرى برفقة مايلز ومعه الاتفاقية المنمقة. وكان من المفروض ان تسير الامور على ما يرام، الا ان الشيخ عبد الله عطلها: اذ طلب اولا بحث الاتفاقية بندا بندا للتأكد من انها تحتوي على جميع ما تم الاتفاق عليه. ثم طلب مشاهدة المال الذي كان من المقرر ان يسلم له بعد التوقيع، وان يجري عد المبلغ امامه. كما، طالب بزيادة حصته السنوية من البنادق (٥٠٠)، علاوة على مصفحتين وعدد من المدافع الرشاشة.

فأوصى فاول الذي بات مشمئزا حقا من الموضوع برمته وكارها لزيارته المتكررة لعاصمة قطر المتخلفة، بقبول جميع طلبات الشيخ عبد الله. الا ان وزارة الهند رفضت واشارت الى «خفة سلطة الشيخ والى تأخر مشيخته» ولكن الشيخ عبد الله حصل على وعد حازم بالحماية من البريطانيين وهو امر كان يطالب به لسنـين لأنه كان يؤمن بأن هذه الحماية كانت من حقه بناء على اتفاقية ١٩١٦. وهكذا وعد فاول، نيابة عن حكومة صاحب الجلالة، بتوفير المسـاعـدة في حالة تعرض قطر لأي هجوم خطير غير مستفز من قبل دولة

اجنبيـة، فور توقيـع الاتفـاقيـة. وسـتـأتي هذه المساعدة من سلاح الجو البـريـطاني، ولتيسـير ذلك، طُلب من الشيخ بأن يسمح للبريطانيين ببناء مطارات ومحطات لاسلكي على ارضه، فوافق الشيخ على ذلك طواعية.

تم توقيع الاتفاقية مع الشركة الانجليزية الفارسية يوم ١٧ مايو (ايار) ١٩٣٥. ومنحت هذه الاتفاقية الشركة حقوقا خاصة للانتاج ونقل وتسويق وتكرير البترول والغاز الطبيعي في قطر لمدة ٧٥ سنة. وتسلم عبد الله مبلغ ٤٠٠،٠٠٠ روبيـة يوم التـوقيـع، علاوة على ١٥٠،٠٠٠ في السنـة خلال السنـوات الخمس الاوائـل ويـرتفـع هذا المبلغ الى ٣٠٠،٠٠٠ من السنة السادسة وحتى السنة الخامسة والسبعين. وتم تحديد العائدات على اي نفط يتم العثور عليه بثلاثة روبيات للطن - حوالي ٢٥ بنسا بأسعار عام ١٩٣٥. وبعـد ثلاثة اسابيع تم توقيع الاتفاقية السياسية بين بريطانيا وقطر التي جعلت الاخيرة في مستوى الدول المتصالحة في اعلى الخليج، وتم نقل امتياز الشركة الانجليزية الفارسية الى شركة جديدة هي بتروليوم ديفيلوبمنت (قطر) ليمتد.

وكالمعتاد لم يتباطأ العاملون في البترول بالشروع في العمل فور الحصول على الامتياز، ولكنهم واجهوا مشاكل اصعب في قطر. فقد كانت تضاريسها الطبيعية ربما اصعب من اي مكان آخر في الخليج. ولم يكن هناك ماء ولا مواصلات باستثناء القوارب التي كانت تحملهم الى مقرهم في البحرين. ولقد كانت المؤن المتوفرة محليا قليلة وكان هناك نقص في القوى العاملة. ومما زاد الامر صعوبة، ان الرجال الذين كان بالامكان تشغيلهم كعمال كانوا غالبا ضعفـاء وهـزيلين، لأن قطر عانت اكثر من اي مكان في الخليج من الركود الاقتصـادي العـالمي في العشرينات ومطلع الثلاثينات من هذا لقرن، ومن الانخفاض المفجع في الطلب على اللؤلؤ، ومن عدد من المواسم الرديئة التي عنت ان البدو الذين كانوا يجوبون بقطعانهم المنطقة الشرقية من السعودية لم يأتوا!.

لذا تعيّن على العاملين في مجال النفط البدء من لا شيء، في ارض قاحلة، لا يزيد عدد سكانها عن ١٥،٠٠٠ نسمة. ولقد تعين عليهم احضار كل شيء من البحرين، وهكذا كانت الخطوة الاولى هي بناء حاجز مائي في زكريت، في الجزء

الشمالي ـ الغربي من شبه الجزيرة. وعندما تراكمت المؤن تم انشاء معسكر عمل وشرع في الحفر بحثا عن الماء، وليس النفط! لأنه كالمعتاد كان مسألة اكثر الحاحا. ولم يبدأ حفر بئر البترول الاولى الا في عام ١٩٣٨ وكان ذلك بالقرب من زكريت.

ولقد احرز النجاح في السنة التالية عندما تم العثور على البترول بمعدل ٥٠٠٠ برميل في اليوم على عمق ٥٥٠٠ قدم، وكان الشيخ عبدالله في عين المكان لمشاهدة الحدث. ومع ان وزارة الهند كانت تحث في عام ١٩٣٥ على تعجيل المفاوضات خشية ان يموت الحاكم، الا ان الرجل استمر في الحكم حتى عام ١٩٤٨ وعاش حتى اكثر من ابنه بقليل. ولقد كانت علاقته مع بريطانيا ومع شركة البترول شائكة في النهاية. وعندما تدفق البترول من البئر الاولى في نهاية العام ١٩٣٩، ارسل الممثل الرئيسي لشركة بتروليوم دفيلوبمنت رسالة الى الوكيل السياسي البريطاني في الدوحة يقترح فيها تبليغ الشيخ عبد الله بنجاح البئر الاولى «بشرط ان يفهم بأن بئرا واحدة لا تكوّن حقل نفط وعائدات».

ولكن البئر الاولى لم تلطف ولو قليلا من الفقر المدقع التي كانت قطر تعاني منه على الدوام: فما كاد البترول يبدأ في التدفق حتى تقرر سد البئر بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية! وكانت الذريعة الرسمية لسد الآبار الثلاثة التي حفرت هو الخوف من الغزو، علما بأنه لم يجر توضيح من هي الجهة التي كان من المتوقع ان تقوم بالغزو. وهكذا تم شحن معظم المعدات التي جُمعت بكثير من العناء الى البصرة وبومباي، وترك الخبراء والعمال الاجانب الدوحة كما وجدوها، مكانا نائما ونائيا ومتخلفا.

وعلى العكس من ذلك تماما وعلى بعد عدة اميال، تم تصعيد العمل والتطوير في البحرين والظهران، ولم تبد هناك اي مخاوف من غزو. وفي الواقع تعرضت البحرين الى هجوم من العدو اذ قامت طائرات ايطالية في اكتوبر عام ١٩٤٠ بقصف الجزيرة، وكان من الواضح انها كانت تستهدف حقول النفط ـ كما انها القت بالقنابل على البر السعودي بالقرب من الظهران. وكانت الطائرات قد اقلعت من مطار في دوديكانيس، وطارت بعد غارتها الى شرق افريقيا الايطالي، الذي يسمى اليوم بالصومال. وكتب بلغريف يقول: «لقد

كانت (الغارة) كرحلة جوية إنجازا عظيما، الا انها كانت فاشلة تماما كغارة: كان هدف القنابل هو المصفاة التي كانت تتوهج بالاضواء كشجرة عيد الميلاد، الا انها سقطت جميعا في الصحراء على بعد ما (من المصفاة)». ولم تفلح في شيء سوى ترحيل النساء والاطفال الاميركيين من الجزيرة، ولكن الرجال بقوا لأن البحرين كانت إبان الحرب تعج بالحركة.

تم انجاز المرحلة الاولى من المصفاة عام ١٩٣٧، وكانت تطوّر وتوسّع بإستمرار. فكانت تكرر علاوة، على انتاج بابكو، كميات كبيرة من النفط الخام كانت تنقلها البوارج من الظهران. وعندما تعاظمت احتياجات الحرب للمنتجات المكررة، تم مد خط انابيب بقُطر ١٢ بوصة لربط الظهران بالمصفاة على بعد ٥٤ كيلو مترا. ومع انه لم يجر حفر آبار جديدة، الا أن الانتاج استمر وتم توسيع مدينة النفط في عوالي وتم بناء رصيف جديد قادر على استيعاب اربع ناقلات في سترة في نهاية جسر حمل انابيب ذات طاقات مختلفة من الصهاريج. ولم تعن الحرب الشيء الكثير بالنسبة لأهالي البحرين، باستثناء محاولة فرض نظام تعتيم في الليل في اعقاب الغارة الايطالية، الا انها اوقفت بسرعة.

وكذلك كان الوضع في الظهران، حيث تواصل الانتاج بأقصى طاقة وكانت عمليات التطوير مستمرة. صحيح، انه حدث تخفيض تدريجي في عام ١٩٤٣، الا انه اتخذ قرار ببناء مصفاة في رأس تنورة، وعلى الرغم من الصعوبات الناجمة عن الحرب، تم احضار جميع المواد الضرورية والرجال وشرع في العمل فورا. لقد جاء قرار بناء المصفاة نتيجة ازدياد الطلب على المنتجات المكررة بسبب الحرب والخوف من نفاد موارد امريكا النفطية. ولكنه كان ايضا قرارا سياسيا: لقد باتت واشنطن تخشى حقا ان تقوم بريطانيا بزعامة تشرتشل بتوسيع امبراطوريتها الاستعمارية في اعقاب الحرب، او على الاقل بتوسيع رقعة نفوذها. وكان الرئيس الامريكي فرانكلين روزفلت يعارض بشدة اي شيء من هذا القبيل، وفي نفس الوقت كان مستشاروه يحدثونه عن الطاقة الكامنة في السعودية. ووضعت خطط بمشاركة الحكومة الامريكية في ما اصبح يعرف الآن بإسم ارامكو، شركة البترول العربية الامريكية، لمد خطوط الأنابيب وللمزيد من اعمال التطوير. وبينما حافظ الانتاج على مستواه

في البحرين في تلك السنوات، شهدت الظهران ازدهارا عظيما.

لقد كانت الكويت، مثل قطر، واحدة من «الأقاليم سيئة الحظ»، كما سماها مؤرخ صناعة النفط ستيفان لونجرج. فلقد تواصلت عمليات الحفر في حقل برقان حتى عام ١٩٤٢، وأكدت النتائج طاقة المنطقة الكامنة. بيد انه تقرر للمرة الثانية وقف العمليات وكان العذر هذه المرة عدم اكتمال المرافق الاساسية الضرورية. وهكذا تم سد الآبار وترحيل المعدات وعادت الكويت، مثل الدوحة، الى سباتها السابق. ولكن العمليات في الكويت، كما لاحظ عرب الخليج، كانت نصف امريكية، بخلاف العمليات في قطر التي كانت تقوم بها شركة بريطانية. وهكذا اتخذ قرار بتصعيد انتاج البترول في مطلع عام ١٩٤٥ بسبب احتمال تواصل الحرب في اليابان، واعطى امريكيون الأولوية للكويت، بحجة ان العمليات في الكويت كانت في مرحلة اكثر تطورا منها في قطر، لذا سيكون من الاسهل مباشرة العمليات هناك.

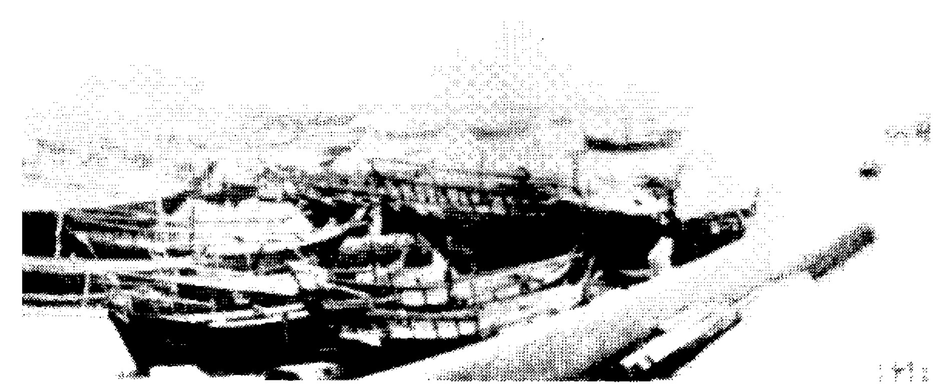
ولقد بات واضحا لأهالي الخليج الادنى بأن الامور تسير على ما يرام حيث كانت الشركات الامريكية تعمل: في البحرين وفي الكويت وفي السعودية، بالمقارنة مع الشركات البريطانية، الامر الذي كان له الاثر البالغ على سمعتها في الخليج لسنوات عديدة قادمة. وهكذا عاد الخبراء والعمال الى الكويت في اكتوبر (تشرين اول) ١٩٤٥، وتمت اعادة جميع المعدات التي كانت قد شُحنت وأُضيف اليها المزيد. وشُرع في العمل. فأُعيد فتح الآبار التي اغلقت بإستثناء بئر الاكتشاف التي تعذر إعادة فتحها. وفي مطلع عام ١٩٤٦ بدأ الانتاج في حقل الكويت مرة اخرى وشرع في بناء خطوط انابيب وارصفة وبنايات وكل ما كانت هناك حاجة اليه. ولقد ذهبت بلا رجعة الايام التي كانت فيها الكويت مكانا نائيا متخلفا.

اما في الخليج الادنى فلقد عنت الحرب تأجيل كل شيء. فلم تجر اعمال المسح الجيوفيزيائي التي كان مقررة لعام ١٩٣٩ ولم يبدأ الحفر الموعود في الشارقة. بيد ان الحكام اصروا بطبيعة الحال على تسديد الدفعات المتفق عليها ولقد تم ذلك بالفعل. وكان إدوارد هندرسون، اول سفير لبريطانيا في دولة قطر المستقلة فيما بعد، يعمل في شركة بترول العراق. وهو يتذكر كيف كان يقوم بتسليم «راتب» الشيخ شخبوط له يوم ١١ يناير (كانون الثاني) من

كل عام، أي الاعانة السنوية التي كانت تُسلم نقدا في حقيبة. فكان هندرسون يسلمها للشيخ الذي كان يسلمها بدوره لأحد افراد حاشيته لتحفظ في قلعة ابو ظبي التي كانت مكتبه وقصره وبيته، ثم كان الجميع يقضون يوما ممتعا في الحديث وشرب القهوة والاكل.

إلا ان المحاسبين بدأوا يضطلعون الآن بالمهام التي كان يقوم بها الرجال الذين فازوا بالامتيازات الاولى، لذا يجب ان يتم كل شيء كما ينبغي. فطلبت شركة بترول العراق من كل شيخ ان يعطيها ايصالا عن كل دفعة. واحتج هندرسون على هذه الخطوة قائلا بأنها ستجرح شعور الشيوخ. ولكن رؤساءه اصروا على ذلك. وهكذا بدأ هندرسون زيارته التالية من مقره في دبي في قارب متجها الى ابو ظبي في رحلة استغرقت ١٤ ساعة بسبب ردائة الاحوال الجوية. ولكن الشيخ شخبوط كان قد خرج الى الصحراء للصيد وترك خبرا لهندرسون بأن يتبعه الى هناك. ففعل هندرسون ذلك مقتفيا أثر الشيخ شخبوط وجماعته، بينما كانت الحقيبة المليئة بالنقود بجانبه. وعندما وجد هندرسون شخبوطا شرح له مسألة الايصال، ولكن الشيخ لوح بيده متجاهلا الطلب وقال لأحد رجاله ان يضع المال في خيمته. ثم اصر على ان يمكث هندرسون معه لمدة ثلاثة ايام يقضيها في صيد الحباريات بالصقور. وعندما حان الوقت لمغادرة هندرسون سأله الشيخ «لماذا تريد الايصال؟ انا اثق بك!». فأجابه هندرسون «ولكن شركة البترول لا تثق بي!». وهكذا حصل على ايصاله. ولكن كان عنده هم آخر فقال «ماذا تريد ان تفعل بالمال؟». «آه» رد الشيخ شخبوط «من الافضل ان تأخذه معك الى ابو ظبي، واذا رأيت اخي، اعطه اياه». وهكذا انصرف هندرسون حاملا الايصال والمال، الامر الذي كان من شأنه ان يزعج حساسيات المحاسبين الذين بدأوا يغيرون وجه جزيرة العرب!

وبينما كان مشايخ الخليج الادنى يعيشون كما عاشوا دائما: يتخاصمون فيما بينهم ويخرجون للصيد ويتقبلون العالم المعاصر بالتدريج، كانت البحرين تتمتع بفترة من الازدهار لا نظير لها. فتجددت اعمال الحفر في عام ١٩٤٦ بحفر ١٢ بئرا لتحسين نمط التصريف للحقل وتوفير الغاز لاعادة الحقن ـ وهي طريقة تكفل تدفق البترول في حالة انعدام الضغط الكافي ـ



ميناء الكويت في عصر ما قبل البترول



الشيخ أحمد بن جابر الصباح،
امير الكويت في العام ١٩٢٩
برفقة احد ابنائه



الشيخ عبد الله السالم الصباح، امير الكويت



الشيخ صباح السالم الصباح، امير الكويت

الشيخ راشد بن سعيد برفقة الشيخ زايد



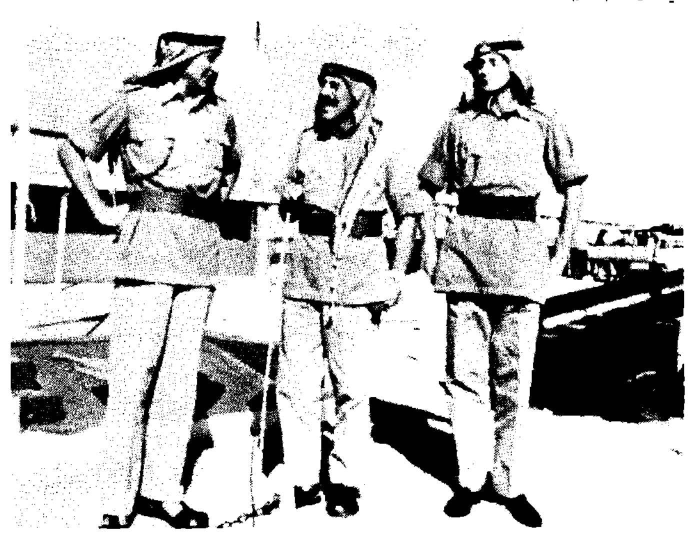
الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة



حكام المشيخات التسع الذين شاركوا في المفاوضات حول انشاء اتحاد يجمعهم بعد ان اعلنت بريطانيا عن عزمها على الانسحاب من الخليج عام ١٩٧١. وهم (من اعلى اليمين الى اليسار الشيخ راشد بن حميد حاكم عجمان والشيخ محمد حاكم الفجيرة والشيخ احمد بن راشد حاكم ام القوين والشيخ عيسى بن سلمان امير البحرين والشيخ خالد حاكم الشارقة والشيخ زايد بن سلطان حاكم أبو ظبي والشيخ أحمد بن علي الثاني حاكم قطر والشيخ راشد بن سعيد حاكم دبي والشيخ صقر حاكم رأس الخيمة



الميجور لوريمر، المشرف على شرطة دبي، مع الشيخ محمد بن حشر المكتوم
في مارس (آذار) ١٩٦٠



الكولونيل بارثولوميو، قائد قوة ساحل عُمان، فــي الشارقة بين ضابطين من ضباطه



من اليمين الى اليسار: الشيخ زايد بن سلطان وثاني بن عبد الله، الرئيس السابق للمجلس الوطني الاتحادي، والشيخ راشد، نائب رئيس دولة الامارات وحاكم دبي



سمو الشيخ زايد بن سلطان وسمو الشيخ صقر القاسمي بين أهالي رأس الخيمة



الشيخ راشد وحمدان بن راشد يستمعان الى شرح حول أحد المشاريع الانمائية



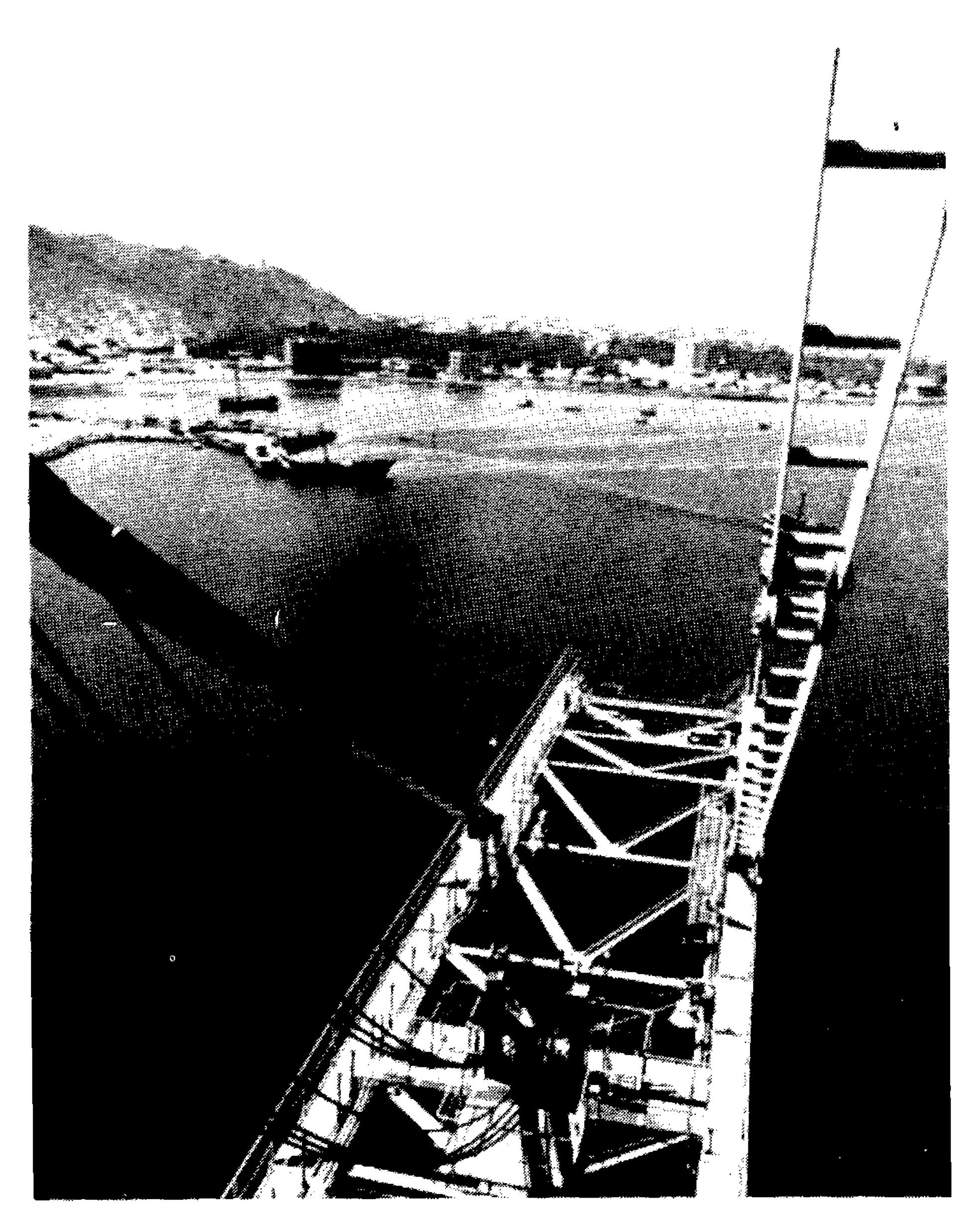
بدو ينشلون الماء من بئر في الساحل المهادن



صياد يجفف السردين على شاطىء
رأس الخيمة عام ١٩٨٢



خور دبي



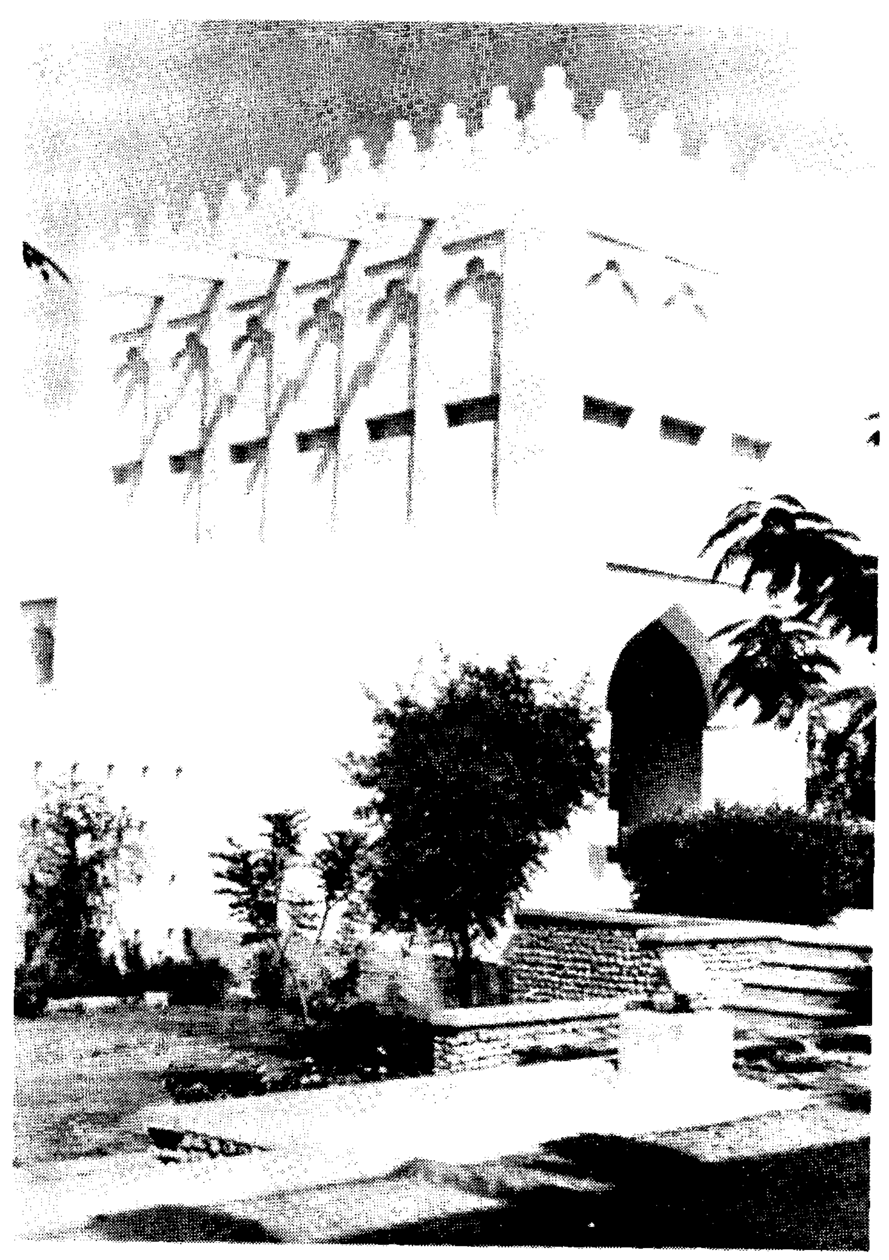
خور فكان كما يبدو من الميناء الجديد عام ١٩٧٨



السلطان سعيد بن تيمور، سلطان مسقط وعُمان



جلالة الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود



مدخل متحف في الدوحة



المقيم السيـاسي البريطاني، السير جورج ميدلتون، يزور أمير الكويت، الشيخ عبد الله السالم الصباح، في قصر السيف، ابريل (نيسان) ١٩٦٠



الشيخ زايد بن سلطان، رئيس دولة الامارات

ولاستبدال الآبار التي اصبحت عديمة الفائدة بسبب تسرب الماء، او لأنها انتجت الغاز فقط. وبحلول عام ١٩٤٨ اكتملت هذه الآبار واصبح عدد آبار البترول المنتجة ٦٨ بئرا. وكان المزيد منها يُحفر كل عام، ليس على امل اكتشاف اي حقول جديدة ولكن للمحافظة على معدل الانتاج البالغ نحو مليون طن في السنة. وبحلول عام ١٩٥٢ كان هناك ما يزيد على ١٠٠ بئر في الجزيرة، كان البترول يتدفق من ٧٦ منها بصورة طبيعية. واصبحت مدينة البترول في عوالي تملك جميع المرافق، بما في ذلك النجيل الاخضر وشجيرات البوغنفيليا الامريكية. وبكل تأكيد لم تملك البحرين يوما ما مثل هذا المال الكثير: إذ تم رفع معدل العائدات من ٣ روبيات الى ١٠ روبيات للطن عام ١٩٥٠ وبعد عامين ارتفعت المبالغ التي كانت بابكو تدفعها لخزينة الجزيرة من حوالي ٥٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني الى ٢,٥ مليون جنيه.

وشعر تشارلز بلغريف، قائد الشرطة والقاضي ووزير المالية ومستشار الحاكم، بالراحة نظرا لهذا التحسن الكبير الذي طرأ على الوضع المالي في البحرين. وكانت المصفاة تعمل بكامل طاقتها، وبدأت المراكب تنقل النفط الخام من الظهران مرة اخرى لأن انبوب النفط لم يعد قادرا على تلبية الحاجة. وللاستغناء عن المراكب، شُرع في مد انبوب مواز، بينما جرى تطوير وتوسيع المصفاة بحيث اصبحت قادرة على التحول فورا لانتاج مادة معينة حسب طلب السوق. وفي تلك الايام المبكرة كانت البحرين تقوم بتوفير معظم احتياجات القوات المسلحة الامريكية، وهي لا تزال حتى يومنا هذا تزود سفن الاسطول السابع الامريكي في المحيط الهندي والشرق الاقصى بالوقود بصورة منتظمة.

اما في الكويت فلقد بدأ التحوّل مع نهاية الحرب العالمية الثانية. وفي غضون ستة سنوات إزداد انتاج البترول من صفر الى ثلاثة ملايين طن في السنة وارتفعت عائداتها من ٣ ملايين جنيه استرليني عام ١٩٤٩ الى ٦٠ مليون جنيه! وباتت رقعة الرمال التي كانت معدومة تقريبا من الماء ومن الاشجار الدورادو الجديدة (مدينة اسطورية مليئة بالذهب)، دولة كتب لها ان تُصبح اثرى مكان على وجه الارض بسبب حدث جيولوجي. ومنذ البداية بدا من الواضح بأنه لا يمكن ان يُمنى اي عمل بالاخفاق. فكان كل بئر يتم

حفره تقريبا ينتج نفطا وبدلا من ان يبدو احتياطي كل بئر جديدة في تناقص، كانت تؤكد وجود المزيد من البترول، مما جعل الخبراء يرفعون تقديرهم لهذا الاحتياطي باستمرار. وعندما غادرت أول شحنة من البترول الفحيحيل في ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٤٦، كانت هناك ست آبار تنتج ١,٥ مليون طن في السنة، وفي السنوات الخمس التالية، تم حفر اكثر من ١٠٠ بئر اخرى، ولم تكن اي منها بئرا جافة! وفي الوقت ذاته شُرع في بناء جميع المنشآت المسلّم بها: مدينة الاحمدي الجديدة بمستشفياتها ومراكز التدريب والمساكن، والاهم من كل ذلك مشروع تحلية المياه. فحتى ذلك الحين كان الماء العذب يُنقل من شط العرب بالمراكب والناقلات الصغيرة وكان معظمه غير صالح للشرب. اما الينابيع القليلة التي كانت في الماضي تجذب القوافل اليها فلم تعد كافية لسد حاجة عدد السكان المتزايد. وكان جهاز التحلية الذي انشأته شركة البترول يزود مدينة الكويت بالماء، الى ان قامت الدولة ببناء اجهزة التحلية الضخمة.

وكان اغلاق حقول النفط الايرانية الذي تلا قيام الدكتور مصدق بتأميم صناعة النفط عام ١٩٥٠ هو السبب الرئيسي للزيادة الهائلة التي طرأت على انتاج الكويت من النفط، الذي فاق في احدى السنوات إنتاج السعودية. وعنا هذا بدوره ظهور حاجة مفاجأة للأيدي العاملة الماهرة. فعلى الرغم من ان الشركة كانت تدرب ما يمكنها من الكويتيين، الا انها لم تكن قادرة على تلبية الحاجة، وكان هذا هو سبب وجود العدد الكبير من الفلسطينيين في الكويت، اذ ان الحاجة للرجال صادفت حدوث نكبة فلسطينيين عام ١٩٤٨ عندما شُرد الفلسطينيين لأول مرة من وطنهم. وهكذا بدأ العصر الذهبي في الكويت، عصر تغيير راديكالي مفاجيء. ومن العجيب في الامر ان المشاكل التي جاءت مع النفط كانت قليلة وجديدة.

ولربما حدث شيء مماثل في قطر لو ان الشركة الحاصلة على الامتياز كانت شركة امريكية، قادرة على الاعتماد على الموارد والخبرة الامريكية. ولكنها كانت شركة بريطانية، ولم تكن بريطانيا ما بعد الحرب قادرة على توريد جميع المعدات الضرورية جدا لتطوير حقل دخان بسرعة. وكانت هناك حاجة للكفاح من اجل الحصول على كل انبوب وكل قطعة من المعدات وشعرت الشركة بضرورة تدليل كل عامل، لأنه كان هناك نقص كبير في الايدي العاملة الماهرة

والعمال في قطر تماما كما كان الحال عليه عندما بدأت الشركة عملياتها لأول مرة في قطر في نهاية الثلاثينات. وحتى العمال المتوفرون فقد كانوا يعانون من سوء التغذية ويفتقرون الى ابسط المهارات، ولم يكونوا معتادين على الانضباط في العمل. وحتى من تم تدريبهم في السابق رحلوا الى البحرين او الظهران للمشاركة في ازدهار هذين المكانين. لذا تعيّن على شركة بتروليوم دفيلوبمنت ان تبدأ من البداية. فكانت النتيجة ان عمليات الحفر لم تبدأ الا عام ١٩٤٧ ولم يتم تصدير الشحنات الاولى من البترول الا بعد عامين من ذلك. ولقد بشرت هذه الشحنات بحدوث تغييرات كبيرة كالتي كانت تحدث في الكويت. ولقد كان التحوّل الذي شهدته قطر اعجب مما حدث في الكويت، لأنها لم تكن معروفة مثل الكويت، وكانت عبارة عن شبه جزيرة قاحلة تماما وغير جذابة، فيها القليل من الماء وكانت اتصالاتها مع العالم الخارجي قليلة. ان واقع كونها احد الاماكن القليلة في الخليج حيث تجري مناقشة سياسات مستقبلية بهمة، وحيث تم تجنب ذلك النوع من التنمية المبهرجة الذي ينم عن ذوق سقيم، لهو دلالة بالغة على الاختلاف في الشخصية بين القطريين ودعنا نقول، الكويتيين.

وربما ان حقل دخان في شبه الجزيرة كان معلوما ومحددا الى حد ما، فقد جرى التركيز على حفر آبار الانتاج هناك، الا انه تم حفر بعض الآبار الاستطلاعية في الجنوب. وكثيرا ما وجد الجيولوجيين انفسهم يواجهون مشاكل هناك، لأن الحدود مع السعودية لم تكن محددة بدقة، فكانت هناك مواجهات كثيرة مع فرق منافسة من ارامكو، كان يرافقها عادة حراس سعوديين لم يترددوا في استعمال بنادقهم. واثارة اعمال المسح حول الزبارة غضب حاكم البحرين، إذ كانت هذه خطوة عديمة الكياسة وغير ضرورية دلت على عدم ادراك للسياسات والحساسيات المحلية التي كان يدركها العاملون في الميدان في ذلك الوقت. وبحلول عام ١٩٥٠ كانت قطر تنتج مليوني طن في السنة، وارتفع هذا الانتاج في السنة التالية الى ٢,٥ مليون طن،مما ادى الى ارتفاع مذهل في العائدات التي تدفعها الشركة للدولة. وكما هي العادة، قامت الشركة ببناء مدينة في دخان وتم مد خطوط انابيب الى امسيعيد على الساحل المقابل وهي انسب مرسى للناقلات، ومركز التنمية الصناعية في قطر في الوقت

الحاضر. واضطرت الشركة للقيام بتوريد العمال من الخارج ـ وفي الواقع اكثر من اي مكان آخر في الخليج، لقلة عدد اهاليها. لقد ذهب عدد قليل من الفلسطينيين الى قطر، الا ان معظم تجنيد العمال كان يتم في شبه القارة الهندية، ربما لأن قطر كانت غير معروفة ولأن ظروف المعيشة فيها كانت صعبة للغاية.

وكان شيوخ الساحل المتصالح في ادنى الخليج يراقبون ما يحدث بحسد. وكان كل واحد منهم على قناعة بأن دويلته هي ايضا بركة من النفط ـ فعلى الرغم من كل شيء، هناك نفط في السعودية وفي الكويت وفي البحرين: لقد كان هذا الاعتقاد منطقيا، وقالوا لزوارهم بانهم ايضا سيعثرون على النفط وسيصبحون اغنياء.

ولكن خبراء البترول لم يكونوا واثقين بنفس الدرجة، لأن عمليات المسح الاولى لم تكن مشجعة. ولأن حقول النفط لا بد ان تنتهي في مكان ما: وكانوا يؤكدون بأن وجود البترول ليس اكيدا. ولكن الشيوخ رفضوا التسليم بذلك وكانوا يلحون على المزيد من عمليات التنقيب والحفر ـ والمزيد من المال. وغالبا ما كانت الشركات تُقدم السلف للشيوخ لتسعدهم، على ان يتم سدها من العائدات في المستقبل، إن شاء الله. وفي نفس الوقت، استمرت الشركات في دفع المبالغ السنوية لقاء الامتيازات، وواصل ممثلوها القيام بزيارات منتظمة الى الحكام. واستمرت عمليات التنقيب، الا انها واجهت تعقيدات كبيرة بسبب انعدام وجود حدود واضحة بين المشيخات وعدم وضوح مَن من المشيخات كانت مستقلة ومن منها كانت تابعة لآخرين. وفي ابو ظبي كان الوضع اكثر تعقيدا بسبب النزاع مع السعودية حول واحة البريمي، الامر الذي عنا ان الجزء الغربي من ابو ظبي بقي مغلقا في وجه الجيولوجيين.

وكانت اعمال تنقيب منفصلة قد بدأت عام ١٩٤٩، وتم في السنة التالية حفر بئر تجريبية في رأس صدر في ابو ظبي، بيد انه تم التخلي عنها بعد سنة على عمق ١٣،٠٠٠ قدم. وجرت المحاولة التالية في جبل علي، موقع ميناء دبي الجديد حاليا. وعنا هذه بدء كل شيء من جديد لأن كل من حكام الساحل كان قد اصر على بند في اتفاقية ينص على استخدام اليد العاملة المحلية. وهكذا كانت هناك حاجة لتجنيد وتدريب مجموعة جديدة من العمال في كل مرة يتم

الانتقال فيها الى موقع جديد! ولقد تم التخلي ايضا عن بئر جبل علي بعد ان وصل الحفر الى عمق ١٢،٣٥٠ قدما. وتمت المحاولة التالية في مربان، على بعد عدة اميال الى الغرب من مدينة ابو ظبي، وعثر هنا على اثر للنفط ولكن ليس بكميات تجارية. وحفرت آبار اخرى بالقرب من الجزيرة، المحاذية لمربان، الشوحيات على الساحل. ولكن بحلول عام ١٩٥٨ لم يعثر على اي شيء في ابو ظبي يبعث على الامل. ثم جاء دور الشارقة، حيث تم حفر بئر بعمق ١٣,٠٠٠ قدم تقريبا ولكن بلا نتيجة. فساد التشاؤم الساحل بكامله.

ومع ذلك كان الجيولوجيون مقتنعون بوجود قبة مشبعة بالنفط حول مربان، موقع محاولتهم غير الناجحة الاولى، بناء على نتائج عمليات المسح الزلزالية ومقاييس الجاذبية والفحوصات الجيوفيزيائية. وهكذا عادوا الى ابو ظبي والى الشيخ شخبوط، الحاكم الذي بدا مقتنعا تماما بالمبلغ البسيط الذي كان يتقاضاه كل سنة لقاء الامتياز والذي لم يكن راغبا في الثروة الهائلة التي بدأت تغيّر طابع الكويت وقطر. وكان الخبراء هذه المرة اكثر ثقة، وعندما بدأ حفر البئر مربان ٢ في شهر اكتوبر (تشرين اول) ١٩٥٨، أُقيمَ احتفال كبير على شرف الحاكم وحاشيته. ووصف دونالد هولي، الوكيل البريطاني السياسي، المشهد فقال: «لقد تم تزيين معسكر النفط بالاعلام الوطنية البيضاء والحمراء. ووصل الحاكم، الشيخ شخبوط، في سيارة كاديلاك، تتبعه حاشية كبيرة في سيارات لاندروفر. وكان مصحوبا بإخوته واعضاء آخرين من عائلته، واصطحبوا على برج الحفر الجديد. وكانت قد وُضعت كراس مريحة على البرج لمراسيم بدء الحفر التي تم بعدها شرح المعدات المعقدة للحاكم. وتبعه رجال بأثوابهم الفضفاضة تزيّن صدورهم احزمة الرصاص، احتشدوا على برج الحفر الفضي وهم يحملون اسلحة بايديهم وصقورا على رسغهم ولخّص المشهد المواجهة بين القرن العشرين ونمط المعيشة العريق لشيخ عربي».

وا أسفاه! فعلى الرغم من الأُبهة والاستعراض، ثبت بأنّ البئر جافة ـ لقد كان هناك بعض الغاز ولكن لا ذكر للنفط. الا ان الخبراء باتوا الان مقتنعين تماما بأنهم في المكان الصحيح. وهكذا تم حفر البئر مربان ٣ وثبت بأنهم محقون هذه المرة، اذ تدفق البترول بمعدل ٥٠٠٠ برميل في اليوم على عمق

٨٠٠٠ قدم تقريبا. وتقرر تطوير الحقل في المكان الذي اصبح يعرف بإسم قبة الباب في مربان وحقل آخر بشر بالخير في الجنوب الغربي. وفي هذه الاثناء حققت مجموعات اخرى كانت تعمل في مياه الخليج نجاحا كبيرا: في عام ١٩٥٠ مُنحت سوبيريور اويل كومباني امتيازا للتنقيب عن النفط في الجرف القاري لأبو ظبي وإعترضت شركة بتروليوم دفيلبومنت على هذا القرار فورا مدعية بأنها تملك حقوق التنقيب في جميع اراضي ابو ظبي، على اليابسة وفي المياه الاقليمية. وكان مثل هذا الموقف قد ظهر في قطر في العام السابق عندما منح الحاكم هناك حقوق التنقيب في الجرف القاري لشركة سوبيريور واعترضت بتروليوم ديفيلوبمنت على هذا القرار. فإتخذت اجراءات للتحكيم في الدوحة ترافع فيها عشرات المحامين من لندن، وتقرر في النهاية بأن الحاكم كان على حق بمنح الامتياز البحري. وقررت اجراءات التحكيم التي عُقدت في باريس بأن حاكم ابو ظبي ايضا كان محقا. واقرت القضية بصورة فعالة حق الشيوخ في منح امتيازات منفصلة في البر وفي البحر، وعززت بذلك دخلهم المباشر من رسوم الامتيازات وامكانياتهم في المستقبل، الا انها عنت ايضا ان النزاعات حول الارض امتدت ايضا الى البحر ـ ولقد ادى بئر ابو ظبي البحري الاول في ام سيف الى شعور بالمرارة في المشيخات الاخرى، لانها كانت في احدى هيرات اللؤلؤ التي كان يستعملها في الماضي صيادون من جميع انحاء الساحل.

كانت جزيرة داس في الخمسينات هي مقر شركة مناطق ابو ظبي البحرية (ادما)، التي كانت تقوم بعمليات التنقيب في مياه ابو ظبي الاقليمية. وكانت ادما تابعة لشركة دارسي للاستكشاف المحدودة، تديرها شركة بريتش بتروليوم. وكانت داس غير المأهولة بالسكان عبارة عن نتوء قاحل من البحر يلجأ اليه الصيادون اثناء العواصف. فجرى تحويلها الى ميناء نفطي تام مجهز بخليج اصطناعي مدرج لهبوط الطائرات، وبيوت ومكاتب ومخازن. وتم بناء واحد من احدث ابراج الحفر المائية في هامبورغ أُرسل اجزاء الى جزيرة داس حيث تم تجميعه. وتم استعمال المركب انتربرايز كمنصة حفر متنقلة وبحلول شهر يوليو (تموز) ١٩٦٢ غادرت اول شحنة من البترول جزيرة داس، التي سبقت أول شحنة من البحر بوقت قليل. وكان قد تم حفر تسعة

آبار في الجزيرة. وبلغت صادرات ابو ظبي من البترول عام ١٩٦٢ ما مجموعه ٢،٥ مليون طن درت على خزينتها اكثر من ٣ ملايين جنيه استرليني. وبعد مرور خمس سنوات فاق انتاج الآبار البرية انتاج الحقل البحري بسهولة وتم شحن ما مجموعه ٢٣،٦ مليون طن، درت على الدولة ٦٤ مليون جنيه مليون جنيه استرليني من الدخل. وهكذا انضمت ابو ظبي الى عصبة كبار المنتجين، وسرعان ما شهدت تغييرا شاملا وتاما كالذي عرفته الكويت.

اما دبي، المرتابة من ابو ظبي على الدوام والتي تغار من اي نجاح تحققه، فقد راقبت بحسد التحوّل الكبير الذي كانت تمر به جارتها. ولقد تم حفر آبار برية وبحرية، الا انه لم يُعثر على النفط ومع ان دبي كانت تشارك في الرخاء الذي بدأ يعم المنطقة عبر دورها التجاري التقليدي كمركز تجاري للخليج الادنى، كان حاكمها وشعبه عاقدين النية على العثور على البترول. وهكذا كانت شركة بترول دبي، وهي اتحاد لجميع الشركات المعنية أُنشأ خصيصا لهذا الغرض، تتعرض لضغوط من اجل القيام بالمزيد من اعمال التنقيب. وتم في نهاية المطاف العثور على نفط بكميات تجارية في البحر بالقرب من منطقة ابو ظبي البحرية. وبدأ الانتاج في حقل فاتح عام ١٩٦٩. ان دبي لم تصبح ابـدا منتجا كبيرا للنفط ولكن العائدات الاضافية التي درها النفط، مكنت الحاكم من مواصلة المشاريع التجارية التي باتت بلده تشتهر بها والتي كان لها اثر عميق على سياسات المنطقة، اذ انها مكنت دبي من ان تصبح الثقل المقابل لتفوق ابو ظبي عندما برزت مسألة الاتحاد.

وانضمت الشارقة ورأس الخيمة هي الاخرى الى نادي منتجي النفط ولكن كعضوين صغيرين، الا ان هذا حدث في وقت لاحق. هذا ولم يعثر بعد على النفط في عجمان وأم القوين. واليوم تُجمع دول الساحل المتصالح معا في قوائم الاحصـائيات تحت اسم الامارات العربية المتحدة، وهي من اكبر منتجي النفط في العالم العربي. ويعتبر الدكتور مانع سعيد العتيبة، وزير بترول دولة الامـارات، من ابـرز المتحـدثـين بإسم اوبيك. وتدرس الحكومات الغربية القرارات التي يتخذها حكام الامارات والبحرين وقطر بتعمق لمعرفة التأثير الذي سيكـون لهـا على اسعـار البتـرول، وبالتالي على الاقتصاد العالمي. ويتصرف الشيخ زايد، حاكم ابو ظبي، اليوم بملايين اكثر من عشرات الدول

الاكبر حجما. انه نفس الرجل الذي تسلم بلا مبالاة الحقيبة المليئة بالروبيات التي عاد بها ادوارد هندرسون من معسكر الشيخ شخبوط الى مدينة ابو ظبي قبل ٣٠ سنة!

وعودة الى البحرين، حيث كانت البداية، فإن مضخات النفط لا تزال تعمل هناك، الا انها قلت. وكثير من اجزاء حقل النفط هناك هي في طور «الاستخلاص الثانوي»، اي انه تُستعمل طرق معقدة لاستخراج ما تبقى من البترول. ان احتياطي البحرين من البترول على وشك ان ينفذ، وفي جميع انحاء حقل دخان هناك الواح ثقيلة من الاسمنت هي شواهد لآبار قد ماتت وسدت. واصبحت المصفاة اليوم اهم من حقل البترول، والعائدات التي تمنحها السعودية للبحرين من احد حقولها البحرية اهم من الاثنين معا! ان حقل ابو سفر هو ملك للسعودية والبحرين بالمناصفة على الرغم من انه يقع كله تقريبا في المياه السعودية، ولا ضلع للبحرين في ادارته، الا ان تكرير النفط الخام منه يتم في مصفاة بابكو. وفي الواقع، اختارت السعودية هذه الطريقة لتقديم اعانة دائمة للبحرين ولقد فعلت ذلك منذ ان تم التوصل الى هذا الترتيب في الخمسينات. ويولي الشيخ خليفة ووزراؤه عناية بمصهر الالمنيوم وحوض السفن الجاف تعادل اهتمامهم بالنفط، ويناقشون ايضا مشاريع اخرى بتلهف. وفي الكويت ايضا اصبحت مسألة نفاذ البترول، وهي امر لم يكن واردا في الماضي، اصبحت موضوع نقاش مألوفا بين خريجي جامعتي اوكسفورد وهارْفارد الشبان الذين يديرون البلد. واعتلت الابتسامة وجوههم عام ١٩٨٢ عندما تجاوز دخل بلدهم من الاستثمارات الخارجية عائداتها من النفط لأول مرة في تاريخها. لقد ادركوا بنفاذ بصيرة الطريق الذي يتعيّن على بلدهم ان يسلكه واحسنوا اختياره!

في قطر وحدها من بين دول الخليج الاخرى هناك مناقشة جدية حول ما يجب ان يعمل. ان الحاكم والرجال النشيطين الذين يؤيدونه يريدون المزيد من الصناعات الجديدة في امسيعيد، محطة شحن البترول الاصلية، حيث توجد اليوم مصانع للفولاذ والاسمدة ومطاحن للدقيق. وهناك آخرون من الاهالي الذين يثيرون كثيرا من التساؤلات حول حكمة هذه السياسة. انهم يقولون بأن المزيد من الصناعة يعني المزيد من العمال الاجانب الامر الذي

يعني بدوره المزيد من المساكن لايوائهم والمزيد من الخدمات والمزيد من كل شيء بلا نهاية. ويحثون الحاكم على التوقف قائلين كفى ما حققناه ولنحافظ عليه. انهم يطالبون بطريقة غير مباشرة بالعودة الى الحياة البسيطة، مع الاحتفاظ بمكيفات الهواء والثلاجات طبعا!

هذه هي المعضلة السياسية للخليج ولو ان مناقشتها اقتصرت حتى الآن على قطر.

الجزء الخامس

عبيد ومهاجرون

● تهريب الذهب.. والناس ● الفلسطينيون في الكويت ● العرب والأجانب في الامارات ● تأثير الهجرة

كانت المراكب العربية تبحر عبر القرون بمحاذاة ساحل أفريقيا الأخضر. أشرعتها المثلثة الشكل مشدودة بفعل الرياح الموسمية الجنوبية الشرقية. والنواخذة (الربابنة) مسترخين في مؤخرة مراكبهم، بينما كان البحارة يقومون بمهامهم المختلفة او يراقبون الحمل من شبان وشابات زنوج مقيدين في قوافل تتكون كل منها من عشرة الى اثنى عشر شخصاً.

كما كانت هذه المراكب تبحر مع الرياح الموسمية الشمالية الغربية محملة بالبسط والتمور والاسماك المملحة، لتعود بعد اربعة اشهر محملة بالبهارات والعاج والعبيد الذين ربما تم شحنهم من زنجبار من قبل صياد العبيد العربي العظيم تيبو تيب. لقد كانت هذه تجارة منتظمة ومربحة، عمل على رواجها كون سلطان عُمان هو ايضاً سيد زنجبار، أي أن البضائع كانت تنقل من جزء الى جزء اخر من نفس السلطنة. الا ان البريطانيين لم يأخذوا بعين الاعتبار مثل هذه التفاصيل عندما جاءوا ليعقدوا المعاهدة العامة لعام ١٨٢٠ والتي كان هدفها الرئيسي وضع حد للقرصنة التي كانت تهدد التجارة البريطانية في الخليج وفي طرق المواصلات المؤدية الى الهند. واعتباراً للمشاعر التي كانت سائدة في ذلك الحين، احتوت المعاهدة على بند يمنح السفن الحربية البريطانية حق اعتراض اية سفينة يُشتبه في علاقتها بتجارة الرق واحتجاز السفينة المذنبة واعتاق العبيد. ولقد وضعت هذه المعاهدة حداً لتوريد العبيد على نطاق واسع من أفريقيا الى شبه الجزيرة العربية. ولو ان

هذه التجارة استمرت لسنين عديدة بعد ذلك، اذ كان من الممكن مشاهدة آباء يبيعـون اولادهم وبنـاتهم حتى الخمسينـات والستينـات من هذا القرن، ليُشحنوا الى عائلات عربية ثرية كانت تعامل هؤلاء «العبيد» وكأنهم أفراد من العائلة.

وهكـذا بدا ان على اصحـاب المراكب والسفن بانواعها المختلفة: سفن «البـوم» الضخمـة القـادرة على حمـل ٥٠٠ طن من البضائع، و«البجالة» المزخرفة و «السمبوك» الرشيقة، ان يحدوا نوعاً جديداً من الأحمال وهي في طريق عودتها الى الخليج في نهاية الموسم. وبكل تأكيد وجدوا مرادهم في الهنود والباكستانيين وأي شخص من شبه القارة الهندية كان يبحث عن الثراء او كسب لقمة العيش على الاقل، او توفير بعض المال للمستقبل.

أخـذت هذه التجـارة الجـديدة السفن الى كراتشي وبومباي وغيرها من الموانىء الواقعة بينهما. ولقد بدأت هذه التجارة عندما شُرع في تطوير حقول النفط ودامت الى ان قامت دول الخليج بسن قوانين هجرة استهدفت وضع حد للهجـرة غير المشروعـة. واستمرت بالفعل الى ان اصبحت الطائرة هي الوسيلة الاسـاسيـة لنقل اعداد كبيرة من الناس من بلد لآخر. وفي آواخر الستينـات ومـطلع السبعينـات، شكل المقدامون من بين أصحاب المراكب والسفن اتحادات مستثمرين كانت تشتري الذهب لتهربه الى ساحل ملبار او حتى أبعد من ذلك.

كانت دبي هي مركـز هذه التجـارة: لقد كان خور دبي دائماً هو مركز النشـاط، ويبـدو المشهـد للزائـر العـابر كما كان دائماً: أكوماً من الحبال والشبـاك، وبضـائـع من جميع الانواع مكدسة على الارصفة كيفما كان، ملاحـون يستعدون للاقلاع او يقومون بترميم مراكبهم بعد عبور عاصف لبحـر العرب، جموعاً من العرب تتحول وتتحدث وتضحك او تعقد صفقات تجارية. وبحلول هذا الوقت ظهرت هناك على طول الخور بنايات حديثة، كان من أولها البنك البريطاني للشرق الاوسط. وعندما كان الضلام يحل، كانت مجمـوعـات من الرجال تخرج منها وهم يحملون صناديق ثقيلة بحذر الى المراكب او يراقبون ما يجري من حولهم.

في سنــة واحدة، عام ١٩٧٠، استوردت دبي خُمس الانتاج العالمي من الذهب، نحــو ٢٦٠ طنــاً، كانت قيمتهــا في ذلك الوقت ١٥٠ مليــون جنيه استرليني!! وفي سنة اخرى استوردت ٢٠٠٠ طن من الفضة، أي ما يعادل مجموع انتاج أكبر بلدين منتجين للفضة وهما المكسيك والهند. ولو بقيت جميع الساعات الذهبية التي استوردتها دبي في المشيخة، لتعين على كل فرد من السبعــين الف نسمة من الاهالي ان يلبس ساعات على ذراعيه ورجليه وليس فقط على رسغية!

كان كل شيء مشروعاً: لقد أدرك الشيخ راشد الامكانات الكامنة في هذه التجــارة المــربحــة عندما قامت الهند عام ١٩٤٧ بمنع جميع مستوردات الذهب. وكان يعلم ان الهنود سيواصلون شراء الذهب بالرغم من هذا الحظر. فقام بفرض رسم جمركي موحد بنسبة ٣،٥ بالمئة على جميع البضائع التي تدخل دبي. ولم يكن الشيخ راشد وأعوانه وبالخصوص مهدي التاجر، ذلك البحــريني الداهيــة الذي تم «شراؤه» من شركــة جري ماكنــزي لتأسيس مصلحة الجمارك في المشيخة، معنيين بما سيحدث للبضائع بعد ذلك.

فكانت النتيجة ان اصبحت دبي مركزاً للتهريب في العالم. وكانت المراكب البالية القديمة المصطفة بمحاذاة الخور تخفي في باطنها محركات بقوة ٣٥٠ حصان تعطيها سرعة ١٦ عقدة او نحو ذلك، بينما كان من النادر ان تزيد سرعة مراكب خفر السواحل الهندية على ١٢ او ١٣ عقدة. وكانت المراكب المحملة بملايين الجنيهات من الذهب على شكل سبائك وزن الواحدة منها عشر تولات* كل سبيكة بحجم لوح من الشوكولاته لا يزيد وزنه على آونسات ـ تلتقي بلنشات صغيرة قبالة الساحل الهندي او تبلغ اليابسة في مكان ناء بعد رحلة تستغرق عشرة أيام. ومن حين لآخر كانت السلطات الهندية تلقي القبض على احدها، اذ كان لها جواسيس ومخبرون، تم دبت الرعب في قلوب المهربين حين بدأت تستعمل مراكب هوفر كرافت سريعة في وقت لاحق. الا ان سعر الذهب عكس المخاطر وكان بامكان المشاركين في اتحادات المستثمرين

---

* التولا هي وحدة وزن هندية تساوي ١١,٦٦٤ غراماً.

التي كانت تشتري الذهب ان يتوقعوا عائداً بنسبة ١٠ بالمائة في كل رحلة.

وكـانت هناك ايضاً أرباح في رحلة العودة أحياناً، وكان هذا يتوقف على الأسعار العالمية. كان الهنود يدفعون ثمن الذهب بالفضة، وأحياناً بالشيكات السياحية، او بالروبيات كما كان الحال في الايام الاولى. ولقد بلغ استنزاف العملة الحد الذي جعل الحكومة الهندية تطلب من دول الخليج ان تصدر عملات خاصة بها، وفي نفس الوقت قامت بسحب الروبية الهندية وبدلتها بروبيــة خاصــة بالخليج غير قابلة للتحويل. ولقد أربك هذا المهربين لفترة قصيرة، الا انهم وجدوا حلاً: لقد بقيت قطع النقد الهندية عملة قانونية في الخليج، وكانت قابلة للتحويل في الهند. وهكذا بدأت المراكب تعود وهي محملة ببراميل وقود سعة اربعين جالوناً معبئة بقطع معدنية من فئات نصف روبية وأربعة أنات، تبلغ الملايين. ولقد بلغ الضغط على بنوك دبي بسبب تصنيف وتــوزين وعد القطع النقدية الحد الذي أجبرها على فرض رسوم بنسبة ٥ بالمائة، ومع ذلك بقيت التجارة مربحة!

ومــع ازدياد أعداد الهنود والباكستانيين في الخليج، تم تطوير أساليب أحــدث لا تتــطلب أي نقل مادي للنقود: فكان الآف العمال الذين يريدون تحويل مبالغ الى ذويهم في الهند او الباكستان يتصلون بالصرافين، الذين كانوا يعطون شروطاً أفضل من البنوك المقيدة بالاسعار الرسمية، ويطلبون منهم تحــويــل مبــالغ معينة. وكان الصرافون بدورهم يرسلون برقيات الى زملائهم في الهند وباكستان يطلبون منهم فيها دفع مبالغ معينة. ثم كانت تتم تسوية جميع الحسابات بين الطرفين عن طريق الشحنات المتبادلة بين دبي وساحل ملبار.

وكانت هناك ايضاً تجارة اخرى، ساهمت هي الاخرى في الارباح وهي نقل العمــال الأجــانب الى الخليــج. لقد كانت هذه المسألة في الايام الاولى غير مشروعة ولكن السلطات كانت تتجاهلها، اذ كان هناك نقص دائم في الأيدي العاملة، ليس فقط في الايدي العاملة الماهرة، بل في الايدي العاملة من أي نوع ايضاً. ففي الوقت الذي نالت فيه دولة الامارات استقلالها، لم يكن عدد حملة الشهادات الجامعية فيها يزيد عن الاربعين او نحو ذلك، وبلغ عدد من كانت

عندهم خبرة في اقتصاديات البترول والادارة المالية او التخطيط اثني عشر. وبخلاف الوضع في العديد من الدول الفتية الاخرى فلم يكن هناك محامون ـ الأمر الذي يحتمل ان يكون قد ساعد على تطوير الاتحاد. وكانت نتيجة هذا النقص في اليد العاملة الماهرة لملء مناصب حيوية ان الحكومة أُجبرت على الاعتماد على الاجانب.

ومن عوامل الاعتماد على الأجانب ان الأهالي، سواء في الكويت او أبو ظبي او دبي او الشارقة لم يعتادوا على العمل اليدوي المنتظم، بل انهم يحتقرونه. لذا كانت هناك حاجة لاستيراد العمال من الخارج. ولقد كان حكام المشيخات المختلفة يدركون هذه الحقيقة، الا انهم كانوا يخشون ان يسحق التأثير الاجنبي الثقافات المحلية. لذا ترددوا، فلم يتخذوا اجراءات حاسمة لوقف الهجرة غير المشروعة وفي نفس الوقت لم يسمحوا بها علناً. فكانت النتيجة ان تهريب العمال أصبح ضرورة مربحة وبينما كان الحكام يتحدثون عن ضرورة المحافظة على نمط الحياة التقليدي وعلى التوازن السكاني، كانوا يريدون الحصول على كل شيء فوراً: قصور وفنادق ومطارات جديدة وكل شيء آخر. ولم يكن هناك العدد الكافي من العمال لانجاز كل هذه المشاريع. لذا كانت هناك حاجة لتوريد الايدي العاملة الضرورية ولقد قام اصحاب المراكب بدورهم في توفير هذه الايدي العاملة. ومر الكثيرون من العمال الاجانب بتجارب مرعبة وهم في طريقهم الى إلْدورادو: فكم من مركب رسا قبالة ساحل الباطنة في عُمان لتفريغ حمولته من العمال المتعبين والمرضى والجائعين بعد ان قاموا برحلة شاقة من الهند، ليُقال لهم ان ابو ظبي او دبي «وراء التلة مباشرة». وتم انزال آخرين بطرف الصحراء ما بين رأس الخيمة والشارقة وتُركوا ليجدوا طريقهم بأنفسهم، ومن المدهش حقاً ان معظمهم تمكن من ذلك.

وربما لم يقلق تدفق العمال الأجانب الحكام كثيراً لو كان الوقت مختلفاً ولكن الثراء الذي نجم عن اكتشاف البترول والحاجة الى الايدي العاملة جاءا في ظروف صعبة. فقد كان البريطانيون، حماتهم لمدة ١٥٠ عاماً، يرحلون عن

الخليج، اما الامريكيون فقد كانوا في السعودية الا انهم لم يكتشفوا الخليج بعد، في حين راح شاه ايران يعتبر نفسه القوة العظمى في الخليج وشرطي المنطقة. وتمت في عُمان المجاورة الاطاحة بالسلطان سعيد بن تيمور، الحاكم المستبد الذي حاول عزل بلده عن العالم، وخلفه شاب عاقد النية على تطوير بلاده. وفي السعودية اهتز النظام بسبب محاولة انقلاب فاشلة قام بها ضباط في سلاح الجو. وفي اليمن الجنوبي، حيث كانت أول حكومة ماركسية في العالم العربي تُؤسس نفسها، قام الثوار الذين يقاتلون في ظفار باعادة تسمية منظمتهم الى «الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل». لقد كانت هذه أياماً قاسية بالنسبة لحكام الخليج عديمي الخبرة.

ومع ذلك، اختلفت المشكلة من مكان لآخر: ففي الكويت، كانت هناك فئة صغيرة نسبياً من العمال الأجانب سببت للأسرة الحاكمة قلقاً أكثر من حشود المهاجرين التي تدفقت على الخليج الادنى من الهند والباكستان، اذ كان من السهل التعرف على مئات الآلاف من الهنود والباكستانيين وكان واضحاً انه لن يتم استيعابهم في المجتمع لعشرات من السنين. ولكن في الكويت، وفي بداية عهد البترول، كان أكبر عدد من العمال الاجانب هم من الفلسطينيين. وفي عام ١٩٦٤ تدفقوا على الكويت كالسيل بالطرق المشروعة وغير المشروعة الأمر الذي حث الحكومة على اتخاذ اجراءات فعالة وسريعة للحد من عدد القادمين، وفي نفس الوقت اتخذت اجراءات صارمة لمكافحة الجريمة فأحضرت جلادين من مصر لتنفيذ عدد من أحكام الاعدام. وفي السنة التالية فقدت مصر شعبيتها في الكويت عندما حمّلت حكومتها عبد الناصر مسؤولية مؤامرة استهدفت الاطاحة بالنظام عهد امر تنفيذها الى فلسطينيين، وتم طرد اربعين منهم. ولكن على الرغم من هذه الصعوبات الاولى لقي الفلسطينيون في الكويت الترحاب عادة. لقد كانوا متعلمون وأصحاب مهارات، قادرين على القيام بجميع الخدمات التي تحتاجها الدولة. وكانوا بالطبع يتكلمون نفس اللغة، وبلا دولة. ولقد ادرك الكويتيون ان بينهم أناساً قادرين على الاستيلاء على زمام الأمور. لذا قرر الحاكم ومستشاروه منذ البداية عدم منح الجنسية الكويتية الا في الحالات النادرة، وجعلوا مسألة الجنسية المطلب الأساسي

للممارسة أي نشاط سياسي او الاستفادة الكاملة من منافع دولة 'الرفاه التي كانت قيد البناء.

وهناك اليوم فلسطينيون ممن خدموا أمير الكويت باخلاص لمدة تزيد على ثلاثين سنة ومع ذلك فانهم لا يزالون فلسطينيين، يتنقلون بجوازات سفر اردنية او بوثائق أخرى. وفي حالات نادرة جداً، مُنحت الجنسية الكويتية للذين خدموا البلاد لسنين طويلة. وحتى في هذه الحالات هناك فترة امتحان تدوم خمس سنوات لا يحق للمواطن الجديد بأن يتمتع بالمنافع الهائلة التي تترتب على هذه المنزلة.

ومع ذلك فان هذه المشكلة لن تختفي، كما يدرك ذلك المستشارون الاذكياء للشيوخ: انهم يسخرون من سياسة اعطاء الاولوية للعرب عندما تصبح الوظائف شاغرة، وهي السياسة التي تهدف الى المحافظة على نمط الحياة العربية وعلى اللغة العربية، وهما هدفان يستحقان الثناء. ولكنهم يخشون نتائج هذه السياسة، لأن الباكستانيين والهنود والتايلانديين والبنغلادشيين والفلبنيين موجودون في الخليج لغرض واحد وهو جمع أكبر مبلغ من المال والعودة الى بلدانهم كرجال أثرياء. انهم لا يريدون البقاء في الخليج. أما بالنسبة للعرب فالأمر يختلف. فبإستطاعة العربي من السودان او من مصر او من أي من اليمنين ان يشاركوا كلياً في الحياة الاجتماعية في الخليج وان يتمتع بمستوى معيشة اعلى بكثير مما يمكنه ان يتوقعه في بلده، وان ينخرط في نمط الحياة من حوله - ان المسلم يشعر بالراحة في أي بلد مسلم. هل سيريد أمثال هذا الشخص ان يعودوا الى بلدانهم الفقيرة والمزدحمة بالناس؟ ان الشبان الجامعيون الذين درسوا علم الاجتماع في الجامعات الغربية والذين يديرون وزارات الداخلية في الخليج يشكّون في ذلك. انهم يخشون ان يقوم ابناء العرب من خارج الخليج في المستقبل بالمطالبة بالمساواة في الحقوق مع ابناء الخليج، او لا سمح الله حتى بالديمقراطية. ان كلمة الديمقراطية تعني للمحافظين في الخليج قلب كل شيء يعتبرونه حجر الزاوية لوجودهم: الاطاحة بسلطة الأُسر الحاكمة والقضاء على امتيازات الاهالي وعلى تقاليدهم،

انهم يخشون ان لا يعود هؤلاء العرب الى بلدانهم وباتوا يعتقدون بأن هذا يطغى على مزايا وجودهم في الخليج.

يشعر الجميع بكل تأكيد بالاختلال الهائل الذي حدث: ففي دبي، وفي المنطقة الواقعة في الجانب الجنوبي من الخور وبخلاف الديره الواقعة في الجانب الشمالي، يُعذر الزائر لو انه اعتقد بأنه موجود في بومباي! لقد استولى التجار الهنود على هذه المنطقة بكاملها. ولقد أكد هذا الواقع رجل اعمال عربي سُمع وهو يناقش صفقة تجارية باللغة الأردية مع صاحب سلسلة من مكاتب السفر حين قال «لقد بات الخيار هو تعلم اللغة الاوردية او فقدان تجارتك. وبما ان التجارة كانت مربحة فلم يكن هناك خيار في الواقع».

ان الاكتساح الذي ووجه به السكان الاصليون في قطر هو اكبر في دبي اذ لا يزيد عدد القطريين على ٢٠ بالمائة من السكان! ويدور في قطر نقاش حقيقي حول الوضع؛ فيؤيد الشيخ عبد الحميد، مسؤول مركز التنمية، المزيد من التنمية قائلاً «علينا ان نطور حقل غازنا غير المرافق خلال الخمس سنوات القادمة لضمان استمرارية صناعتنا، ومن ثم تطوير الحقل الشمالي (وهو حقل غاز ضخم غير مستغل يحتوي على احتياطي يكفي للثلاث مئة سنة القادمة). أننا ندرك بأن هذا سيعني المزيد من الصناعة ولكننا نعتقد بأن علينا ان نقوم بذلك. ونريد مصانع جديدة في أمسيعيد لان المرافق الاساسية موجودة هناك، الأمر الذي يعني القليل من الاضطراب». ويطالب آخرون ببناء مدينة صناعية جديدة في شمال البلاد مسترشدين بالمبدأ القائل «لا تضع جميع بيضاتك في سلة واحدة» ـ انهم يقولون بان قنبلة واحدة في امسيعيد قادرة على تدمير صناعتنا. ومن المتوقع ان نقوم بتطوير احتياطنا من الغاز بمساعدة اليابانيين ولصالح اليابان. اننا ندرك بأن كل هذا يعني المزيد من الصناعات الجديدة والمزيد من العمال، ولكننا حالياً نشغل نحو ٥٠٠٠ عامل في امسيعيد، ان المشكلة الاجتماعية الكبرى هي ليست العمال ولكن احضار الخادمات: ففي مصنع الفولاذ مثلاً يعمل حوالي ١٠٠٠ عامل، في حين يتطلب مثل هذا المصنع ٣٠٠٠ عامل في بريطانيا و١٠,٠٠٠ عامل في الهند».

ولكن الشيخ محمد الخليفة الموظف في وزارة الخارجية، غير واثق من ذلك. قال الشيخ خليفة في مكتبه الكبير الكائن في الطابق الثالث والمطل على الميناء «ان كل مشروع جديد يعني مشاكل جديدة. يجب ان نخفض سرعتنا، ان نتريث ونفكر. وقبل كل شيء يجب ان ننهي مشروع واحداً قبل ان نشرع في بناء مشروع آخر، كي لا نضطر لاحضار المزيد من العمال».

ويمثل هذان المسؤولان القديران للغاية وجهتي نظر النقاش الجاري في انحاء الخليج. ومن الملفت للنظر ان النقاش في قطر يتسم بالصراحة أكثر من أي مكان آخر في الخليج. وربما يعود هذا الى كون قطر قد حققت الازدهار في فترة قصيرة من الزمن بعد ان كانت افقر دول الخليج. ففيها الآن صناعة ثقيلة الى جانب البترول والغاز وهي لا تزال تجذب الاجانب الذين يبحثون عن المال والعمل. ومع ذلك فقطر أكثر بلدان الخليج وعياً بالماضي وبمخاطر الحاضر. فمتحف قطر هو أحسن متحف في الخليج بعد متحف الكويت، وهي الدولة الوحيدة حتى الان التي بنت أكواريوم (حوض مائي مصنوع من الزجاج لحفظ الاسماك الحية) وأصدرت موسوعة شاملة عن أسماك الخليج. كما انها واحدة من بين الاماكن القليلة التي تحافظ على بعض المباني القديمة.

للأجانب ضلع في كل ما يحدث في الخليج، كما كان الحال عبر العصور. فمدير متحف قطر الممتاز هو مصري، وكذلك عميد جامعتها. ويدير أستاذ مصري واخصائي الماني مركز التوثيق والابحاث. وفي كل مكان تجد امريكيين وبريطانيين وغيرهم من الاجانب يعملون في حقول النفط. وفي البحرين يدير الاجانب البنوك التي جعلت منها مركزاً مالياً في وقت بدأ فيه انتاج البترول في الانخفاض. ويشارك الاوروبيون في دبي وفي الامارات الشمالية الاهالي في مشاريع كبرى. وفي انحاء الخليج يعيش ويعمل الآلاف من عمال البناء الكوريين والتايلانديين والصينيين في ظروف صعبة. وهناك ألوف مؤلفة في اوطانهم على استعداد للتسلل الى الخليج او دفع مبالغ كبيرة لضمان عمل ما في الخليج بسبب الفقر الذين يعانون منه في اوطانهم.

لقد اثبتت خبرة الثلاثين سنة الماضية ان العمال الاجانب لم يشكلوا خطراً

على أمن دول الخليج. وان أية متاعب حدثت هناك كانت من فعل دول عربية أخرى او من فعل عناصر محلية ساخطة. فالكويت كانت دائماً تخشى العراق، والان تشكل ايران خطراً أعظم عليها. وشهدت عُمان في الستينات ثورة في ظفار حظيت بتأييد حكومة اليمن الجنوبي. وارتعشت الامارات عندما قامت الجبهة الشعبية لتحرير عُمان بتغيير إسمها عام ١٩٦٨ الى الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل. والأسوأ من هذا، من وجهة نظر الحكام، كان قيام الجبهة الشعبية الديمقراطية المدعومة من قبل المستشارين السوفيات والصينيين وهي الجبهة التي خرجت الى حيز الوجود عندما انشقت جماعة أكثر تطرفاً عن الجبهة الشعبية لتحرير عُمان، وجعلت من شبه جزيرة مسندم التي لا يفصلها عن دولة الامارات سوى الشارقة، ساحة لعملياتها. وشكلت بذلك جبهة ثانية ضد قوات السلطان. لقد كانت هذه حرباً صغيرة وسرية ومميتة في نفس الوقت، خاضها جنود السلطان البالوشيون والضباط ورجال الكوماندوز البريطانيون. وتم القضاء على الثورة في ظفار في نهاية الأمر بعد ان أطاح البريطانيون بالسلطان سعيد بن تيمور واستبدلوه بإبنه قابوس.

يأتي الخطر اليوم من ايران. لقد ارسل آية الله خميني بعض علماء الدين المتطرفين الى الكويت سعياً الى كسب التأييد بين الاقلية الشيعية في هذا البلد. ولكن السلطات طردتهم وقامت بإبعاد بعض الاهالي من الشيعة الذين حاولوا اثارة المشاكل في المساجد. والآن أصبح التهديد الايراني للكويت اكثر وضوحاً والهدف هو ثنيها وثني دول الخليج الاخرى عن تأييد العراق في حربها مع ايران.

ولربما كان التطور الذي عرفته الكويت أسرع من أي مكان آخر على وجه الأرض. لقد كانت الكويت بالامس قرية هادئة تعتمد على بناء السفن والغوص بحثاً عن اللؤلؤ وصيد الأسماك، وأصبحت اليوم دولة حديثة. وتم ذلك في غضون ٣٠ سنة فقط!وكان عدد سكانها في مطلع هذا القرن لا يزيد على ٥٠،٠٠٠ نسمة، يعيش نحو ٣٥،٠٠٠ منهم في مدينة الكويت، أما الباقون فقد كانوا من البدو يجوبون الداخل بقطعان ماشيتهم دون اعارة اي انتباه

للحدود التي كان من المفروض ان تفصل دولتهم عن العراق والسعودية. وفي بداية الحرب العالمية الثانية بلغ تعداد السكان نحو ١٠٠,٠٠٠ نسمة. ومع تطوير صناعة البترول بدأت الهجرة التي أدت الى مضاعفة عدد السكان كل عشر سنوات. ويبلغ عدد سكان الكويت اليوم نحو مليون ونصف المليون نسمة، يشكل الاجانب منهم الاغلبية. ويعيش معظمهم في مدينة الكويت التي اصبحت اليوم مدينة مترامية الاطراف، حيث لا يمكن العثور على آثار الماضي الا بصعوبة بالغة!

والكويت هي أيضاً من أغرب مدن الخليج. ويشعر القادم بالسيارة من المطار بأن شيئاً ما غير صحيح ثم يتضح الأمر فجأة: ان الخطأ يكمن في الفن المعماري وتصميم المدينة. فالبيوت هنا محاطة بحدائق وهذه فكرة غربية تخالف تماماً طراز البيت العربي المحاط بفناء. لقد كانت هذه احدى الافكار السخيفة التي جاء بها اولئك الذين قاموا بدوراً في تخطيط البناء بالكويت حين اصروا على ان لا تحتوي قطع الارض التي وزعت بالمجان على الاهالي على اكثر من بيت واحد للقطعة الواحدة وان يكون البيت محاطاً بحديقة، على النمط الغربي!

وحدثت كوارث معمارية في انحاء اخرى من الخليج، والآن وبعد فوات الأوان بدأت دول الخليج تدرك أهمية الماضي، فاتخذت اجراءات المحافظة على بعض المباني القديمة المتبقية. ففي الدوحة تم تحويل قصر الحاكم القديم الى متحف، كما تم تحويل بيت قديم تقليدي في الوكره الى متحف صغير. وتم في دبي ترميم عدد من البيوت القديمة. وكان توسّع مدينة أبو ظبي حتى أسرع من نمو مدينة الكويت وهناك بناية واحدة فقط تعود الى عهد ما قبل النفط وهي القلعة التي تقع في وسط المدينة والتي كانت مقر الحكومة ومسكن الحاكم في الماضي. وتأوي اليوم مركز التوثيق والابحاث الذي يحتوي على مجموعة رائعة من الوثائق التاريخية والتحف البديعة من أنحاء الخليج ومن دلهي ولندن واسطنبول وأبو ظبي.

يمكن القول بان حكام الخليج عامة يعيرون المستقبل أكثر اهتماماً من الماضي. فالجميع يدركون بأن النفط سينفذ يوماً ما. وهذه هي أقوى حجة لدى

اولئك الذين يحبذون مواصلة التنمية والذين يقولون بأن هناك حاجة لمصانع الفولاذ والالمنيوم لضمان ازدهار المنطقة في المستقبل. ويرد عليهم خصومهم، أي اولئك الذين يخشون ضياع الهوية الوطنية في جميع دول الخليج نتيجة للأعداد الهائلة من الاجانب، بقولهم ان الخليج سيبقى حياً ويشيرون الى الكويت التي فاق دخلها من الاستثمارات الاجنبية دخلها من انتاج البترول. ان المستقبل، في نظرهم، يكمن في المال وليس في الرجال. ويمكن فهم هذا التفكير في البلدان التي أصبح مفهوم الثروة فيها واقعاً للعديد من الناس وهو التفكير الذي أدى الى نمط معيشة وتصوّر للمستقبل يفتقر بوضوح الى أخلاقية العمل. ان دول الخليج تكفل لمواطنيها العيش الكريم مقابل حد أدنى من الجهد!

والعبر التي أصبح معظم العرب يدروكونها على مدى السنين هي ان أي تهديدٍ لمركزهم لا يأتي من الغرب، أو من الشرق الاقصى، ولكن منهم انفسهم. ففي مكان واحد فقط كان للأجانب تأثير على السياسة: في الكويت حيث يكوّن الفلسطينيون مجموعة متماسكة. ولقد مكنهم تعليمهم ومكنتهم مهاراتهم ودرايتهم بأمور العالم من شغل أهم الوظائف في الحكومة. ان الفلسطينيين هم القوة المحركة في الكويت. ولقد اثبتوا بأنهم أهل للثقة التي منحهم اياه حكام الكويت على مر السنين. وهناك اعتبار واحد فقط يضعونه فوق مصلحة الكويت ولا غرابة في ذلك: قضية فلسطين. ويدرك حكام الكويت هذه الحقيقة ولا يعيرون ذلك اهتماماً طالما ركز الفلسطينيون اهتمامهم على السياسة الخارجية فقط. ويدرك الفلسطينيون بدورهم ان اقامتهم في الكويت هي اقامة مؤقتة وان أياً منهم قد يُبعد في لحظة. لذا تجنبوا التدخل في الشؤون الكويتية المحلية.

ان الخطر الحقيقي الذي تم ادراكه بعد فوات الأوان الى حد ما، هو احتمال ان تطغى الثقافات الاجنبية على الثقافة والتراث المحليين. ان عدد العمال الاجانب في مجمع جبل علي يفوق عدد سكان دبي قبل عشر سنوات. وسيستمر هذا الاتجاه في المستقبل لأن معدل النمو السكاني هو حوالي ٢,٥ بالمائة وهذا يعني ان احتمال قيام الأهالي بتوفير الايدي العاملة الكافية لادارة

دولهم هو احتمال ضئيل جداً. زد على ذلك ان نظام الرفاه الشامل وتوفير الوظائف التي لا يقوم اصحابها بأي عمل يتكافأ مع رواتبهم، والطريقة التي تمكن كل شاب من ان يبقى طالباً يحظى بمنحة سخية الى ما شاء هي كلها أمور لا تشجع معظمهم على تولي الوظائف الادارية.

وهناك أيضاً احتقار البدو للأعمال اليدوية والمكتبية. كما انهم يكرهون التقيّد بالمواعيد ويحبون الازياء الموحدة. لذا يعتمد الحكام عليهم في القوات المسلحة والشرطة لقاء مرتبات سخية.

ان معظم الناس في الخليج يحصلون على رواتب سخية. وتسهم المبالغ التي يحوّلها الاجانب الى بلدانهم بدوراً هاماً في اقتصادها، وقد أصبحت جزءاً من السياسات غير المعلنة لعدد من البلدان، حيث تتنافس حكوماتها على توفير الأيدي العاملة الرخيصة لدول الخليج. وهذا هو أحد أسباب الوجوه التي يشاهدها المرء اليوم في الخليج هي من الشرق الاقصى - ان عمال البناء الكوريون يعملون لقاء أجر أقل من أجر الباكستانيين. كذلك تضطلع هذه المبالغ بدور هام في اقتصاد عدد من الدول العربية. وفي عام ١٩٧٩ مثلاً خشيت مصر في أعقاب توقيع اتفاقيات كامب ديفيد ان ينقطع مصدر الدخل هذا نتيجة فرض عقوبات على مصر. الا ان هذا لم يحدث.

ان هذه الامور بالنسبة للمواطن العادي في الخليج هي أمور قليلة الاهمية. فاذا كان رجلاً ثرياً ومتعلماً فإن ما يقلقه هو اختفاء نمط الحياة التقليدي وضياع ثقافته. واذا كان واحداً من اولئك الذي يقومون بوظائف بسيطة فإنه يستاء من الاجانب الذين يقومون بوظائف اعلى ويتلقون رواتب أكثر سخاء من راتبه. ان الخليج لا يزال في طور التغيير وربما سيصبح من الصعب بعد عدة أجيال التفريق بين الاهالي والاجانب. وقد يشعر سكان الخليج على اختلاف أصولهم بعد عدة أجيال بأنهم ينتمون الى الخليج وربما تصبح فكرة العودة الى اوطانهم الاصلية مجرد حنين الى الماضي البعيد.

الجزء السادس

تجار ومغامرون

● جاسم المطوع ● انهيار سوق المناخ ● درويش ● الفردان ● عبد الوهاب الزياني ● يوسف احمد بن كانو ● المؤيد ● حسين يتيم ● الغرير ● القرق

يعتبر الخليج، حيث يفوق معدل الدخل الفردي دخل الفرد في امريكا وفي أي مكان آخر من العالم، واحداً من اكبر الاسواق في العالم. ولم تكن أي من بلدانه في الفترة التي سبقت انهيار أسعار البترول قادرة على انفاق أكثر من ٥٠ بالمائة من دخلها محلياً. وهكذا كانت دول الخليج عبارة عن وعاء من العسل جذب رجال الاعمال من جميع انحاء العالم واصحاب المهن الحرة والحرفيين والتجار الذي يبيعون أية سلعة قد يحتاجها المرء، والمحتالون التواقون الى الاستفادة من أكبر منجم للثراء.

وعلى سبيل المثال، كانت الطوابع البريدية في عصر ما قبل البترول من أهم صادرات دولة الامارات. ولقد تعرف عشرات الآلاف من الناس في جميع انحاء العالم على مشيخات الساحل المتصالح عن طريق الطوابع البريدية التي كانت تصدرها الشارقة وعجمان والفجيرة. ولسوء الحظ أفرطت هذه الدويلات في اصدار طوابع جديدة لا علاقة لها بطبيعتها وتاريخها وثقافتها واغرقت بها السوق، الامر الذي كان له رد فعل سلبي بين هواة جمع الطوابع في جميع انحاء العالم. ومع ذلك فقد عرّفت هذه الطوابع ملايين من الناس على مشيخات الخليج ودرت عليها دخلاً لا بأس به قبل ان يغير النفط كل شيء. ومنذ ذلك الحين اتبعت دولة الامارات سياسة محافظة بالنسبة لاصدار الطوابع الامر الذي رد لها اعتبارها بين هواة جمع الطوابع.

تختلف الامور تماماً الان عما كانت عليه في الايام الاولى لعهد البترول حين كان الشيخ زايد يجلس في غرفة مفتوحة في قلعة ابو ظبي ويعالج كل الامور بنفسه، وحين كان الشيخ راشد يجلس في مبنى الجمارك بجانب الرصيف، وحين كان الشيخ خليفة في الدوحة يشكو من عدم فعالية أخوه ومن تغيّبه عن البلد. واليوم هناك مؤسسات معقدة تقوم بدراسة المناقصات وتعد المواصفات وتقيم المرشحين للوظائف المختلفة. ومع ذلك فهناك رجال اعمال يعتقدون بأن الخليج لا يزال مصدراً للربح السهل. ان العرب يؤمنون بالعلامات التجارية، لذا تعالت الشكاوى عندما تبين بان السلع التي اشتروها كانت رديئة الصنع. ويقدر بأن ٤٠ بالمائة من السلع المعروضة للبيع في الكويت كانت مزيفة! وقامت وزارات التجارة في دول الخليج بالاستيلاء على كميات كبيرة منها. وعلى الرغم من ذلك لا يزال الناس يؤمنون بالعلامات التجارية الاجنبية مع ان الانتاج المحلي يضاهي أحياناً المنتجات الاجنبية في جودتها.

ان ذكريات الايام الاولى لا تزال حية. لقد اصبح رجال الاعمال حذرين، وغير راغبين في ابداء آراءهم، وبطيئون في التوصل الى قرار بالنسبة للمشتريات او العقود. وهم حريصون على مناقشة أدق تفاصيل كل اتفاقية. انهم يتذكرون جيداً الكوارث التي حلت بهم: البنايات التي بدأت تتداعى بسبب استعمال رمل غير مناسب والبنايات التي تهاوت لان المقاولين اقتصدوا في استعمال الاسمنت عند ارساء الاساسات، والماكنات رديئة الصنع التي تفككت بعد بضعت أشهر من الاستعمال. ويقول البناؤون في البحرين انه لمن السهل التعرف على خبير تكنولوجيا الاسمنت: انه يسير في وسط الشارع!! وبكل تأكيد يمكن مشاهدة التصدع في عشرات من البنايات حديثة البناء وتبدو بعض الشرفات في حالة خطرة. ولقد كشفت الابحاث ان احد أسباب هذه المشكلة يكمن في نوعية الحصى المحلية: انها تحتوي على كميات كبيرة من املاح الكبريت والكلوريد التي تؤدي الى صدأ حديد التسليح بسرعة.

ولا شك في ان المقاولين الاجانب اختصروا الامور أحياناً ـ ولا بد ان المهندس المعماري الذي بنا برج بيزا اعتقد بأن احداً لن يلاحظ ان هو قام

بتوفير المال في بناء أساسات البرج! ولم يتوقف الامر عند حد هدم البنايات بعد مرور بضع سنوات على بنائها لاعادة بنائها من جديد، لقد أصبحت مدن الخليج ساحة كبيرة لتجارب مهندسي حركة السير. فعندما وضع اول نظام للسير في الكويت، اقيمت اشارات مرور على كل تقاطع طرق تقريباً، الامر الذي عرقل تدفق حركة السير بلا نهاية. وتبنت ابو ظبي نظام الدوّرات عند نقاط تقاطع الطرق وبني اكثر من ٩٠ منها. ثم تقرر إزالتها جميعاً واستبدالها بإشارات ضوئية بعد ان اتضح بأن نظام الدوّرات يشوش حركة السير.

* * *

يتمتع سكان الخليج بميزة فريدة فتحت لهم باب الربح السهل اذ ينص القانون على المشاركة المحلية في كل مشروع تجاري او على التعامل بواسطة وكلاء محليين. وهكذا يمكن للمواطن الخليجي ان يحصل على دخل لا بأس به من مجرد اعارة اسمه لمشروع تجاري، وبالفعل قام الكثيرون بذلك. ازدادت اهمية الغرف التجارية، وهي عبارة عن مؤسسات شبه رسمية، تصدر شهادات المنشأ وتوفر وثائق التصدير والشهادات الرسمية الاخرى. وتقوم الغرف التجارية في انحاء العالم بهذه المهام، الا ان العضوية في دول الخليج إجبارية وتعتبر ضماناً للاستقامة لأن الغرف تتعاون تعاوناً وثيقاً مع الدوائر الحكومية وكثيراً ما تساهم في صياغة خطط التنمية الصناعية وتنصح بنوعية التدريب المهني الضروري وتشكل لجان تحكيم لتسوية النزاعات المحلية. كما ان العضوية اجبارية في معظم دول الخليج بالنسبة لوكلاء الموردين الاجانب، ويطلب عادة من المقاولين الاجانب ان يسجلوا اسماءهم عندها وكانت البحرين، بتاريخها الطويل كمركز تجاري وبروابطها مع الغرب والشرق الاقصى، اول من أنشأت غرفة تجارية وكان ذلك في عام ١٩٣٩ ومما يدل على مركزها ان الحكومة طلبت منها مراجعة القانون التجاري والمساهمة في إنشاء بورصة البحرين (سوق الاوراق المالية). وتم إنشاء اول غرفة تجارية في الكويت عام ١٩٥٩، اضطلعت بدور كبير في محاولة تسوية الفوضى

التي نجمت عن انهيار سوق المناخ. وفي الامارات انشئت اول غرفة تجارية في دبي، ذلك المركز التجاري العظيم، في عام ١٩٦٥، وتلتها أبو ظبي في العام التالي. والآن توجد غرفة تجارية في كل واحدة من الدويلات السبع، علاوة على الغرفة التجارية الاتحادية.

لقد حدثت قصص ثراء خيالية، خاصة في دول الخليج التي نمت بسرعة نتيجة لاكتشاف البترول. ففي الاماكن العريقة مثل البحرين ودبي، كانت هناك عدة أجيال من رجال الاعمال الناجحين والعائلات التي تدير امبراطوريات تجارية هائلة. فهناك مثلاً عائلة كانو في البحرين التي تدير مؤسسة تجارية ضخمة أسسها يوسف بن أحمد في نهاية القرن الماضي. بدأ يوسف كانو عمله في التجارة عندما بلغ سن الخامسة عشرة وبرأس مال مستدان. وكان يستورد الخشب من الهند وزيت السمك والحبال من افريقيا لبيعها الى اصحاب المراكب. ومكنته صلته بالنواخذة من الاتصال بتجار اللؤلؤ وسرعان ما راح يستثمر أمواله في اكبر واربح تجارة في الخليج آنذاك. وكان نوع من عدم الثقة بالرجال من حوله هو الذي أصبح أساس ثروة كانو: كان يوسف يخشى ان يترك أشياء ثمينة في مكتبه الصغير في السوق في المنامة. فقام بشراء خزنة كبيرة من انجلترا وضعها في غرفة مقواة خصيصاً وراح التجار الآخرون يودعون اموالهم عنده الى ان يحتاجوها. فكان تجار اللؤلؤ يأتون اليه في نهاية موسم الغوص ليودعون أكياساً يحتوي كل منها على ٢٠٠٠ روبية فضية. وفي هذه الاثناء كان يوسف يستثمر هذا المال في تجارته. واليوم يقوم مقر مجموعة كانو المكون من ستة طوابق بموظفيها البالغ عددهم خمسة آلآف وبمكاتبها في أنحاء الخليج وفي لندن وهيوستن، في موقع مكتب يوسف كانو الصغير في السوق. وبحلول عام ١٩٢٠ كان يوسف كانو على وشك ان يصبح مليونيراً وكان يملك سيارة من طراز إسيكس، كانت ثاني سيارة في البحرين: لقد كانت السيارة الاولى ملك أمير البحرين. وعندما ذهب يوسف لاداء فريضة الحج فعل ذلك في السيارة الوحيدة آنذاك في الحجاز: سيارة الرولز رويس التابعة للشريف حسين التي بهرت انظار الحجاج.

ولربما كانت شركة كانو هي اول مؤسسة تجارية خاصة في الخليج توظف

مدراء أجانب ـ وهذا أمر اعتبره يوسف كانو الذكي ضرورياً لمنافسة شركة جري ماكنزي الانجليزية التي كانت تسيطر على نسبة عالية من التجارة في البحرين. وحصل يوسف كانو على وكالة شركة البترول الانجليزية الفارسية ووكالة فرانك ستريك، التاجر ورجل الاعمال الذي كان يتخذ من العراق مقراً له والذي دمج نشاطاته في شركة إلرمان لاينز. ولقد بدا كل شيء في العشرينات يبشر بالخير بالنسبة ليوسف وللبحرين وللخليج. ثم جاءت الكارثة على شكل انهيار في الاقتصاد العالمي عام ١٩٢٩ والاسوأ من ذلك نهاية تجارة اللؤلؤ في الخليج بعد ان اكتشف اليابانيون سر اللؤلؤ الصناعي. ولقد اعتقد التجار وأصحاب مراكب الغوص وحتى الغواصين بأن اللؤلؤ الصناعي هو ظاهرة عابرة وان شيئاً لن يستطيع ان يحل محل اللؤلؤ الحر.

بيد ان هذا ما حدث بالفعل! ان مراكب صيد اللؤلؤ الوحيدة التي تغادر الكويت او البحرين او قطر او الامارات اليوم تخرج لعمل افلام وثائقية عن عصر اللؤلؤ. انه لمن الصعب جداً بيع اللؤلؤ الحر بثمن يغطي تكاليفه الباهظة ـ والان تقوم الشركات اليابانية بزيارة الخليج كل عام لبيع اللؤلؤ الصناعي لأبناء الرجال الذين جنوا ثروتهم من اللؤلؤ الحقيقي. لقد كانت تلك كارثة قضت بين عشية وضحاها تقريباً على مصدر هام للرزق في جميع انحاء الخليج. كما كانت نكسة كبيرة بالنسبة للكويت وقطر والامارات، اما في البحرين فقد خففت عائدات البترول التي بدأت تتسرب من الحكومة الى السكان من وقع الكارثة نوعاً ما.

تضرر يوسف كانو كغيره من الناس كثيراً من هذه الكارثة. وقال أحمد، كبير العائلة الان، متذكراً تلك الايام العصيبة «لقد استلف تجار كثيرون المال منا بعد ان وعدوا بتسديد ما عليهم من دين عندما يتحسن سعر اللؤلؤ. ولكن السوق استمر في التدهور. وهكذا ورثنا لؤلؤاً لم نستطع بيعه وخسرنا مالنا. وتعيّن علينا الاستلاف من البنوك الجديدة وبيع الكثير من عقاراتنا». ولم يتمكن آل كانو من التغلب على المحن التي حلت بهم إلا في الخمسينات وبدأوا يتوسعون في الحال. فقبل الحرب العالمية الثانية كانت وكالة شركة البترول الانجليزية الفارسية هي المصدر الوحيد للدخل، اذ كانت مؤسسة كانو تزوّد

المـراكب الطائـرة التابعة لامبريال ايرْويز وطائرات سلاح الجو البريطاني بالوقود. وتسبب بناء مصافة بابكو في المزيد من أشغال السفن وهكذا بدأت مرحلة النمو الثانية لمؤسسة كانو. وبما انه لم يكن ليوسف ابناء فلقد انتقلت المؤسسة الى ابناء جاسم وعلي، ابني محمد، شقيق يوسف الذي توفي من مرض الطاعون والذي كان قد انضم اليه في المؤسسة. كان لأحمد كانو سبعة اخوة وابناء عم. وقال متذكراً «لقد ترعرعنا نحن الاولاد سوية. وعندما كنا صغاراً كنا نعتقد بأن يوسف هو جدنا. لقد كان حازماً معنا ولكن ذلك كان مفيداً. وجعلنا نبدأ من القاعدة». عمل احمد نفسه في بيع البنزين وتعلم كيف يزود المـراكب الطائـرة بالوقـود في الميـنـاء وكيف يزود طائرات سلاح الجو البـريطاني في المحرق بالوقود ايضاً. وانضم اليه اخوه عبد الله وابن عمه مبـارك عنـدما انتقلت اليه مسؤولية ادارة المؤسسة. وانتقل عبد الله الى المملكة العربية السعودية حيث قام بإنشاء اكثر من ٤ مشروعاً مشتركاً مع ابن عمه عبد العزيز. وحصل الاثنان على الجنسية السعودية. واصبح مبارك كانو هو رئيس مجلس ادارة المجموعة حالياً.

لا تزال مؤسسة يوسف بن احمد كانو شركة عائلية ويبدو انها ستبقى دائماً كذلك ـ ولقد حدد طابعها يوسف في سند لورثته. وينص السند على ان ينال جميع اطفال العائلة تعليماً مناسباً وان لا يسمح لأي منهم بأن يصبح فقيراً. ونقل السند حصصاً متساوية في الشركة الى ابناء جاسم الثلاثة وابناء علي الخمسة. ان علي وجاسم هما الرجلان اللذان أسسا الشركة مع يوسف واللذان قامـا بتسليمها الى أحمد عام ١٩٥٤. ولم يترك الشركة سوى ولد واحد، باع حصته الى الاولاد السبعة الباقين بالتساوي. والشيء الوحيد الذي يلحـظه الغريب هو ان النشء الجديد من المدراء تلقى تعليمه في جامعات امريكية معروفة بدلاً من بيروت. وبإستثناء ذلك فهم جميعاً يبدأون عملهم في الشركة من القاعدة تماماً كما فعل يوسف.

ويمثل آل كانو تجار الخليج التقليديون، أي الذين بدأوا حياتهم العملية في صنـاعـة اللؤلؤ وأسسوا امبراطوريات تجارية بالعمل الشاق والمثابرة.

وهناك الكثير من هذا النوع ولكن آل كانو أكبرهم. فالمؤيد هي مؤسسة شبيهة في البحرين يتركز نشاطها في حقل البناء والانشاءات ويعود الفضل في ثروتها الى نزاهة مؤسسها. ويقال ان يوسف المؤيد، عم احد وزراء البحرين الحاليين، بدأ حياته العملية ببيع السلع المختلفة لقاعدة سلاح الجو البريطاني التي انشئت في البحرين. وذات مرة دفع له المأمور البريطاني ثمن بضاعة واحدة مرتين. وفي الحال اعاد يوسف الشيك الثاني. ودهش الضباط البريطانيون من هذه النزاهة وسرعان ما ذاع نبأ أمانة يوسف بين الجالية الاجنبية التي اقدمت على التعامل معه، فازدهرت تجارته!

ويمثل عبد الوهاب كلداري صنفاً آخر من التجار. لقد جمع عبد الوهاب في دبي ثروة كبيرة وله ضلع في مشاريع عديدة. الا انه اشتهر في الغرب بمحاولته شراء مجموعة رائعة من المجوهرات الهندية، الا ان الحكومة الهندية كانت تعتبر تلك المجموعة جزءاً من التراث الوطني، فحالت دون ذلك. ثم حول عبد الوهاب انظاره الى كازينو كروكفورد في لندن، ويقال انه فعل ذلك لان الكثير من اثرياء المنطقة كانو يخسرون مبالغ هائلة فيه. ولكن مجلس القمار في بريطانيا اصدر حكماً منع الاجانب من امتلاك الكازينوهات البريطانية.

بدأ عبد الوهاب كلداري، الايراني الأصل، حياته العملية بتصدير السلع المختلفة للهند وايران وباكستان وخاصة الذهب والفضة. ولقد أرست هذه التجارة أسس مجمع كلداري العظيم في دبي ومكنته من المساهمة في شراء عدد من البنايات الهامة في لندن. وكان بين مشاريعه الهامة في المدة الاخيرة انشاء بنك الاتحاد للشرق الاوسط وتبلغ مساهمته في أسهمه نسبة ٤٦ بالمائة. وسرعان ما أصبح هذا البنك الثالث من حيث الحجم بين بنوك دولة الامارات العربية المتحدة. وفي عام ١٩٨٣ استقال كلداري من منصب رئيس مجلس ادارة البنك واستقال معه جميع اعضاء المجلس وتعيّن على الحكومة في ابو ظبي ان تقوم بتعيين لجنة لادارة البنك لضمان مستقبله. وتطلب الامر دعم البنك بأكثر من ١٠٠ مليون دولار. ويبدو ان البنك واجه أزمة مالية بسبب الركود الاقتصادي الذي تلى انهار أسعار البترول وصادف هذا اصدار

الحكومة تعليمات تحد من حجم الاعتمادات التي تقدمها البنوك لأعضاء مجالس اداراتها. وقال عبد الوهاب برباطة جأش «لقد بدأت من لا شيء وباستطاعتي أن ابدأ من جديد».

حسين اليتيم هو تاجر بحريني آخر، كان له الفضل في تأسيس شركة طيران الخليج. ان طائرات ترايْستار التي تستخدمها اليوم تختلف كل الاختلاف عن طائراتها الاولى من نوع آنْسون مارك وَن التي كان فريدي بوسويرث، الطيار السابق في سلاح الجو البريطاني في العراق قد اشتراها هناك وطار بها الى البحرين. لقد كان يأمل في ان يجمع ثروة من نقل قطع الغيار الى أبراج الحفر في المناطق النائية من السعودية، وبدلاً من ذلك وجد نفسه مضطراً الى الهبوط بطائرته في حلبة السباق في البحرين بسبب خلل في المحرك! ولم يكن معه الا بضع جنيهات. وبطريقة ما التقى بوسويرث بحسين اليتيم. قال حسين اليتيم متذكراً: «اني لم اكن اعرفه ولكني ادركت المأزق الذي كان فيه وشعرت بصدقه. فاقرضته ٢٠٠٠ روبية. وذهب بوسْويرث الى الظهران لشراء قطع غيار من شركة النفط هناك والتي كانت تشغل طائرات خاصة بها. وعاد الى البحرين حيث قام بترميم طائرته. وبما انه لم يجد عملاً في نقل قطع الغيار الى حقول النفط شرع في تنظيم رحلات استطلاعية حول البحرين لقاء ١٠ روبيات للجولة. ولقد أقدم الناس بحماس على هذه الرحلات الأمر الذي جعله يفكر في انشاء شركة طيران محلية. ففاتح حسين اليتيم في الموضوع. وقام الاخير بتقديمه الى تشارلز بلغريف، المستشار البريطاني للحاكم في الجزيرة، الذي أبدى موافقته على المشروع.

وقام حسين اليتيم بتوفير المال اللازم وهكذا تأسست شركة طيران الخليج المحدودة عام ١٩٥٠. وبعد ذلك بأربع سنوات تم انشاء شركة الخطوط الجوية الكويتية التي بدأت بطائرتين من نوع دي سي ٣ كانت تقوم برحلات منتظمة بين الكويت والبصرة، الأمر الذي يدل على مكمن مصالح الكويت حينذاك.

وفي غضون بضعة اشهر حققت طيران الخليج نجاحاً كبيراً لدرجة انه تعيّن على بوسْويرث الذهاب الى لندن لشراء طائرة اخرى، كانت من نوع دوف هذه

المـرة. وبينمـا هو يقـوم بفحص الطائرة تحطمت ولقي بوسْويرث مصرعه! وبوفاته فقدت الشركة دعامتها المركزية وبات المدراء في البحرين في حيرة من أمرهم اذ لم تكن عندهم أية فكرة عن ادارة شركة للطيران. ولحسن الحظ كانت أرملة بوسْويرث راغبة في بيع أسهم زوجها في الشركة وبهذه الاسهم توصل حسين الى اتفاق مع شركة الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار، تولت بمـوجبـه مسـؤولية تشغيل طيران الخليج. وفي البداية عملت طيران الخليـج على خط البحرين ـ الظهران ـ الدوحة ـ الشارقة ولكن في غضون عامين تم شراء ٤ طائرات من طراز دي هافيلاند و٤ طائرات من نوع دي سي ٣ وتم تمديد الخطوط عبر الخليج، من الكويت حتى مسقط. وكانت الرحلة الى مسقط مفزعة للغاية بالنسبة للمسافرين حديثي السفر لان الدنو من مطار بيت الفلج كان بمحـاذاة واد ضيق فكان المسافرون المذعورون يشاهدون المنحدرات الصخرية على جانبي الطائرة، التي كان يتعين عليها ان تنعطف فجأة لكي تهبط على المدرج!

وفي عام ١٩٧٤ أصبحت طيران الخليـج شركة الطيران الوطنية لكل من البحرين والامارات وقطر وعُمان، تحمل أعلام الدول الأربع، شعارها صقر ذهبي. واليوم حلت طائرات ترايستار وبوينغ الحديثة محل الطائرات القديمة ويعمل في الشركة نحو ٤٢٠٠ موظف، من بينهم عدد من القباطنة الخليجيين. وتم انشاء كلية طيران مدني في الدوحة وهناك قسم للطائرات الخفيفة وطائرات الهليكـوبتـر. وبلغت أربـاح طيران الخليج عام ١٩٨٠ ثلاثة ملايين دينار بحـريني، وزعت نسبـة ١٠ بالمائة منها على العاملين في الشركة على شكل مكافآت. ان الربح لا يأت من تشغيل الرحلات الخليجية وإنما من الرحلات الى اوروبا والشرق الاقصى والهند. ومن الجدير بالذكر ان طيران الخليج هي التي نقلت السلطان قابوس الى عُمان عشية توليه الحكم من أبيه.

تعتبر عائلة الغرير في دبي من أكبر المجموعات التجارية في دبي، ويحتل بنك عُمان مركز الصدارة في امبراطوريتها. وتعطي عائلة الغرير أحسن مثال على الانتقال المباشر من تجارة اللؤلؤ الى مجال الاعمال: لقد بدأ كبير العائلة الحالي، سيف الغرير، حياته العملية كغواص يبحث عن اللؤلؤ، ويتعين عليه

اليوم ان يلبس نظارات سوداء دائماً بسبب جرح أصابه أثناء عملية غوص.
وفي مطلع الخمسينات قام احمد ماجد الغرير بفتح دكان صغير في سوق دبي.
ولقد كان الوقت موات لان دبي بدأت تزدهر كمركز تجاري بقيادة الشيخ راشد، أكثر حكام الخليج تفهماً للتجارة والاعمال. وسرعان ما اصبحت العائلة تملك عدداً من المحلات، ثم اسطولاً من المراكب والسفن تعمل في التجارة بين الخليج وشرق افريقيا، تنقل التمور وتجلب الاخشاب الضرورية للمشاريع الانشائية. ولقد احتفظ سيف الغرير، الذي يشغل منصب رئيس الغرفة التجارية في دبي مدى الحياة، اعترافاً له بالخدمات التي قدمها للصالح العام والذي يشغل منصب المستشار للشيخ زايد ايضاً، احتفظ بالصلات مع افريقيا بفتح فرع لبنك عُمان في نايروبي، وكان بذلك اول بنك في الخليج يقوم بفتح فرع في وسط افريقيا. ومن الجدير بالذكر انه ليست للبنك فروع في عُمان. ان أصل الأسم يعود الى تلك الايام عندما كانت الامارات تعرف بإسم ساحل عُمان المتصالح.

ومن قصص النجاح الاخرى قصة عيسى صالح القرق صاحب مؤسسة تجارية تمثل العديد من الشركات أبرزها سيمنس وباركر نول وأوسْرام ودنلوب. ان قصة القرق هي مجرد قصة عمل شاق ـ وأم وقفت دائماً بجانب التقدم وعملت على اقناع زوجها بان يدع ابناءه يستغلون الفرص كلما لاحت لهم. ولم تكن هناك الكثير من الفرص في الاربعينات من هذه القرن عندما كان عيسى صغيراً. قال عيسى: «كنا نعتقد بان الخليج هو نهاية العالم». وكانت عائلة القرق قد جاءت أصلا من لنجه على الساحل الفارسي للخليج ولذا كانت تجيد اللغتين العربية والفارسية. ثم تعرف عيسى على طبيب هندي يعمل في دبي علمه اللغة الانجليزية رغم معارضة والده. وفي عام ١٩٤٣ تم تأسيس أول مكتب بريد في دبي. فأرسله الطبيب للعمل هناك مساعداً لمدير المكتب الهندي شير محمد. وكان عيسى يقوم فعلاً بإدارة المكتب بينما كان شير يقضي الوقت في قراءة القرآن الكريم. وعندما جاء مفتش البريد في زيارة تفقدية أعجب بعمل عيسى وقرر ترقيته بإرساله الى البحرين.

الا ان والد عيسى عارض هذه الفكرة. ولكنه في النهاية ذهب الى البحرين

بتـأييد من والدته. وعمل عيسى في البحرين لمدة عامين ونصف. وذات يوم وبينمـا هو جالس يفكـر في العـودة الى دبي، دخل عليه رجل وسأله باللغة الفارسية عن سبب كآبته. واتضح بان هذا الرجل كان موظفاً في بنك ايران الامبراطوري الذي كان يوشك على فتح فرع في دبي. وضمن هذا الرجل لعيسى وظيفة في الفرع الجديد. وهكذا عاد عيسى الى دبي مرتدياً ملابس اوروبية. فعانقه والده بحرارة ثم وبخه على ارتدائه تلك الملابس الخليعة!

أصبح بنك ايران الامبراطوري في نهاية المطاف البنك البريطاني للشرق الاوسط، وكان يعمل في فرع دبي سبعة اشخاص فقط، بمن فيهم الحارس. وقام عيسى بمختلف الوظائف في الفرع، ورافق الشيخ راشد في ما بعد في زيارة الى لندن كمترجم بسبب مقدرته اللغوية. وعندما بدأ عصر البترول في دبي، أدرك عيسى الفـرص التي أصبحت متوفرة واستقال من عمله في البنك. ثم حصل على بعض الوكالات التي هي اساس كل عمل تجاري في الخليج. وتمنح الوكالات في الخليج عادة لشركة منفردة وهذا يعني انها تحتكر توزيع منتجات الشركات التي تمثلها في منطقة معينة. لذا كان من السهل جداً جمع ثروات كبيرة من تمثيل شركات عالمية معروفة. ولا يزال الخليج حتى اليوم أحسن سوق في العالم للكماليات كسيارات رولز رويس او سيارات لاغوندا. فمن بين ١٨٢ سيارة رولز رويس تم ارسالها الى الشرق الاوسط عام ١٩٨٢، ذهبت ٧٥ سيارة منها الى الكويت وحدها!

وربما لا تعتبر مجموعة شركات القرق اليوم أكبر مجموعة في الامارات، ولكن مؤسسهـا ورئيسها عمل بكد كأي شخص آخر وأصبح اليوم يتمتع بمركز رفيع بفضل جهده الشخصي. ولديه اليوم متسع من الوقت للتأمل، اذ قال «ان البترول يجلب الثروة للأمة ولكن التجارة تأخذها حتى القاعدة، الى الانسان العادي».

وثمة طريق آخر للنجاح هو ذلك الذي سلكه عبد الوهاب الزياني، أبرز تجار اللؤلؤ في البحرين. ولقد شارك عبد الوهاب الزياني في الاحتجاجات التي تعالت على النفوذ البريطاني الكبير في الجزيرة، وكان هناك حديث عن تنظيم مقاطعة للشركات التي تتعامل مع لندن. فإعتقلته البريطانيون واتهموه

بالتآمر، واصبح الشخصية الرئيسية في سلسلة من المحاكمات في البحرين ولندن والهند (حيث دافع عنه محمد علي جناح، مؤسس الباكستان). ولكن المحكمة برأته وعاد الى البحرين بطلاً. ولكن اتعاب المحامي كادت ان تدمره. ويقول خالد الزياني، حفيد ابن عبد الوهاب، لقد باتت العائلة فقيرة لدرجة انها كانت تشعر بالجوع عندما كان يحل عليها عدد قليل من الضيوف. ولكن الهزيمة سرعان ما تحولت الى نجاح وها هي اليوم شركة عبد الرحمن عبد الوهاب الزياني واحدة من أنجح الشركات في البحرين وتمتد نشاطاتها الى معظم أوجه النشاط في الجزيرة.

عاش احمد الزياني، وهو احد ابناء عبد الوهاب، في الهند واقام هناك صلات وثيقة مع التجار. وكان له شرف تقديم سيف مطعم باللآلىء الى زعيم الهند نهرو كرمز للصداقة بين البحرين والهند. ووقع عليه الاختيار للعثور على حلقين من اجود اللآلىء بمناسبة تتويج الملكة اليزابيت على عرش بريطانيا عام ١٩٥٣. وعندما طُلب منه القيام بنفس المهمة لصالح الاميرة آن حين التقى بالملكة اليزابيث عام ١٩٧٩، قال بحزم لم يعد هناك المزيد منها! ومن الواضح ان آل زياني كانوا دائما يتمتعون بإستقلالية الفكر وبالحكمة وبالهمة: لقد كان الزياني اول صائغ في سوق بغداد القديم كما أن واحدا من آل زياني شريك في بنك عربي للاستثمار في الولايات المتحدة له مقعد في سوق نيويورك للاوراق المالية!

ان للرجل العادي في الخليج ثروة معتبرة، خاصة في الكويت ودولة الامارات من حيث معدل الدخل لكل فرد من المواطنين. ونتيجة للمبالغ الضخمة المتوفرة في جيوب المواطنين ظهرت بنوك عديدة وبسرعة بالغة في أماكن لم يكن لها وجود فيها من قبل وقامت المؤسسات المالية العالمية بفتح فروع لها في المنطقة لتداول البلايين من دولارات النفط المتراكمة. وتعتبر الكويت والبحرين اليوم المركزين الماليين للخليج، يتعاونان ويتنافسان مع اعظم المراكز المالية في العالم: لندن ونيويورك وهونغ كونغ وطوكيو.

كانت الكويت اول من ادرك قوة المال المتدفق عليها والفرص التي وفرها

من اجل اتخاذ اجراءات وقائية احترازا من ذلك اليوم المشؤوم عندما سينفذ النفط. لقد اصبحت الكويت مركزا ماليا لأنها كانت اول من عرفت الاثر الهائل لطفرة النفط، اذ كانت هناك حاجة لعمل شيء ما بكل ذلك المال المتدفق بعد ان تمت تلبية الاحتياجات المحلية من المدارس والبيوت والجامعات والمرافق العامة والمستشفيات الخاصة واماكن العمل، الخ. فأنشأت الحكومة صندوق التنمية الكويتي لتمويل المشاريع الانمائية في مختلف انحاء الوطن العربي على شكل هبات او قروض بفائدة منخفضة جدا. ولقد كان المال الذي قدمته الكويت هو الذي مكن الشيخ راشد من اعطاء نفس جديد لخور دبي بتنظيفه من الوحل عام ١٩٥٨. وبخلاف المؤسسات الشبيهة في اماكن اخرى، يدير صندوق التنمية الكويتي رجال محترفون يعتمدون على الخبراء في تقديم الارشادات والنصح بالنسبة للمشاريع المختلفة.

فكانت النتيجة ان الدول العربية الاخرى لم تستفد من المعونة المالية الكويتية فحسب، بل ان الخبرة الفنية التي وفرتها الكويت حالت دون انفاق المال على افكار طائشة او على مشاريع غير سليمة. وثمة نتيجة اخرى كانت قيام الكويت باستثمارات حكيمة في مشاريع صناعية وتجارية في الخارج، فاق مردودها دخل الدولة من النفط!

كانت الكويت اول دولة في الخليج تملك قطاعها النفطي مائة بالمائة، وبنفس الطريقة احتفظت لنفسها بالتحكم في عائدات نفطها. فتقوم المؤسسات المالية الكويتية بالتصرف في اكثر من ٥٠ بالمائة من عائدات الكويت النفطية، ونذكر منها على الاخص شركة الكويت للاستثمار والشركة الكويتية للتجارة الاجنبية والمقاولات والاستثمار والشركة الدولية الكويتية للاستثمار. ولقد تم تأسيس الاولى عام ١٩٦٢ والثانية عام ١٩٦٤ والثالثة عام ١٩٧٣. وتتبع هذه الشركات العملاقة سياسات مالية تتسم بالاقدام في الاسواق المالية العالمية، مكنتها من تخفيض اسعار الفائدة في السوق المحلية، وبالتالي ضمنت لنفسها مكانة مرموقة في السوق. وفي الوقت ذاته، عانت البنوك الكويتية من ازمة سيولة دائمة لأن الحكومة حددت اسعار فائدة منخفضة لاعتبارات دينية ومن اجل تشجيع المشاريع المحلية. ولكن هذا ادى

الى نزوح مستمر لرأس المال عن الكويت بحثا عن مردود افضل، الامر الذي تطلب تدخل الحكومة عدة مرات. ومن الجدير بالذكر ان الكويت كانت اكثر سخاء من كثير من الدول في تقديم المعونة المالية لبلدان العالم الثالث.

اما في البحرين فقد كان انشاء الوحدات المصرفية الخارجية (off- shore banking units) هو الذي اعطى دفعا لتحوّل الجزيرة الى مركز مالي. ولقد تم اتخاذ القرار بالنسبة لهذه الخطوة في عام ١٩٧٥ وكانت نتيجة لسياسات متعمدة وليس استجابة للضغوط. وكان احد العوامل التي ساعدت في ذلك هو موقع البحرين الجغرافي في منتصف الطريق بين الاسواق المالية في اوروبا وفي الشرق الاقصى، الأمر الذي منحها «موقع وقت». اي ان الوقت فيها متقدم بضع ساعات عن الوقت في لندن ومتأخر بضع ساعات عن الوقت في سنغافوره، مما يمكنها من توفير سوق عندما تكون الاسواق الاخرى مغلقة. قال مصرفي عربي «اذا كان لبنك ما وحدة مصرفية خارجية في الشرق الاقصى واخرى في البحرين علاوة على عملياته في لندن ونيويورك، يمكنه ان يكون مفتوحا لعمليات السوق المالية ٢٤ ساعة في اليوم». ولقد اكد قيمة هذا النظام ازدهار الوحدات المصرفية الخارجية في البحرين التي ما كانت لتنجح لولا شبكة الاتصالات الممتازة التي تتمتع بها الجزيرة، بالاضافة الى موقعها الجغرافي. وعندما انطلقت هذه الخطة كانت هناك ١٨ وحدة مصرفية خارجية وبحلول عام ١٩٨٣ ارتفع عددها الى ٦٥ وحدة. وكان طُعم دولارات البترول هو الذي دفع البنوك الاجنبية لفتح وحدات مصرفية في البحرين. الا انه ثبت بأن هذه الوحدات كانت بمثابة نعمة للأسواق المحلية بسبب ساعات عملها والوظائف وفرص التدريب التي وفرتها، علاوة على مساهمتها النافعة في اقتصاد البحرين على شكل رسم سنوي بقيمة ١٠،٠٠٠ دينار بحريني ومصاريف المعيشة والسكن وفرص العمالة الثانوية التي توفرها.

وبكل تأكيد وجد المجتمع المصرفي الدولي البحرين مفيدة. ففي نهاية السنة الاولى لعمل الخطة بلغت أصول البنوك الممثلة هناك ١،٧ بليون دولار، ارتفعت الى ٥٥،٨ بليون دولار عام ١٩٨٣ ـ ولقد كانت تلك سنة سيئة! وكانت معظم الودائع من البلدان التي جاءت لتخدمها، ألا وهي البلدان المصدرة

للبترول في المنطقة، والتي ساهمت بنسبة ٦٦ بالمائة من هذه الاموال. وحدثت زيادة كبيرة في اعقاب تأسيس المؤسسة العربية المصرفية التي تملكها كل من الكويت وليبيا وأبو ظبي، وبنك الخليج الدولي الذي انشأته البحرين والعراق والكويت وعُمان وقطر والسعودية ودولة الامارات. ولا تقتصر البنوك التي تأسست في البحرين على بنوك اميركا واوروبا العملاقة، علما بأنها جميعا موجودة هنا، فهناك ايضا تشكيلة من البنوك غير المشهورة مثل بانكو دي برازيل وبوميبوترا ماليزا وكوريا إكستشنج بانك. وهناك مكاتب تمثيلية في البحرين لنحو اربعين بنكا اجنبيا آخر. ويقول المصرفيون ان الكثير من هذه البنوك على استعداد للتحول الى وحدات مصرفية خارجية اذا ما قررت البحرين منح المزيد من الرخص لهذه الغاية.

وهناك سحابة واحدة في افق البحرين: موقف السعودية. ان الحكومة السعودية تؤمن بأن سوق التعامل بالريال السعودي بين البنوك يجب ان يكون في السعودية بدلا من البحرين، وان البنوك داخل المملكة وليست البنوك في البحرين هي التي يجب ان تحظى بتشجيع مؤسسة النقد العربي السعودي. وينم الموقف السعودي عن نزعة حمائية عامة في الخليج كانت وليدة الركود الاقتصادي الذي عرفته المنطقة في الثمانينات، فكل دولة تفعل ما بوسعها لتشجيع مواطنيها والاقتصاد المحلي ولاعاقة الاجانب. وهكذا فان الكويت لا تسمح بوجود قاعدة للبنوك الاجنبية فيها، في حين قام البنك المركزي في دولة الامارات بتحديد عدد فروع البنوك الاجنبية في كل الامارات السبع بثمانية فروع. كما ان البحرين لا تسمح للبنوك الاجنبية بمزاولة نشاطاتها في السوق المحلية ولا تعطي الآن رخصا لوحدات مصرفية خارجية جديدة الا في ظروف استثنائية. واذا رغبت البنوك الاجنبية في العمل في قطر فيمكنها القيام بذلك شريطة ان لا تزيد حصتها على ٤٩ بالمائة من اسهم اي بنك يتم تأسيسه هناك. وهناك عشرة بنوك اجنبية في قطر وكما يقول الخبير المحلي حسين الفردان فانها تحقق ربحا كبيرا. لقد جمع حسين الفردان نفسه ثروته كصائغ، ثم تحول الى الصرافة فبنى تجارة مربحة جدا من توفير حوالات للعمال الاجانب الذين ارادوا ارسال المال الى عائلاتهم في الهند

وبـاكستان. وقال حسين الفردان، الذي يشغل الآن منصب مدير بنك قطر التجاري، ان مؤسسة النقد القطرية قررت بان لا تسمح لبنوك اجنبية جديدة بالانضمام الى العشرة الموجودة هناك، وقررت ان تشجع المؤسسات المحلية. وقد يؤدي الى مشاركة محلية في البنوك الاجنبية. وكما هو الحال في الواقع، فإن البنكـين الجديدين اللذين أجيزا في قطر يدلان على سياسة الحكومة: احدهما بنك خاص والآخر بنك اسلامي. وفي الواقع، لا يوجد هناك حافز كبير لتشجيـع البنوك الاجنبية على الذهاب الى قطر نظرا الى ان الحكومة ابقت نسبة الفائدة على الودائع والقروض (٧،٥٠ بالمائة و٩،٥٠ بالمائة على التوالي) لسنـين عديـدة لاسبـاب دينية ولمساعدة الاقتصاد المحلي. فكانت النتيجة الحتميـة انه عندما بدأت اسعار الفائدة في الخارج ترتفع، قام القطريون بعيدو النظر بتحويل اموالهم الى الخارج. وكما حدث في الكويت، ظهرت هناك ازمة سيولة مفاجئة دامت طويلا. ولم يساعد على تحسين الوضع قرار وزارة المالية رفض اقتراح تقدمت به مؤسسة النقد برفع مستوى الفائدة بنسبة ٢ بالمائة بحجة ان هذه الخطوة قد تلحق الضرر بالصناعة المحلية وبالتجارة. ولقد خلف انهيار مؤسستين ماليتين في قطر ديونا للزبائن واصحاب الودائع وحملة الاسهم وللبنـوك الاجنبيـة قدرت بمـلايين الدولارات، ولم يثر هذا الانهيار مثل تلك الضجة التي اثارها انهيار سوق المناخ في الكويت.

لقد كانت التجارة في قطر في الماضي تعني شيئا واحدا: التعامل مع عائلة درويش. إن يوسف درويش لا يزال تاجرا كبيرا ولكن المناعي اصبح اليوم اكبر، له مكاتب في لندن وهيوستن. بدأ احمد المناعي قبل عشرين سنة فقط كتاجر قطع غيار سيارات وهو اليوم مليونير كبير. وثمة رجل اعمال كبيرا آخر في الدوحة وجد نفسه امام صعوبات مالية بعد ان قام بإستلاف مبالغ كبيرة من مجموعة من البنوك الفرنسية لتمويل مشاريع انمائية. فهددته المجموعة برفـع دعوى عليه. فرد عليها الرجل بهدوء بأنه يرحب بهذه الفرصة التي ستمكنه من فضح اساليب عملها والرشاوى التي دفعتها. ولم يسمع بعدها اي شيء عن الدعوى. وفي هذه الحالة، رفض الأمير مساعدة رجل الاعمال المعني الذي كان قريب الحاكم المخلوع. وعلى وجه العموم، يمكن لجميع آل

ثاني ان يعتمدوا على كرم الأمير. وهناك رجل من افراد العائلة يطلب بصورة منتظمة من الفنادق التي يقيم فيها حول العالم بإرسال فواتيره الكبيرة الى الأمير بعد ان يقوم بتوقيعها. ويقوم الأمير فعلا بدفعها!

ان اكثر ظاهرة ملفتة للنظر بالنسبة للعين الغربية في مجال العمل المصرفي في الخليج كانت نمو المؤسسات التي كرست نفسها للمفهوم المالي الاسلامي. ويعني هذا اساسا تجنب اي شيء يوحي بالربا في المعاملات ـ وبعبارة اخرى عدم فرض اي رسوم على المبالغ المستلفة او المسلفة، الامر الذي يبدو معارضا للفكرة الاساسية للعمل المصرفي. قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس اموالكم، لا تَظلمون ولا تُظلمون صدق الله العظيم». ولقد إستُشهد بهذه الآية الكريمة في اعلانات دار المال الاسلامي التي اسسها صاحب السمو الملكي الامير محمد الفيصل آل سعود.
يقول كتيب دار المال الاسلامي انها تأسست للتغلب على محنة الربا. ان الفائدة هي ربا ويجب ان لا يسمح المؤمن لرأس ماله ان يجني فائدة. وتؤمن دار ومصرف فيصل الاسلامي التابع لها في البحرين وبيت التمويل الكويتي وغيرها من المؤسسات ان المفهوم الاسلامي للاعمال المصرفية هو عملي وانه قادر على توفير خدمة ضرورية للمجتمع بالاستفادة من موارد كانت ستبقى غير مستثمرة.

ومع ذلك اتخذت الحكومة موقفاحذرا من هذه المؤسسات. ففي السعودية مثلا لم تسمح الحكومة الا لدار المال الاسلامي وشركات الائتمان التابعة لها بممارسة نشاطاتها في المملكة. وقال احمد حسن رضوان، المدير العام المصري لدار المال انه اذا كان هناك بديل للتعامل بالربا فان المؤمنين سيؤيدونه. ان عامل الربح موجود بكل تأكيد ولكن الفكرة الاساسية للمفهوم الاسلامي تقضي ايضا بالمشاركة في المجازفة. وهكذا اذا استلف تاجر مبلغا من المال لمشروع وخسر فيحق لرب المال فقط ان يسترد رأس ماله. واذا حقق المشروع ربحا فيحق لرب المال ان يحصل على حصة من ذلك الربح.

يوجد الآن نحو ٢٠ مصرفا اسلاميا في الكويت والبحرين والامارات والدول العربية الاخرى، بما في ذلك بنك التنمية الاسلامي في جدة الذي يقوم بتوفير المساعدات المالية للدول الاسلامية. ويقوم بيت التمويل الكويتي ايضا بإختيار المشاريع التي يدعمها بحذر بهدف تشجيع المبادىء الاسلامية في التعامل وتطبيق الشريعة. وهكذا يدير البنك صندوقا للزكاة وأحدث خدمات تأمين فريدة تتماشى مع المفاهيم الاسلامية وقام ببناء مساكن منخفضة التكاليف لصالح العمال الاجانب. ومن الجدير بالذكر ان الحكومة الكويتية تتخذ موقفا أكثر ايجابية من المؤسسات المالية الاسلامية من حكومة السعودية، اذ ان وزارة المالية الكويتية ووزارة الاوقاف هما مساهمتان كبيرتان في رأس مال بيت التمويل الكويتي.

وثمة ظاهرة عربية فريدة اخرى هي تطور البنوك المخصصة للنساء. وكان اولها فرع افتتحه بنك الخليج التجاري في ابو ظبي، لخدمة النساء، ولا يسمح للرجال بالقيام إلا بالأعمال الوضيعة مثل التنظيف واعمال الترميم. ولقد ظهرت فروع مماثلة في انحاء الامارات. وعلاوة على الحاجة الاجتماعية التي تسدها هذه البنوك، فانها تتيح الاستفادة من الثروة الهائلة التي تملكها النساء في الخليج. فالعائلات تمنح بناتها بيوتا وسلعا ومالا واراضي. وكثيرا ما تسلمت النساء تعويضات سخية لقاء اراضي اخذتها الحكومات.

فكانت النتيجة ان هناك عدد كبير من النساء الثريات في الخليج. لقد كانت هذه البنوك بالنسبة للنساء منة من الله: انهن يستعملن هذه البنوك ليس فقط كمؤسسات مالية، بل كنواد اجتماعية ايضا. وترفض سلوى سعد، من مواليد اليمن الشمالي ومديرة بنك الخليج، الحديث عن حقوق النساء بالمعنى الغربي قائلة «ان الاسلام يضمن للمرأة اكثر مما تضمنه لها التقاليد الغربية». وهي تؤمن بان البنك يساعد النساء على التغلب على الضغوط الجديدة والثقافة غير المألوفة في مجتمع يتطور بسرعة كما هو الحال في ابو ظبي. انه يساعدهن على التكيّف مع الاوضاع الجديدة. فيتعلمن عن الشيكات والحوالات المالية كما يمكنهن البنك من الالتقاء بنساء اخريات وسماع شيء عن الحياة خارج نطاق المنزل. ومن الجدير بالذكر ان النساء في الكويت يتمتعن بقسط اوفر من

الحرية من اي مكان آخر في الخليج. وتشكل النساء هناك نسبة ٥ بالمائة من الايدي العاملة. ولقد اكتسبن عن جدارة سمعة كونهن متحررات، ففي احدى المرات اجتحن مجلس الامة المقصور على الرجال وهن يهتفن بالشعارات، في حين تقدمت اخواتهن في البحرين بعريضة للامير عام ١٩٧٢ يطالبن فيها بحق التصويت. ولكن الامير رفض طلبهن بأدب وكانت هذه هي نهاية المسألة.

ان التقاليد الصارمة في الخليج لا تزال تحول دون خروج المرأة للعمل ويبدو ان البحرين تتخذ نفس موقف الكويت من مسألة عمل المرأة. ومع ذلك فوضع المرأة آخذ في التحسن. فلقد باتت معظم المهن الحرة كالطب والمحاماة والهندسة مفتوحة امام المرأة، وتجد المرأة صعوبة في العثور على عمل في المستوى الادنى لسوق العمالة. ولقد تم احراز بعض التقدم في هذا المجال ايضا، وكان ذلك في الكويت، حيث حقق المصنع الوحيد في الخليج الذي تعمل فيه نساء فقط نجاحا باهرا. لقد انشأته شركة إم كيه اليكتريكال البريطانية مع شركاء كويتيين. وينتج المصنع المقابس والمفاتيح الكهربائية. ويتطلب تجميع هذه المنتجات اصابع خفيفة وبراعة، واتضح للشركة من خبرتها حول العالم ان النساء يتفوقن على الرجال في مثل هذا العمل.

لذا قررت الشركة ان تفعل نفس الشيء في الكويت. ولكن شركاءها الكويتيين قالوا ان هذا امر مستحيل. بيد ان البريطانيين قالوا ان هذا ضروري. فوافق الكويتيون على ذلك في النهاية. وتم تحديد اجور تفوق اجور اجور اعمال السكريتيرية ونُشرت اعلانات في الصحف العربية والانجليزية المحلية. وكانت النتيجة مدهشة، إذ تلقت الشركة ١٠٠٠ طلب عمل، كان معظمها من فتيات غير كويتيات، في حين كان العدد المطلوب ١٢ فقط!

أعطت الكويت، ذلك البلد الذي يحرّم القمار، درسا مفيدا جدا في علم التمويل التطبيقي لرجال الاعمال والمستثمرين في الخليج عندما انهار سوق الاوراق المالية غير الرسمي المسمى سوق المناخ. حدث ذلك في عام ١٩٨٢ ولا تزال مضاعفات ذلك الانهيار قائمة حتى يومنا هذا، ليس فقط في الكويت بل

في جميع انحاء الخليج، اذ اعتاد مواطنو البحرين ودولة الامارات على المتاجرة بالأسهم في سوق المنـاخ من سياراتهم المجهزة بالتلفونات او من طائراتهم الخـاصـة المجهزة بأجهزة الراديو. كان الجميع يقومون بذلك، من سائقي سيارات الاجرة وحتى اصحاب الملايين، بمن فيهم عدد من النسوة الكوتيات الثريات: ويقال ان احداهن خسرت مليونا من الدنانير. ومن كان باستطاعته ان يقاوم ذلك؟ اذ كان الربح يتراوح دائما ما بين ٢٠ الى ١٥٠ بالمائة! لقد وجـد المستثمرون في سوق المناخ حلم كل مستثمر، سوقا لا يمكن لاسعار الأسهم فيه الا ان ترتفع!! وكانت المهارة الوحيدة المطلوبة من المستثمر هي اختيار الشركات التي ستحقق اسهمها أعلى ارتفاع في سعرها.

بلغ عدد الشركات المتداولة في سوق المناخ نحو اربعين شركة مسجلة في الخـارج، كانت غالبـا ذات قيمة حقيقية قليلة، في حين كان عدد الشركات الكويتية العامة نحو مئة فقط. وتطورت بالتدريج هناك سوق آجلة بالأسهم، سرعان ما طغت على السوق، بإستعمال شيكات تحمل تواريخ لاحقة لتواريخ كتابتها. فكان المستثمر يشتري اسهما لقاء شيك يحمل تاريخا لاحقا ـ ربما سنة بعد توقيعه ـ يشمل قسط تأمين يتفق عليه البائع والمشتري، يأخذ في الحسبـان الارتفاع الذي سيطرأ على سعر الأسهم في الفترة المعنية.وكانت الأسهم تسلم في الحال، ويمكن حينئذ بيعها نقدا مقابل شيك يحمل تاريخا لاحقا، وهلما جرى. وكان سعر الفائدة على الشيكات المؤجلة يصل احيانا الى نسبة ٣٠٠ بالمائة!!

كان من الممكن لنـظام التـداول هذا ان يستمر طالما استمر تدفق نقد حقيقي الى السوق، ولكن المشكلة انه مع مرور الزمن لم تعد هناك صلة بين قيمـة جبـل الشيكـات المؤجلة والقيمة الحقيقية للأسهم او كمية السيولة المتـوفرة فعلا. لذا كان هناك دائما احتمال لحدوث مشاكل، لأن احد بنود القـانـون التجـاري الكـويتي ينص على ان الشيك يصبح سـاري المفعول ويستحق الصرف لحظة توقيعه بصرف النظر عن التاريخ الذي يحمله. وكانت النتيجة انه عندما تخلف احد السماسرة عن الايفاء بدينه، دب الذعر في قلوب مئات الناس الذين قدموا شيكات للدفع!!

في هذه اللحظة قررت الحكومة ان تتدخل من اجل تسوية الوضع، ووجدت امامها جبلا من الشيكات المؤجلة بقيمة ٩٤ بليون دولار!!! وتبين لها ايضا ان عددا من الوزراء وكبار المسؤولين واعضاء الأسر الحاكمة في الخليج كانوا متورطين في سوق المناخ. وكان السبب المباشر لانهيار السوق هو افلاس جاسم المطوع، احد كبار السماسرة في الكويت. وبلغت ديون جاسم، موظف الجوازات السابق، ١٠،٥ بليون دولار!!! وادعى بأنه وقع ضحية غيرة كبار العائلات التجارية. ومهما كانت الحقيقة فلقد ادت متاعبه الى انهيار السوق وبالتالي الى تدخل الحكومة لانقاذ سوق المناخ.

وتم بموجب الخطة الحكومية لانقاذ السوق تعريف «المستثمر الصغير» على انه من يملك موجودات لا تزيد قيمتها على مليوني دينار كويتي، اي ٧ ملايين دولار!! وجعلت روح المودة التي ابداها كبار السماسرة الامر يبدو خياليا أكثر: فقد تنازل اربعة منهم عن مبلغ ٥٥ مليون دولار كانت في ذمة احد زملائهم!! وعندما بلغ النبأ السماسرة الآخرين، تنازل ١١ منهم عن مبالغ مستحقة. وشكلت الحكومة هيئة تحكيم، وخصصت مبلغ ١،٧٢٤ مليون دولار لتعويض «صغار» المستثمرين، واتخذت اجراءات صارمة ضد كبار السماسرة الذين اعتبرتهم مسؤولين عما حدث. بما في ذلك إعلان افلاسهم وزجهم في السجن. وفي النهاية لم يكن وقع الكارثة سيئا وكما قال وزير النفط الكويتي، الشيخ علي خليفة الصباح: بعض الناس اصبحوا اغنى، وبعض الناس اصبحوا افقر، ولكن من وجهة نظر الاقتصاد الوطني لم يكن لها تأثير. ان ما هو مهم في الامر هو انها جعلت الناس يركزون تفكيرهم على العمل المنتج مرة اخرى، بعد ان حدث هناك إفساد للقيم، إذ كسب كثيرون من الناس المال في وقت قصير، وهكذا نسوا معنى العمل الحقيقي». حسنا، ولكن لا شك ان بعض العرب الذين لم يتورطوا شخصيا في الكارثة فرحوا للفشل الذريع الذي كان من نصيب الكويتيين خاصة وان الكويتيين كثيرا ما كانوا يتبجحون بفهمهم لعالم المال ويمتدحون مؤسساتهم المالية. ولم تخف بعض البنوك الغربية فرحتها على ما اعتبروه درسا في الادارة المالية لأناس طالما اعطوا الانطباع بأنهم يعرفون كل شيء. ولقد حاولت بعض البنوك

الغربية، وخاصة الامريكية منها، تخفيض الحد الاقصى للاعتمادات المفتوحة للكـويت. الا انها عدلت عن ذلك بسرعة بعد ان اشار وزير مالية الكويت، الشيخ عبد اللطيف الحمد، بحزم الى ان للكويت في تلك البنوك ارصدة تفوق كثيرا ما في ذمة الكويت لصالح تلك البنوك.

كانت الكويت هي اول من اقترح انشاء مجلس التعاون الخليجي وكان ذلك ابان مؤتمر القمة العربي الذي عُقد في عمان عام ١٩٨٠. ولقد تبنت السعودية هذا الاقتراح بحماس، وتمت الموافقة عليه اثناء انعقاد مؤتمر القمة الاسلامي في الطائف في يناير (كانون الثاني) ١٩٨١. وفي البداية كان الامير نايف بن عبد العزيز، وزير الداخلية السعودي، هو الذي تنقل بين عواصم الخليـج لاجـراء مشاورات حول هذا الموضوع، مؤكدا على ان الاعتبارات الامنيـة يجب ان تكـون فوق جميـع الاعتبـارات الاخرى - اذ ان ذكرى الاستيلاء على الحرم المكي الشريف كانت لا تزال حية، في حين كانت البحرين قلقة بسبب محاولات الخميني تصدير ثورته الى الجزيرة، بينما كانت الكويت تخشى اتساع الحرب العراقية - الايرانية لتشمل اراضيها. وهكذا كان مجلس التعاون الخليجي في البداية مهتما بالأمن الداخلي أكثر من اي شيء آخر. ولقد اكد المشاركون فيه مرارا بأن المجلس ليس تكتلا سياسيا او عسكريا، وانه غير موجه ضد احد ولا يسعى للتأثير على الغير.

وهكذا تم انشاء نظام كمبيوتر في السعودية بإمكان جميع الاعضاء ان يزودوه بالمعلومات وان يحصلوا منه على معلومات لتعقب اية عناصر هدامة. وكاد تعارض في مواقف كل من الكويت وعُمان ان يحول دون قيام المجلس. فقد كانت عُمان احدى ثلاثة دول عربية إحتفظت بعلاقاتها الدبلوماسية مع مصر بعـد التوقيع على اتفاق كامب ديفيد، كما انها قامت بمنح تسهيلات ومرافق عسكرية لقوة التدخل السريع، في حين كانت الكويت نافذة الاتحاد السوفياتي على الخليج. إلا ان وجهات نظر البلدين تقاربت الى حد ما بعد قيام المجلس، لأن دول المجلس لا ترغب حقا في وجود قوات اجنبية في الخليج. لقد كانت هناك بالطبع خلافات في الرأي بين الكويت وعُمان وكان السلطان قابوس ومستشاروه يشيرون دوما الى الخطر المتمثل في نظام الحكم الماركسي في اليمن

الجنوبي. الا ان مجلس التعاون الخليجي تمكن من ازالة هذا الخطر بمزيج من الرشاوى والضغوط على حكومة عدن.

وهكذا عكفت الدول الست بالعمل بهدوء على تعزيز تعاونها في المجالات العسكرية والأمنية. فقامت مثلاً بتنسيق دفاعاتها الجوية وقامت بالربط بين شبكات الانذار المبكر فيها. واتخذت اجراءات تهدف الى تعزيز تعاونها في المجالات الاقتصادية. واجبرها الركود الاقتصادي على القيام بالخطوة الاولى نحو انشاء سوق مشتركة على غرار السوق الاوروبية المشتركة، وتجنبت المسائل المعقدة مثل مسألة توحيد العملات الى ان تحين الظروف المواتية لذلك. لقد كانت الروبية الهندية هي العملة العامة في انحاء الخليج حتى عام ١٩٦١. ولقد تبين للحكومة الهندية خلال الخمسينات ان مشاكلها الاقتصادية كانت تتفاقم بسبب تدفق العملة الاجنبية منها على الخليج وبسبب عمليات التهريب التي كانت تنظم هناك. وهكذا قامت الهند بفرض قيود على قابلية الروبية للتحويل، واصدرت في عام ١٩٥٨ روبية خليجية خاصة وجد التجار هناك انها تحد من نشاطاتهم. وطلب التجار من حكوماتهم ان تُصدر عملة جديدة. وكانت الكويت اول من استجاب لهذا الطلب فأصدرت الدينار الكويتي عام ١٩٦١ وتبعتها البحرين عام ١٩٦٥ عندما اصدرت الدينار البحريني. وقامت قطر ودبي اللتان تربط علاقات عريقة اسريتهما الحاكمتين بإصدار ريال مشترك عام ١٩٦٦. وكان الدينار البحريني وريال قطر ودبي المشترك متداولين في دولة الامارات العربية المتحدة حتى عام ١٩٧٣ حين اصدرت الامارات عملتها الخاصة: الدرهم، واصبح ريال قطر ودبي ريال قطر فقط.

لقد حد قيام مجلس التعاون الخليجي من المنافسة بين الدول المختلة الامر الذي سمح بتوزيع عقلاني للمرافق الضرورية المختلفة. فتم اختيار البحرين مقرا لجامعة الخليج. وأجّلت السعودية استغلال ثروتها من الالمنيوم كي لا تنافس الامارات والبحرين. وتعاونت الكويت والبحرين والسعودية في انشاء مجمع بتروكيميائي جديد والغيت الرسوم الجمركية على المنتجات

الخليجيـة وكـان من المقـرر توحيـد التعـرفة الجمركية بالنسبة للمنتجات الاجنبية عام ١٩٨٧. وبإمكان المواطنين في الخليج ممارسة الاعمال التجارية والمهن الحـرة في اي من الدول الاعضــاء. وهناك تفكير في انشاء مؤسسة استثمارية خليجية لادارة استثمارات خليجية مشتركة في جميع انحاء العالم.

الجزء السابع

الحياة في الخليج

ان الماضي في الخليج هو قريب العهد للغاية بحيث يوجد له تأثير حقيقي على الحاضر. ولم تكن هناك حاجة الى المتاحف حتى السنوات القليلة الماضية، لأن أي شيء كان من الممكن ان يُعرض هناك كان لا يزال قيد الاستعمال اليومي في البيوت وأماكن العمل. أما الآن فكل شيء يتغير: لقد ماتت الطرق القديمة وبدأت الذكريات تضعف، والرجال المسنون الذين عرفوا كل شيء يختفون. لقد حان الوقت للامساك بالماضي المتلاشي بسرعة قبل ان يختفي كليا. ولهذا الغرض تُبنى المتاحف وتؤلف الكتب وترسم المناظر.

واليوم تستعيد المتاحف في البحرين ودبي والدوحة الماضي، في حين يعرض اقدم متحف في ابو ظبي تاريخ البترول وكيفية استخراجه وماذا يحدث له بعد ذلك. وتم في الكويت مؤخرا انشاء متحف رائع مكرس للثقافة العربية عامة ومكانة الكويت فيها خاصة. وتستعيد المتاحف الصغيرة في جنوب الخليج الايام العظيمة التي سبقت اكتشاف البترول، ذكريات السنوات التي سبقت عام ١٩٣٠ عندما كان الغوص بحثا عن اللؤلؤ اهم مهنة، يعمل فيها اكبر عدد من الرجال من اي نشاط وحيد آخر. ونجد بين المعروضات الصناديق المحفورة الجميلة التي كان تجار اللؤلؤ يستعملونها لخزن اللؤلؤ، والسجلات والحبال والحجارة التي كان الغواصون يستعملونها للغطس الى قاع البحر والفطام التي كانوا يضعونها على انوفهم والملابس القطنية الرقيقة التي كانوا يلبسونها لحماية انفسهم من شيطان البحر، والمصافي النحاسية التي تستعمل لتصنيف اللؤلؤ والموازين وقطع القماش القطنية الحمراء المربعة التي كانت تستعمل للف اللؤلؤ.

لقد كان اللؤلؤ أكثر من شيء آخر هو الذي جذب البرتغاليين الى الخليج في القرن السادس عشر، عندما انتزعوا السيطرة من قبيلة بني خالد التي كانت

تشرف على التجارة من الهفوف. ولا تزال توجد حتى اليوم أكوام من اصداف المحار عند شاطىء الخُبر وبين الجبيل ورأس تنورة، بمثابة نُصُب تذكارية لصناعة إندثرت، لأن احسن الضفاف كانت الى الشمال والى الشرق من البحرين، علما بأن الهيرات كانت تمتد لمسافة ١١٢٠ كيلو مترا. على امتداد الخليج. لذا فإن تركيز المتاحف على عصر اللؤلؤ يمكن فهمه، ليس فقط لأن تصدير اللؤلؤ كان الوسيلة الوحيدة لكسب العملة الاجنبية في السنوات التي سبقت عام ١٩٣٠: ان وقع انهيار هذه الصناعة كان أسوأ من انهيار البورصات في العالم وهو الانهيار الذي حدث في نفس الوقت تقريبا.

ولادراك الكارثة التي حدثت في الثلاثينات على المرء فقط ان يتصور ماذا سيحدث لو ان مخترعا لامعا قام فجأة بإكتشاف طريقة لاستخدام الماء بدلا من البترول في تشغيل المحركات: سيصبح الملايين من الناس بلا عمل، ليس فقط في الدول المنتجة للنفط بل وايضا في الكرجات والمصافي واحواض بناء السفن وفي المصانع في جميع انحاء العالم!! لقد كانت نكبة من هذا النوع هي التي حلت بالخليج عندما بدأ اليابانيون ينتجون اللؤلؤ الصناعي. لم يشعر بوقع هذه الكارثة الغواصون واطقم المراكب فحسب، بل ايضا التجار في الاسواق وبناة المراكب والصرافون وصناع الاشرعة وغيرهم. ووفقا لما ذكره المؤرخ الدقيق جون لوريمر بلغ عدد العاملين في الصيد بصورة مباشرة في مطلع القرن الحالي ٧٤,٠٠٠ شخصا، كانوا يعملون على ٤٥٠٠ قارب من مختلف الانواع. وكانت معيشة آلاف من الناس في البر تعتمد على نجاح الرجال الذين كانوا يعملون في البحر.

في عام ١٩٠٥ بلغت قيمة صادرات الخليج من اللؤلؤ ١,٤٣٤,٣٩٩ جنيها استرلينيا يضاف اليها مبلغ ٣٠,٤٩٣ جنيها استرلينيا من تصدير الأصداف، وبعملة اليوم نحو ١٠٠ مرة ضعف ذلك الرقم. لقد كان اللؤلؤ مصدر دخل حقيقي لسكان الخليج. وكتب لويمر وكأنه يعلم بالغيب «لو انقطع مورد اللؤلؤ فإن تجارة الكويت ستصاب بالشلل، بينما ستتقلص تجارة البحرين الى خمس حجمها الحالي. وستختفي موانىء ساحل عُمان المهادن التي لا توفر اي شيء آخر». وعندما نجح اليابانيون في تصنيع اللؤلؤ لم

تتحقق اسوأ مخاوف لويمر، لأن دبي كانت قد طورت تجارة عامة واصبحت البحرين والكويت اقل اعتمادا على اللؤلؤ. إلا ان النتيجة في قطر كانت كما تنبأ بها، اذ عانى الناس من المجاعة واضطر بعضهم الى الهجرة بعد ان فقدوا مصدر معيشتهم. وحتى في عام ١٩٣٠ كانت هناك ٨٠٠٠ مركب يعمل عليها نحو ١٥،٠٠٠ رجل في الكويت وحدها وشعر الناس هناك ايضا بضائقة العيش عندما انهارت صناعة اللؤلؤ. وفي الدوحة ووكره كان اللؤلؤ المصدر الوحيد للدخل. وبالنسبة لأهالي قطر لم يكن الانهيار مجرد نهاية لمشروع تجاري، بل عنى اختفاء نمط حياة إعتمد عليه مجتمعهم بكامله!

واليوم لا يزال اللؤلؤ موجودا هناك في قاع الخليج ويمكن العثور عليه بسهولة بمساعدة المعدات الحديثة ولكنه لا يستحق عناء استخراجه الا في المناسبات الخاصة جدا: لقد كانت احدى الهدايا التي حصلت عليها الملكة اليزابيث أثناء جولتها في الخليج عام ١٩٧٩ عبارة عن نخلة مصنوعة من الذهب الخالص تحمل لآلىء التقطت من الضفاف القريبة من البحرين!! إن تظافر عدة عوامل طبيعية كضحالة المياه ودرجة حراراتها والضوء هو الذي جعل الخليج مهدا لمحار اللؤلؤ واعطى الآلىء نفسها لونها وبريقها الرائعين، كما قال الخبراء.

ويحمل الناس البسطاء في الخليج افكارا رومنطيقية بالنسبة للموضوع: انهم يقولون بأن المحار يصعد الى سطح البحر اثناء عواصف المطر النادرة ويفتح نفسه ليلتقط نقطة من الماء تتحول الى لؤلؤة. ويقولون ان اللون يعتمد على العمق الذي يستقر فيه المحار وبالتالي على كثافة الماء التي يتعيّن على اشعة الشمس ان تخترقها. وربما تبدو هذه افكارا خيالية ومع ذلك فإن بعض التجار المسنين قادرون على تحديد المكان الذي استخرجت منه لؤلؤة من مجرد النظر اليها. وثمة حقيقة اخرى وهي ان اللؤلؤ المستخرج من المياه الضحلة هو اصغر حجما واقل رونقا من اللؤلؤ المستخرج من المياه العميقة.

لا يزال هناك بعض المسنين في موانىء الخليج ممن عملوا في الغوص بحثا عن اللؤلؤ او ممن عملوا في خدمة الغواصين، اذ كان لكل غواص رجل يسمى

سيب مهمته انزال الغواص الى القاع واخرجه الى السفينة. فكان اولا يسحب الحجر الثقيل الذي كان يستخدم لانزال الغواص الى القاع بسرعة، الى عمق ١٢ او حتى ١٦ قامة ثم اخراجه الى السفينة عندما يشير اليه الغواص بذلك عن طريق تحريك الحبل. وكانت كل غطسة تدوم من ٤٠ الى ٧٥ ثانية، علما بأن الرجال الذين كانوا قادرين على البقاء في الماء اكثر من دقيقة كانوا نادرين. وفي سحابة اليوم، ابتداء من الصباح الباكر وحتى الغروب، كان الغواص يقوم بنحو ٥٠ غوصة اذا كان الطقس حسنا ويستريح بعد كل واحدة. وكان يقوم بكل هذا المجهود الجسماني بعد ان يكون قد افطر على حوالي نصف كيلو من التمر وشرب عدة فناجين من القهوة. اما وجبة الطعام الرئيسية فكانت العشاء وكانت غالبا سمكا. وكانت اطقم المراكب تتبادل الزيارات في المساء حيث كان الرجال يتبادلون الاحاديث عن احداث اليوم ويستعيدون ذكريات الماضي او يتذمرون من ظلم النواخذة [الربابنة] أو الطواشين [تجار اللؤلؤ]. وكان الكثيرون من الغواصين من العبيد او من العبيد السابقين، رجالا قساة يقومون بعمل شاق. وكان الغواصون في حالة دائمة من المديونية اذ كان اصحاب المراكب او النواخذة يمنحونهم سلفا في بداية الموسم وغالبا ما كانت حصتهم من ارباح الموسم لا تكفي لتسديد سلفهم. لقد كان العمل شاقا وخطرا اذ كان سمك القرش يلتهم بعض الرجال احيانا وكان سمك شيطان البحر اللاسع يسبب جروحا خطرة. وكانت امراض الرئة شائعة وكان معظم الغواصين يفقدون حاسة السمع نتيجة انفجار طبلات آذانهم بعد عدة مواسم.

ومع ذلك كان بالامكان جني ربح وفير في المواسم الجيدة. وكانت المنافسة والعداوات تفشى في الهيرات حيث كانت سفن قبائل متحاربة تصطاد جنباً الى جنب بسلام. وكانت كل مراكب أسطول ميناء تبقى مع بعضها بقيادة ناخوذة كبير يقوم بدور أمير البحر بتفويض من الشيخ. وكانت جميع المراكب تعود الى مينائها سوياً، وفي دبي كانت المراكب تتجمع عند الحاجز في نهاية الخور ثم تتسابق، وربما تكون هناك عشرة مجاذيف من كل جانب يدفعها رجلان أو ثلاثة، كل يسعى لنيل شرف كونه أول من يصل الى الحاكم الذي كان ينتظرهم على الرصيف واستلام الجائزة منه.

لقد حدث هذا لآخر مرة عام ١٩٤٨ وكان الأسطول قد تقلص كثيراً، وفي السنة التالية لم تخرج أية مراكب من دبي الى الهيرات. وربما تكون مراكب من البحرين هي آخر من خرجت للغوص ولكنها هي أيضاً توقفت الآن. وفي الخليج قليل عدد الرجال الذين يأسفون على تلك الأيام ويحمد الأتقياء الله على نعمة البترول الذي جاء في الوقت الذي بدأ فيه مصدر الثروة التقليدي يزول، ويتذكر الرجال العمليون قصص المعاناة والمشقة التي قصها عليهم آباؤهم ويحمدون الله على أنه جنبهم ذلك العناء.

كانت المراكب التي تستعمل للغوص عادة من النوع المسمى سمبوك، يتراوح عدد طاقمها من ١٥ الى ٢٠ رجلاً، وكانت قادرة على حمل نحو ٦٠ طناً من البضائع عندما لم تكن تستخدم للغوص. كانت هذه المراكب تبحر الى أفريقيا الشرقية مع الرياح الموسمية في شهر نوفمبر (تشرين ثاني) محملة بمحصول التمور الجديد، وتعود في شهر مارس (آذار) للعمل في هيرات اللؤلؤ. وكانت مراكب أخرى، أكبر وأصغر من السمبوك، تستخدم أيضاً، وعلى الخصوص البجالة الضخمة القادرة على حمل ٣٠٠ طناً من البضائع والتي قد يزيد طاقمها على ٥٠ رجلاً، والبتيل ذات الشراعين وطاقم يبلغ ٣٠ رجلاً عندما كانت تستخدم للغوص. وكانت جميع المراكب تحمل عدداً إضافياً من الرجال أثناء الموسم، لأن الغواصين كانوا أهم الرجال على المركب وستكون الخسارة كبيرة لو أن أحدهم تعطل عن العمل بسبب عدم وجود من يسحبه. وفي بعض المراكب الكبيرة كان هناك علاوة على الأولاد الذين يتعلمون المهنة ويقومون بعمل الشاي وصيد السمك، مغنون وقصاصون للترفيه عن الرجال في المساء. وكان الموسم الرئيسي يدوم حوالي ثلاثة أشهر ونصف، وكان يُسمح لكل مركب أثناء هذه الفترة بالقيام بزيارة واحدة لمينائه بحجة التزوّد بالمؤن ولكنها مكنت في الواقع الرجال من زيارة زوجاتهم.

ومن الجدير بالذكر أنه يمكن اليوم مشاهدة المراكب المختلفة التي كانت تستخدم في الغوص، ويجري بناء المزيد منها. فلقد أدى وعي جديد بالماضي بين الأثرياء الى إحياء صناعة بناء المراكب، إذ قام هؤلاء بطلب بناء مراكب نزهة لأنفسهم. ويتنافس الحكام فيما بينهم بهدوء في بناء أروع المراكب. ومن

المؤسف أن حاكم قطر اضطر لاستيراد نجارين من بومباي للقيام ببناء مركبه. ولا تزال المراكب تستخدم بشكل واسع في التجارة مع الباكستان والهند وأفريقيا الشرقية وحول البحر الأحمر، وهي اليوم مزودة بمحركات قوية، ولكنها تُبنى بالأساليب القديمة التي ثبت أنها عملية ومجدية من الناحية الاقتصادية.

وكانت هذه القوارب «تُخاط» أصلاً بحبال مصنوعة من ألياف شجرة جوز الهند عبر ثقوب في أطراف ألواح من خشب السياج. قد تبدو هذه الطريقة كتدبير مؤقت ولكن التجربة أثبتت أنها طريقة عملية ومأمونة لبناء المراكب. فقد قام الرحالة تيم سيفرين عام ١٩٨٠ ببناء مركب بالطرق التقليدية في عُمان وأبحر به سالماً حتى الصين. وفي القرن التاسع شُرع في استخدام المسامير في بناء السفن ودأب بناة السفن منذ ذلك الحين على اعتماد أية أساليب جديدة اعتقدوا أنها مفيدة. ولا يزال زيت سمك القرش يُستعمل حتى اليوم لخشب ما فوق خط الماء للحيلولة دون جفافه أو اعوجاجه، في حين يُعالج قعر القارب مرتين في السنة بزيت جوز الهند والراتينج للحيلولة دون تسرب الماء ومقاومة هجمات دودة السفن. وتُصنع السواري من أشجار تنمو في ساحل ملابار.

ويمكن حتى اليوم مشاهدة بعض المراكب الشراعية في الموانىء الصغيرة مثل الشارقة. والعديد من مراكب النزهة الجديدة مجهزة بأشرعة وبمحركات أيضاً. ويمكن القول عموماً بأن مراكب الشحن مجهزة بمحركات وأن مراكب دبي على الخصوص مجهزة بمحركات قوية جداً لأنها تضطر أحياناً للفرار من قوارب خفر السواحل الفضولية. في عام ١٩٨٢ مثلاً أوقف رجال الجمارك الهنود مركباً خليجياً بعد أن أطلقوا نحوه طلقات تحذيرية ووجدوا على متنه شحنة من مئات الآلاف من الساعات. وليس الذهب هو السلعة القيّمة الوحيدة الجديرة بالتهريب، فيتم مثلاً تهريب أجهزة التلفزيون الملوّن الى ايران وهي الاجهزة التي كثيراً ما كانت تجد طريقها الى الجنود السوفيات في أفغانستان!

عندما كانت مراكب اللؤلؤ تخرج للصيد في الماضي، كثيراً ما كانت تحمل في كيس معلق في مؤخرة المركب نسخة من القرآن الكريم، كان الناخوذة أو

أحد الرجال المتعلمين ينزلها في المساء ليقرأ بعض الآيات البينات على مسامع رجاله. فلقد كان الدين كما هو الحال اليوم جزءاً من كل نشاط. إن الآذان للصلاة هو أحد الأصوات المعهودة في العالم العربي. وتسيطر المآذن الشامخة وقباب الجوامع على فآق المدن المختلفة.

* * *

كما هو الحال في معظم البلدان العربية، يقوم الرجال بالتسوّق وتقوم النساء بالطبخ، وتبدو القيود المفروضة على النساء بالنسبة للأوروبيين مرهقة: طراز اللبس والحجاب وانعدام امكانية المشاركة الكاملة في حياة المجتمع. ان ارتداء البرقع والعباءة لا يزال شائعاً في الخليج.

ان التحجب هو شيء نما على مدى العصور، شيء لا ينص عليه القرآن الكريم، مع أن العلماء يجدون تأييداً له في الحديث الشريف وتعتبر الكويت حالة شاذة في الخليج، حيث تقوم المرأة صراحة بدور هام في الحياة العامة ـ في البحرين فقط للنساء تأثير في الحياة العامة كتأثيرهن في الكويت.

واضطر حكام الخليج للاعتراف بالمكانة الجديدة للمرأة في المجتمع العربي، ربما بسبب الادراك المتزايد بأن النساء قادرات على الاضطلاع بدور هام في الاقتصاد وتقليل الحاجة لاستيراد القوى العاملة الأجنبية. فأقامت وزارة العمل والشؤون الاجتماعية في دولة الامارات مراكز تنمية وأخرى ثقافية في معظم الامارات من المفروض أن تلبي احتياجات المرأة مع تحيز للاشغال اليدوية والطبخ والصحة المنزلية. ويقوم اتحاد النساء بعمل مشابه، علاوة على جمع المال للأعمال الخيرية وإدارة رياض الأطفال للأمهات العاملات وتنظيم صفوف لمحو الأمية لمن يحتاجها. وتبلغ نسبة النساء للرجال في جامعات الخليج ٢ الى ١ ويعادل عدد البنات عدد الأولاد في المدارس. ويبدو أن النتيجة في المستقبل ستكون أن النساء سيدرن معظم خدمات القطاع العام في دولة الامارات اذ لا يزال هناك اتجاه ضد العمل في الشركات الخاصة. ومن المتوقع أن تسيطر النساء على الوظائف في ميادين الصحة

والشؤون الاجتماعية ووسائل الاعلام، وخاصة البث الاذاعي، في غضون السنوات القليلة القادمة.

ولقد أصبح اليوم منظراً مألوفاً مشاهدة امرأة «مكفنة» تركب طائرة في أحد مطارات الخليج، تبدو كحزمة عديمة الشكل كالتي يشاهدها المرء تسير في أي سوق، ثم تغيّر ملابسها بعد ساعة وتظهر امرأة أنيقة كالتي يمكن مشاهدتها في أي عاصمة غربية. إن مجرد خلع العباءة كفيل بأن يُحدث تغييراً كبيراً، فنساء الخليج الثريات يرتدين أحدث الأزياء الغربية تحت ثيابهن السوداء!

* * *

لا تفتقر أي فرقة أو جمعية ثقافية في الخليج الى مأوى، فلقد تم بناء مسارح في جميع الدول تقريباً مجهزة بأحدث المعدات وأفخرها، والمشكلة تكمن في العثور على أشخاص قادرين على استعمال ما تم توفيره. في دبي، تقدم جمعية الفنون الشعبية عروضاً ترفيهية تقليدية ولقد تم تشجيع قيام مثل هذه الجمعية في البلدان الأخرى. وفي قطر تخطط الدولة لانشاء مسرح آخر مكمّل للمسرح الوطني المجهز بنظام إضاءة يعمل بالكومبيوتر وبتجهيزات للترجمة الفورية وبحلبة للفرقة الموسيقية قابلة للخفض والرفع. إلا أن الشارقة هي التي أبدت أكثر عناية بتحسين مستوى المسرح في الخليج عن طريق تنظيم حلقة دراسية عن المسرح دامت أربعة أشهر وشملت دورات حول الاخراج والتمثيل والكتابة، حضرتها فرق مسرحية هاوية كما حضرها أفراد من مختلف الجامعات. وكانت النتيجة ارتفاعاً مفاجئاً في عدد المسرحيات المبنية على التراث المحلي وفي عدد المسرحيات الأجنبية التي جرى تكييفها مع الأوضاع في الخليج. ومن الملفت للنظر انه تم ادخال تصميم جديد للمسارح بحيث يجلس المتفرجون في ثلاثة جوانب، تماماً كما يجلس الناس في الحوش للاستماع الى شاعر شعبي. ويُستخدم الحكواتي في العديد من المسرحيات. وأنشأت الكويت مركزاً للشعر الشعبي حيث يجري تسجيل التراث الشفهي للمحافظة عليه. لقد كان لهذه الجهود المحمودة بعض التأثير،

إلا أن الأفكار الغربية هي التي بدأت تسود. فمسرحيات شكسبير هي ذروة كل موسم مسرحي في العديد من مسارح الخليج. والكويت تهتم أكثر بثقافة «البوب» حيث يزورها عدد من النجوم العالميين لاحياء الحفلات وتزورها أيضاً فرق الموسيقى الكلاسيكية وتقدم فنادقها عروضاً لنجوم الكباريه تدر عليها دخلاً يساوي على الأقل دخلها من تأجير الغرف.

إن المسرح والكباريهات هي للأغنياء، أما بالنسبة للبقية فالترفيه يعني التلفزيون والراديو والرياضة. ومن غرائب الأمور في الخليج أن القليلين من الناس شاهدوا التلفزيون الأبيض والأسود: لقد قفزوا مرحلة من مراحل تطور التلفزيون وذهبوا مباشرة الى التلفزيون الملوّن. واليوم يمكن التقاط البث التلفزيوني من الكويت والبحرين والسعودية ومحطة أرامكو في الظهران ومن قطر والامارات. والبرامج التي تقدمها جميع هذه المحطات هي نفس البرامج الى حد بعيد بإستثناء محطة أرامكو التي تُركز على رياضة البيزْبول والبرامج الفكاهية والمسلسلات الدرامية. وتبدأ عادة نشرات الأخبار بتفاهات الحياة الرسمية مثل الاستقبالات وبرقيات التهاني، تلي ذلك الأحداث العالمية. ويتم تجاهل المواضيع المحلية المثيرة للجدل تماماً. وتساهم محطات تلفزيون الخليج، كغيرها من محطات التلفزيون في العالم، بنشر القيم الاجتماعية والثقافية الأميركية. إن مسلسل دلاس محبوب في الخليج مثلما هو محبوب في كل مكان آخر. ولقد تمت حتى ترجمة برنامج إفتح يا سمسم الى اللغة العربية.

وينطبق هذا على محطات الاذاعة ولو انها محترفة أكثر نظراً لأنها أقدم من محطات التلفزيون. فلقد أُنشئت اذاعة أبو ظبي يوم ٢٥ فبراير (شباط) ١٩٦٩ وتبعتها اذاعة دبي بعد ذلك بسنتين. واليوم هناك محطات اذاعية في ام القوين والشارقة ورأس الخيمة، في حين تفكر الفجيرة في إقامة محطة خاصة بها. وهناك أيضاً محطة تجارية في أبو ظبي و «برنامج عالمي» في دبي. وتذيع معظمها برامج باللغات الانجليزية والفرنسية والاردية. وعندما بدأت أول محطة اذاعية في دبي، جُعلت محطة تجارية، تماشياً مع عبقرية الشيخ راشد التجارية. وحققت هذه المحطة ربحاً مقداره ٣٠,٠٠٠ جنيه استرليني

في سنتها الأولى، وهو مبلغ كان كافياً لتغطية تكاليف تشغيلها. ولكن عندما بدأت أموال البترول تتدفق شعر الشيخ راشد بأن المبادىء التجارية الصارمة يجب أن تُضرب بعرض الحائط وراحت الدولة تدعم المحطة الاذاعية.

إن الرياضة هي التي تجذب الجماهير، كما هو الحال في كل مكان آخر من العالم. والفرق هو أن المرافق الرياضية والمكافآت التي تُمنح للاعبين هي أفضل من أي مكان آخر تقريباً. فعندما فاز منتخب الكويت بكأس احدى المناطق، مُنح كل لاعب سيارة، علاوة على مبلغ كبير من المال. ومن الدارج أن يُمنح النجوم بيوتاً بعد أداء حسن في مباراة ما. ولجميع اللاعبين وظائف إسمية في الوزارات المختلفة. وللذين يكتفون بالمشاهدة، توفّر كل دولة ملاعب رياضية رائعة وبرك سباحة أولمبية وكل شيء آخر. فيتم احضار المدربين والمدراء والمنظمين من جميع أنحاء العالم. وفي الشارقة أنفق المصرفي الثري عبد الرحيم بوخاطر ثروة على بناء ملعب للعبة الكريكيت. فاستورد العشب وشبكة تجهيزات السقي ومدرجات عادية وفخمة وشباكاً وكل ما يلزم. واليوم وبفضل مبادرة السيد بوخاطر والمبالغ الكبيرة التي لا يزال هو مستعداً لانفاقها يجد نجوم الكريكيت العالميون سعادة كبيرة في ممارسة رياضتهم في الخليج. والأمر الأشد غرابة من ذلك هو حلبة التزلج على الجليد في مجمع كلداري بالقرب من الميناء في دبي، حيث تتزلج وتدور بنات صغيرات رشيقات تحت إشراف المدرب وعيون أمهاتهن الفخورات والمحجبات، بينما يتمتع العابرون بهذا العرض المجاني الذي يصبح مدهشاً أكثر عندما تحين الساعات العمومية ويتعثر العرب بدشداشاتهم البيضاء والطويلة ويصطدمون بعضهم ببعض حول الحلبة، الأمر الذي يثير بهجة المتفرجين!!

وتبقى الرياضات العربية أيضاً محبوبة ولكن ليس على شاشات التلفزيون التي تبث بصورة منتظمة سباقات الهجن من السعودية التي تبدو أحياناً وكأنها تتواصل الى الأبد، الى أن يُدرك المرء بأنه يجري اعادة نفس الفيلم تكراراً لملء الوقت! وفي جميع دول الخليج سباقات الهجن هي تسلية الرجل العجوز وهي عادة مناسبة اجتماعية أكثر منها رياضة حقيقية. فعندما

يذهب الشيخ زايد مثلاً الى العين فإنه لا يذهب بصفته رئيس دولة بل كشيخ محبوب يمكن لأي مواطن أن يدنو منه ويتحدث معه في أية مشكلة أو موضوع. وربما يجلس رئيس الدولة على الأرض مع الشيوخ الآخرين ويتبادل معهم القصص والنكات ويستعيد ذكريات الماضي المجيد. في مثل هذه المناسبة يصعب على المرء التمييز بين الحاكم والمحكوم.

أما سباقات الخيل فهي مسألة مختلفة تماماً. ولقد كان الشيء الملفت للنظر في البحرين لمدة طويلة أن خيول الأمير كانت تفوز في جميع السباقات. ولم يكن هذا نتيجة لأي أمر أو أية إرادة، بل نتيجة كون الأمير هو الشخص الوحيد الذي كان يملك عدداً من خيول السباق. وكان من الصعب تنظيم منافسة حقيقية لأن الأمير كان يملك جميع الخيول المشاركة في السباقات، علماً بأن المنافسة بين الفرسان كانت شديدة، خاصة اذا صدفت مشاركة فارس انجليزي أو أميركي. والآن لقد تغيّر كل شيء. فهناك عدد من أصحاب الاصطبلات وهذا يعني أن الأمير لا يفوز في كل سباق، مع انه لا يزال يملك أكبر عدد من خيول السباق في الجزيرة. وفي دولة الامارات يحتل أبناء الشيخ راشد، حاكم دبي، وفي طليعتهم الشيخ محمد المكانة الأولى في هذا الميدان. فقد دفع الشيخ محمد مبلغاً قياسياً (نحو ١٠ ملايين دولار) ثمناً لحصان عمره سنة واحدة لم يشارك في أي سباق. وتهبط طائرته بانتظام في مطار لوتون في بريطانيا لتنقل الأعلاف والأطعمة الخاصة لخيوله وصقوره.

ومن الجدير بالذكر أنه عندما تزوج الشيخ محمد من ابنة الشيخ حمدان بن محمد آل نهيان، نائب رئيس وزراء الحكومة الاتحادية، عام ١٩٨١ دامت الاحتفالات شهراً. ولقد تم الاستيلاء على ثلاثة فنادق لايواء المغنيين وفرق الرقص وفرق الفنون الشعبية والفنانين الآخرين فقط! وتم تطويق ميل مربع حول قصر المشرف وزيّن بالزهور والنباتات الخضراء التي تم نقلها بالطائرة من جميع أنحاء العالم. ولقد زينت المباني والساحات بآلاف المصابيح الكهربائية الحالمة وأقيم مدرج خاص ليشاهد الضيوف الاحتفالات منه!

لو حدث هذا في أي بلد آخر في وقت كان العالم يعاني فيه من الركود الاقتصادي لتعالت صرخات الاحتجاج. ولكن في دبي يبدو أن الجميع

استمتعوا بهذه المناسبة ولم تُسمع كلمة احتجاج حقيقية واحدة لعدم وجود مجاعة في دبي ولا يوجد أحد بحاجة الى مأوى أو يعاني من البرد. ولم يعارض أحد في بلد ينعم سكانه بالرخاء قيام الشيخ راشد بالاحتفال بزفاف ابنه على ذلك النحو، وكما أشار الكثيرون فهو حر في انفاق ماله على النحو الذي يريده. وربما كان لشخصية الشيخ محمد أيضاً ضلع في ذلك: فعلى الرغم من اهتمامه الكبير بخيول السباق وانغماسه الجلي في ملذات الحياة، فهو شاب يعمل بهمة ونشاط ويضطلع بمسؤولياته بجدية ليس فقط في دبي بل وأيضاً كوزير للدفاع لدولة الامارات، ولم يتردد في اتخاذ مواقف اتحادية أكثر من والده.

الشيخ فهد الصباح هو واحد من أبرز الرياضيين في الكويت، يجمع ما بين سباقات الخيل وكرة القدم. وهو وجه مألوف في ميادين السباقات في بريطانيا حيث يُعتبر من أصحاب الخيول الناجحة، وكما انه معروف جداً في ملاعب كرة القدم حول العالم بصفته رئيساً للجنة الأولمبية الكويتية. ولقد شاهده العالم على شاشات التلفزيون عام ١٩٨٢ عندما ركض نحو الحكم للاحتجاج على قرار أثناء مباراة في اطار مباريات التصفية لكأس العالم في كرة القدم.

وبفضل حماسة الشيخ فهد الشديدة حققت الكويت مستوى عالمياً في ميدان كرة القدم، مستعينة بمدربين برازيليين ولاعبين أجانب. ومن المدهش حقاً أن عدد اللاعبين المسجلين في الكويت كان في فترة مباريات التصفية لكأس العام ١,٦٤٨ لاعباً فقط، أصغر من أي بلد منافس آخر. وسيرتفع هذا العدد في المستقبل نظراً لاقبال تلاميذ المدارس الشديد على كرة القدم، في الكويت وفي دول الخليج الأخرى، ولرعاية هذه الدول لهذه الرياضة المحببة.

إن مشكلة وقت الفراغ التي تقلق المخططين في الغرب قد وصلت الى الخليج. فالشباب في هذه البلدان يعمل ساعات قليلة جداً. لذا فعليهم ملء ساعات طويلة من الفراغ ويبدو أن معظمهم قادرون على ملء ساعات الفراغ بممارسة رياضاتهم المفضلة نظراً لتوفر مرافق رياضية ممتازة. ومن الملفت

للنظر أن شباب الخليج محروم من هواية الشباب في كل مكان، ألا وهي البحث عن الفتيات ومغازلتهن. فعلى الرغم من جميع التأثيرات الأجنبية وانتشار التكنولوجيا الحديثة، لا تُتاح للشباب امكانية الاجتماع بالفتيات بعيداً عن أعين الآباء.

وقال البروفسور ليفون ميليكيان من جامعة قطر أن هذا هو أحد اسباب الملل الذي يشكو منه بعض الشبان الأغنياء. ويقول البروفسور ميليكيان في بحثه الرائد «جاسم»: بما أن الجنسين معزولان فلا تُتاح للولد فرصة الاختلاط بالجنس الآخر. وكل ما يقوم به هو دائماً بصحبة أبناء جنسه. لذا فهو محروم من حاجته الطبيعية لاقامة علاقة حميمة مع البنات. وهكذا فإن متنفسه الوحيد هو اساءة استعمال السيارات فيقودها بسرعة جنونية وبلا هدف. ويمكن مشاهدة هذه الظاهرة يومياً في أنحاء الخليج وربما هي سبب حوادث الطرق الرهيبة في الكويت.

قبالة عوامل الملل والمواقف الأخرى التي تؤدي الى الشعور بالضيق، يلاحظ البروفسور ميليكيان أن الطمأنينة الاقتصادية التي يتمتع بها الشباب في دول الخليج تمكنه من التغلب على الضغوط السلبية. ومع ذلك فكثيراً ما يتذمر الشباب في الخليج. فهو يشكو من عدم وجود منبر للتعبير عن آرائه وهذه مسألة سيكون لها تأثيرها في المستقبل ما لم يتم توفير منبر من هذا القبيل. والمشكلة الاساسية بالنسبة للغالبية الساحقة من الشباب هي انعدام امكانية الاختلاط بالبنات ولا شك في أن هذا الوضع سيتغير بالتدريج كما حدث في لبنان ومصر وبلدان المغرب العربي.

بالنسبة للأغنياء من أبناء الخليج أصبحت رياضة الصيد بالصقور رمزاً لرفعة المقام، علاوة على كونها مصدراً كبيراً للمتعة. ويزيد سعر الصقر الجيّد على ١٠,٠٠٠ جنيه استرليني. ومن النتائج السلبية لهذه الرياضة أن بعض الناس يقومون بسرقة بيض أو فراخ هذه الطيور النادرة والمحمية في بلدان كثيرة من العالم لتهريبها الى بلدان الخليج. ويعتقد البعض أن بيير ترودو، رئيس وزراء كندا سابقاً، قد أخطأ عندما أهدى الملك خالد صقراً كندياً اثناء

زيارة للسعودية. فعندما نشرت الصحف هذا الخبر، لفتت بذلك أنظار المعنيين بسرقة هذه الطيور الى أين يمكنهم أخذها. فقد اعتقل رجل الماني في كندا كان يوشك على ركوب الطائرة وهو يحمل ثلاث بيضات صقور نادرة في جهاز حضانة نقال.

ويأتي الباز الجوال بعد الصقر من حيث الشعبية وهو أسرع وأفتك من الصقر عندما ينقض على فريسته. ولقد تم توليد الباز في الأسر في مركز سلمان للصقور في البحرين. وهناك مركز شبيه في دبي. ولكن الى أن يتم تكاثر الحباريات في المنطقة وهي الفريسة التقليدية للصقور فإن تنظيم حملات الصيد الى الباكستان سيستمر. وهي آخر بلد تتواجد فيه الحباريات بأعداد كبيرة. وربما تكون الحاجة الى السفر الى الخارج هي احدى مفاتن هذه الرياضة، لأن مثل هذه الرحلة تجمع عادة عشرة رجال أو أكثر يقضون شهراً أو نحو ذلك في معسكر في منطقة نائية من الباكستان. فيخرجون للصيد مع بزوغ الشمس كل يوم، ويقضون الأمسيات حول النار، يأكلون ويستعيدون ذكريات الماضي ويتكهنون بما سيحدث في المستقبل. وتمكن مثل هذه الرحلات الرجال من تجديد حيويتهم والعودة الى الحياة البسيطة هرباً من ضغوط الحياة في القرن العشرين.

وثمة رياضة تقليدية أخرى في الخليج الأسفل هي سباقات التجذيف بمشاركة قوارب ضخمة فريدة من نوعها. وربما يكون أطولها ذلك الذي بني لحساب الشيخ صقر، حاكم رأس الخيمة، إذ يبلغ طوله ١١٥ قدماً. وقد يكون لهذه القوارب الغريبة ٢٠ مجذافاً على كل جانب. ويبدو منظرها وهي تقترب مسرعة من خط النهاية مثيراً للغاية. ومع أن استعمالها العملي محدود جداً فهي رمز لصلة عرب الخليج بالبحر.

* * *

إن عرب الخليج هم اليوم أنصار معتبرون للفنون. ويقوم الأخصائيون العالميون بتنظيم معارض فنية وأثرية في المراكز المختلفة كل عام. لقد أدى بناء

متحف رائع جديد في الكويت الى تعاظم الاهتمام بالفنون الاسلامية. فيقوم وكلاء بالبحث عن تحف اسلامية رائعة في جميع أنحاء العالم. ولقد عززت الفنادق الفاخرة التي بُنيت في المنطقة هذا الاتجاه باستعمالها المواد والتحف المحلية في ديكوراتها.

ويقوم تجار السجاد الأتراك بشحن مئات من افخر قطعهم الى الخليج ولا يجدون صعوبة في بيع اكبرها وأغلاها. ويحضر اليابانيون لآلئهم الاصطناعية الى أبناء الرجال الذين كانوا يصطادون اللؤلؤ الحر. ولقد ظهر مؤخراً اهتمام بالمخطوطات العربية المزركشة.

إن الخليج هو اليوم في مرحلة انتقالية، ولا يزال يبحث عن هوية خاصة به، تكون مزيجاً بين ثقافته القديمة والقيم الغربية المستوردة. وتجعل الثروة الهائلة كل شيء ممكناً. ولا شك في أن خليط الناس من جميع أنحاء العالم سيؤدي الى تطور ثقافة متنوعة وحيوية. وفي المقابل، فللسياسة والدين تأثير كابح. فقرار تفضيل ثقافة على أخرى هو قرار سياسي، في حين أدى تأثير ثورة الخميني الى تعاظم التيار الديني.

إن دول الخليج، بتاريخها الحديث والقصير وانتقالها الفذ والسريع من الفقر الى الازدهار واعتمادها المستمر على المهارات والأيدي العاملة الأجنبية، لم تكوّن بعد شخصية مقنعة خاصة بها. وعندما يحدث ذلك، فربما تكون هذه الهوية مزيجاً من كل ما هو حسن في الثقافتين العربية والغربية. هذا من جهة. ومن الجهة الثانية ربما تجمع هذه الهوية بين ما هو أسوأ في هاتين الثقافتين.

الجزء الثامن

نمط الاحتلال

● اليونانيون والبرتغاليون ● الهولنديون ● الفرنسيون والبريطانيون ● حملتان ضد القراصنة ● الهدنة البحرية ● محاولات لوضع حد للعبودية وتهريب السلاح

يناير كانون الثاني ١٩٧٦ : خففت طائرة الكونْكورد من سرعتها التي تفوق سرعة الصوت ونكّست أنفها في اتجاه البحرين استعداداً للهبوط في مطار المحرق. إلا أن السكان المتخمين لم يعيروا هذا الرمز لأحدث تكنولوجيا في العالم اهتماماً كثيراً. وفي الواقع كان اهتمامهم أقل بكثير من الاهتمام الذي أبداه آباؤهم بوصول فريدي بوزْويرث في أول طائرة تهبط في البحرين. لقد أدى هبوط بوزْويرث في حلبة السباق في المنامة الى تأسيس شركة طيران الخليج وإحداث ثورة في السفر في المنطقة. ولكن المغزى الحقيقي لهبوط أول طائرة ووصول طائرة الكونْكورد هو تأكيد أهمية الخليج المتواصلة كطريق رئيسي بين الشرق والغرب.

كان الخليج دائماً منذ فجر التاريخ أحد الممرات العظمى في العالم. لقد شجعت مياهه الضحلة ومئات الجزر فيه رجال ما قبل التاريخ على الخروج بقواربهم البدائية للبحث عن جيرانهم وللمتاجرة وبالطبع للقتال في ما بعد. وأثبت الرحالة النرويجي تور هيردال عام ١٩٧٨ كيف أنه كان بامكان سكان الأهوار في العراق أن يُبحروا في شط العرب وأن يخرجوا الى الخليج. وأنجز هذا العمل الفذ في زورق صنع من حزم من القصب رُبطت بعضها بنفس الطريقة التي لا يزال سكان الأهوار يستعملونها لبناء قواربهم المهلهلة. وحتى قبل ذلك، وفي فجر التاريخ، كان سكان الخليج قد اعتادوا على البحر ولقد وصل صيتهم حتى الهند وسبأ وأوروبا.

كانت البحرين دائماً مركز شبكة طرق الخليج، ليس فقط بفضل موقعها الجغرافي وسط الممر المائي، بل أيضاً بسبب ينابيعها العديدة ونخيلها وبساتينها. فبالنسبة للقادمين بمحاذاة الساحل كان من الأفضل لهم أن يتوقفوا في شبه جزيرة قطر لو كان فيها شيء. بيد أن قطر من غابر الأزمان وحتى يومنا هذا تفتقر الى الموارد الطبيعية. فالآبار قليلة وماؤها غير عذب، وأمطار الشتاء المتناثرة تؤدي الى نمو طبقة نحيفة من الأعشاب والشجيرات تكفي بالكاد لاغراء بدو الاحساء على الرحيل بمواشيهم الى شبه الجزيرة لبضع شهور. لقد كان الماء هو الهم الأكبر للمسافر في قديم الزمان، لذا كان الرحالة يبلغون اليابسة في البحرين لملء قربهم والتزوّد بالتمر لرحلتهم جنوباً.

لا يوجد وصف مدوّن لتلك الأيام المبكرة ولكن اكتشافات علماء الآثار تؤيد فكرة كون البحرين دلمون القديمة، وهكذا يمكن ربطها بمملكتي بابل وأشور، ويعطيها هذا تاريخاً مدوناً يعود الى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد. وفي الواقع ترك الأشوريون ألواحاً حجرية بيّنت على أنهم كانوا يؤمنون بأن حضارتهم نشأت في دلمون، وأنه تم اختراع الحروف المسمارية هناك. وتبيّن السجلات الموجودة أن البحرين كانت في الماضي البعيد، كما كانت في الماضي القريب، فريسة لأطماع جيرانها. فكانت ملكيتها تتغير مع صعود نجم امبراطوريات البابليون والأشوريون والفرس والعرب وغيرهم. ولكنها بقيت عبر العصور ميناءاً هاماً ومركزاً تجارياً عظيماً بين الشرق والغرب. وقبل ألفي عام من ميلاد سيدنا عيسى، أرسل أحد ملوك بلاد ما بين النهرين بعثة تجارية لدلمون، وجدت هناك أخشاباً ومعادن وعاجاً تم استيرادها على الأرجح من الهند، كانت بلاده المنبسطة بحاجة اليها. وبعد مضي ألف سنة هدد ملك أشوري بوقف التجارة مع البحرين ما لم يدفع له حاكمها الجزية. وقال متبجحاً «لقد سمع ابيري، ملك دلمون، الذي يعيش كالسمكة على بعد ٣٠ ساعة مزدوجة وسط بحر الشمس المحرقة، بجبروتي وأحضر هداياه». ان البحرينيين حاولوا دائماً تجنب القتال ما لم يجبروا على ذلك واعتبروا دفع أية جزية ثمناً مقبولاً لتجنب القتال. وهكذا فانهم لم يترددوا في دفع الجزية عندم أرسل اليهم سنحريب بعض حطام مدينة بابل التي دمرها!

أرسـل الاسكنـدر الكبير سفنه الى الخليج لاستطلاعه بينما كان عائداً بجيشه من الهند عام ٣٢٦ قبل الميلاد. وفي القرن الرابع بعد الميلاد نقل شابور ملك الامبراطورية الساسانية الحرب الى ارض العدو بعد أن قامت بعض القبائل العربية بالاغارة على مدن واقعة على الساحل الغربي للخليج. وكانت العملية التي قام بها عبر الخليج ناجحة ـ وهذا هو الشيء الذي هدد الشاه محمد رضا بهلوي بالقيام به في القرن العشرين ـ فقام بضم البحرين وأجزاء من الساحل العربي للخليج رسمياً الى مملكته. وهذه مسألة كان لها دورها في النـزاع العالمي الذي نشب عشية اعلان استقلال البحرين عام ١٩٧٠. ولكن تاريخ الخليج الحديث بدأ حقاً مع ظهور الاسلام في القرن السـابع، لأن الدين لعب دوراً كبيراً عبر العصور في كل شيء حدث هناك. وبـالتـأكيد لم تكن هناك مقاومة للجيوش الاسلامية التي تدفقت من شبه الجـزيرة العربية الشاسعة لنشر الاسلام بالنار والسيف. وبطبيعة الحال، كانت المناطق المحاذية لها هي أول من اعتنق اللاسلام، وهكذا فإن دويلات الخليج كانت خاضعة لسلطة الخلفاء.

وأقام القرامطة امبراطورية لهم في شرق شبه الجزيرة العربية وجعلوا من المومينية عاصمة لهم. وفي احدى المراحل هاجموا مكة المكرمة وسرقوا الحجر الأسود ونقلوه الى عاصمتهم. ولكن حكمهم آل الى الفناء. ومرة أخرى تمكن الخلفـاء من بسط سيادتهم، بيد أنها كانت سيادة ضعيفة. فغالباً ما كان الحكام المحليون يتمتعون بالاستقلال في أعمالهم. وكانت مدينة قيس عظيمة الشأن ذات يوم، ثم جاء دور شبه جزيرة قشم، فهرمز التي أصبحت غنية بفضل تجارتها حتى باتت تسيطر على الخليج الأسفل. ثم جاء دور القطيف والحسا (الاحساء)، ومع تطور صناعة بناء السفن ومهارات الملاحة أصبحت عُمان قادرة على شن حملات لاحتلال المشيخات شبه المستقلة.

وفي عام ١٥٠٧ أبحـرت حملة برتغالية بقيادة ألْفونسو دي ألْبوكيرك في الخليج، مستعينة بخرائط قام بوضعها فاسكو دي غاما وغيره من كبار الرحالة والملاحين البرتغاليين في العقدين السابقين. لقد كانت هذه هي بداية الاهتمام الأوروبي بالخليج، ذلك الاهتمام الذي لم يقل ولكنه عرف تقلبات عديدة في القوى كتلك التقلبات التي حدثت في القرون السابقة.

كانت مدينة هرمز الواقعة عند مدخل الخليج أول مكان في الخليج يستولي البرتغاليون عليه. وكانت هرمز في بعض الأوقات عاصمة جميع الجزر ومدن الخليج الأسفل. وسمح البرتغاليون لملك هرمز بأن يبقى في منصبه وكان هذا المثال الأول لسياسة اتبعتها في ما بعد جميع الدول الأوروبية، سياسة الحكم عن طريق شخصيات محلية. وجعل البرتغاليون هرمز مركزاً تجارياً عظيماً، يتسلم اللؤلؤ من البحرين والمدن الساحلية، والتمور من بلاد ما بين النهرين، والبخور من قبائل الداخل، وسرعان ما اكتشف البرتغاليون، كغيرهم من الذين خلفوهم، أن المنافسات والمعارك المحلية عنت أنه من الصعب إدارة امبراطورية دون مشاركة فعالة من طرفهم. وهكذا عندما احتل مكرم، ملك الاحساء، كلاً من البحرين والاحساء من شيخ هرمز، عنى هذا فقدان الجزية التي كانت تُدفع للبرتغاليين.

فقرر حاكم هرمز البرتغالي أن يرسل حملة عسكرية بقيادة ابن اخته انطونيو كوريا لاعادة الأمور الى نصابها وليبرهن على أن البرتغاليين هم السلطة الوحيدة في الخليج. وأُجبر شيخ هرمز على ارسال أسطول لمساعدة أسياده البرتغاليين. ولكن قادته لم يدخلوا المعركة الا بعد أن أدركوا أن النصر سيكون حليف البرتغاليين. فهُزم مكرم وعادت البحرين والاحساء الى هرمز وبالتالي للبرتغال. ولكن شيخ هرمز الذي لم يكن راضياً بوضعه كتابع قام بتنظيم سلسلة من الثورات ضد البرتغاليين، بعضها كان ناجحاً وبعضها فشل. الا أنها جميعاً سببت متاعب للمحتلين.

تمكن البرتغاليون طوال القرن السادس عشر من المحافظة على سيطرتهم على الخليج الأسفل. ولقد كلفهم ذلك المال والرجال لأن حكمهم لم يكن محبوباً وكانت هناك ثورات محلية مستمرة. وكانت مسقط هي أكبر مصدر لمتاعب البرتغاليين، لأن هذه الأمة البحرية العظيمة، بأسطولها الضخم ومرافئها الآمنة، كانت تفترس البرتغاليين عندما كانوا يُرسلون سفنهم من قواعدهم في جاوا لاحباط الثورات الجديدة في الخليج. وهكذا دمر العمانيون في عام ١٦٤٥ أسطولاً برتغالياً أُرسل لاسترداد البحرين وهرمز. وما أن دخل العمانيون

الخليج نفسه واحتلوا هرمز والبحرين في نهاية القرن حتى باعوهما للفرس بعد ذلك بعشرين سنة.

في هذه الأثناء كانت طرق مواصلات البريطانيين والفرنسيين والهولنديين تتقاطع في جميع أنحاء العالم. وكان البريطانيون وحلفاؤهم الفرس هم الذين طردوا البرتغاليين من الخليج ذاته، ولكن العرب قاموا بذلك في مسقط بأنفسهم وغادر البرتغاليون مسقط مخلفين وراءهم أجمل نُصُب تذكارية لفترة احتلال، ألا وهي القلاع العظيمة التي تسيطر على ميناء مسقط ـ «المرسى» ـ الذي عُرف عند اليونانيين بإسم «الميناء المخفي». وكانت فتوحات كلايف في الهند هي التي جعلت الخليج مهماً بالنسبة لانجلترا، علاوة على النجاحات الفرنسية التي هددت مكانة بريطانيا في القارة الأوروبية. لذا أصبحت المحافظة على الهند، الجوهرة في التاج الامبراطوري البريطاني، مهما كلف الثمن من أهم أركان السياسة البريطانية. وكانت العلاقات مع بلاد فارس تتدهور بسبب التقارب المتزايد بينها وبين روسيا. لذا كانت شركة الهند الشرقية الموقرة حريصة كل الحرص على ضمان السلام في الخليج، وهو واحد من أهم الطرق بين بريطانيا والهند. وكانت رحلات فاسكو دا غاما قد فتحت طريق الرجاء الصالح وأدت مباشرة الى المنافسة في جزر الهند، حيث كان البرتغاليون والفرنسيون يتنافسون مع بريطانيا، في حين ذهب الهولنديون الى الشرق الأقصى بهدف السيطرة على تجارة التوابل.

بالنسبة لبريطانيا كانت هناك ثلاثة طرق مواصلات الى الهند: الرحلة حول رأس الرجاء الصالح وهي رحلة طويلة وغير مريحة وغالباً ما كانت خطرة. وهناك «الطريق البري» عبر البحر الأبيض المتوسط الى الاسكندرية، ثم عبر مصر الى أسفل البحر الأحمر. و «الطريق المباشر» عبر أوروبا حتى حلب في سوريا، ثم الى بغداد ومنها الى البصرة حيث كانت هناك رحلات منتظمة الى بومباي. وفي عام ١٧٩٣ كانت بريطانيا في حرب مع فرنسا كانت بداية نزاع طويل عُرف في ما بعد بالحروب النابليونية، وأصبح الطريق الى الهند الذي يمر عبر الخليج بالغ الأهمية. وعندما هزم الفرنسيون المماليك في معركة الأهرامات عام ١٧٩٨ أصبح هذا الطريق حيوياً. ولم يعن الاحتلال الفرنسي

لمصر قطع الطريق البري فحسب، بل ان التهديد للهند كان حقيقياً جداً، اذ قال نابليون بصراحة أن أحد أهدافه من غزو مصر هو «جعل بريطانيا ترتعش خوفاً على سلامة الهند». ولقد ارتعش البريطانيون حقاً، ولكن لبضعة أسابيع فقط، لأن تدمير نلسون للأسطول الفرنسي في أبو قير جعل هذا الخطر يتلاشى لأنه بدا من المستحيل أن يتمكن الفرنسيون من حشد أسطول جديد. وكان هناك شعور بالنشوة في الهند، حيث قررت شركة الهند الشرقية منح نلسون مبلغ ١٠,٠٠٠ جنيه استرليني عرفاناً بالجميل. إلا أن هذه الفرحة لم تدم. فقد تمكن نابليون من حشد أسطول في البحر الأحمر في غضون بضعة أشهر، وراح يشن عمليات حربية ضد الأتراك في بلاد الشام، مهدداً بذلك الطريق المباشر من جديد. وبالنسبة لشركة الهند الشرقية الموقرة لم يعد من المهم جداً تأمين الطريق المباشر الى الهند فحسب بل وثني حكام عُمان والخليج كذلك عن مساعدة الفرنسيين أو عن القيام بعمليات من شأنها أن تحوّل السفن الحربية عن مهمتها الرئيسية ألا وهي محاربة الفرنسيين في المحيط الهندي.

وكانت الشركة الموقرة قد أنشأت «مصنعاً»، كما كانت تُسمى محطاتها التجارية، في البصرة، وحتى عندما انخفض حجم التجارة هناك بحيث لم يعد يبرر التكاليف، احتفظت الشركة بمحطتها لضمان سرعة مرور الرجال والتقارير بين الشركة في الهند والحكومة البريطانية في لندن. فكانت سفينة واحدة على الأقل في الشهر تقوم بالرحلة. وعادة كانت هناك رحلات عديدة، لأن الشركة كانت قد أنشأت «مصنعاً» في بندر عباس في عام ١٦٢٣، وكانت سفن الشركة البحرية البريطانية و «طرادات» أسطول بومباي جميعها تزور شواطىء الخليج على فترات قريبة. وكانت رحلة «البريد الصحراوي» من الكويت حتى حلب تستغرق ما بين ١٤ ـ ٢٠ يوماً في حين كانت القوافل تقطع هذه المسافة في ٨٠ يوماً.

كانت التجارة مزدهرة بمحاذاة الساحل الهندي وعبر الخليج والبحر الأحمر. وكان اللؤلؤ بالطبع هو أثمن صادرات الخليج. ومن بين الصادرات الأخرى النحاس والعقاقير الطبية وماء الورد والفواكه المجففة والحرير الخام والقطن الخام والملح والتمور والجوز والتبغ والأفيون والصمغ والكمنجات

والمزامير. وكانت معظم هذه الأشياء تأتي من راس الخليج، من العراق وايران، وكـان هذان البلدان أيضاً أهم مستوردين من الهند، يستوردان الأجواخ والأقمشة القطنية والمنتجات الصوفية الانجليزية والحرير والقهوة والسكر والتوابل والعطور والنيلة والأواني الصينية والمعادن.

كانت بريطانيا هي القوة المسيطرة ولقد تُرك أمر ممارسة هذه القوة الى الشركة الموقرة الى حد كبير و التي كانت حكومة بحد ذاتها، وبدت غالباً كارهة لقيام الحكومة في لندن بإتخاذ القرارات. وكانت لها ثلاث رئاسات في البنغال ومدراس وبومباي، وجيش وأسطول خاصان بها. كما كان بإمكانها الاستعانة بالبحرية البريطانية والقوات البريطانية المرابطة في الهند. وكانت مسؤولية تأمين الطريق البحري الى الخليج والبصرة وحماية سفن الشركة في هذه المياه تقع ضمن مسؤوليات حاكم بومباي. وكان على قائد البحرية البريطانية أن يوفق بين واجبين متعارضين: محاربة الفرنسيين وقاعدتهم ماوريشيوس وحماية تجارة الشركة. وتطلب الواجب الأول تركيز قواته من أجل القضاء على الاسطول الفرنسي، وتطلب الآخر توزيع قواته لحماية الطرق البحرية من القراصنة الذين ملأوا السواحل.

وكانت الحاجة المتزايدة لحماية السفن من القراصنة هي التي أدت الى انشاء بحرية بومباي والتي كان واجبها الصريح هو حماية سفن الشركة الكبيرة والبطيئة نظراً لأنها كانت مبنية لنقل البضائع ولم تكن قادرة على الفرار اذا ما هوجمت. وكان على بحرية الشركة أيضاً حماية سفن التجار الهنود الذين كانوا يتاجرون مع الخليج وسفن حلفاءهم العمانيون التي كانت تبلغ حمولة بعضها ٣٠٠ طناً وكانت تحمل عدداً كبيراً من المسافرين والبحارة. وكانت هذه السفن تُستعمل أحياناً للقرصنة وقادرة على حمل حتى ٤٠ مدفعاً و ٢٠٠ من المحاربين في حالة تأهب لغزو السفن التجارية غير المسلحة جيداً اذا ما تمكنوا من الدنو منها. وفي الفترة ما بين مايو (أيار) وأكتوبر (تشرين أول)، عندما تُرسل الرياح الموسمية الجنوبية الغربية أمواجاً عالية وطويلة لترتطم بالساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية، كانت

الحـركـة التجارية تقل. وكانت المراكب الصغيرة فقط تقوم برحلات قصيرة بمحاذاة الساحل بين موانىء مجاورة.

وأثناء ما كان يُعرف في ذلك الحين بالموسم الصافي او المؤاتي، أي أثناء أشهر الشتاء التي تهب خلالها الرياح الموسمية الشمالية ـ الشرقية، كان التجار يُرسلون سفنهم الى الهند وما وراءها والى أفريقيا، الى حيث أرسل سلطان عُمان أسطوله لطرد البرتغاليين من ساحل أفريقيا الشرقي والاستيلاء على زنجبار التي أصبحت جزءاً من أراضيه والمركز الرئيسي لتجارة الرقيق. ولقد كان حجم التجارة العامة كبيراً لدرجة أن آلاف السفن والمراكب كانت في البحـار ما بين أكتوبر (تشرين أول) ومايو (أيار) ولقد كان عدد القراصنة أيضـاً كبـيراً. ولقرون عديدة كان رواد البحر من بين سكان ساحل عُمان الشمـالي وجزيرة مسندم ومنعطف الشاطىء الممتد بين رأس الخيمة وقطر ينهبون السفن التي كانت تمر عبر مضيق هرمز، مدخل الخليج الذي يبلغ عرضه ٣٦ كيلومتراً. وكانت القرصنة تعتبر مهنة مشرفة، بمثابة فرض جزية من قِبل أناس لم يكن لهم إلا أن يتطلعوا الى البحر لضمان معيشتهم.

يبدو عامة انه لم يكن يستخدم العنف الشديد فور استسلام السفينة ولكن اذا قاومت السفينة فلم تكن هناك رحمة! ولم يتوقع القراصنة رحمة اذا ما هُزموا. وكانت هناك حالات استثنائية مثل جاسم بن جابر سيء الصيت الذي جعل من الكويت قاعدة له وكان يستولي على السفن في الطرف الشمالي للخليـج. ولكن معـظم الضرر سببتـه قبائل ما أصبح يُعرف بإسم ساحل القـراصنـة التي كانت شوكـة في حلق البرتغاليين والفرنسيين والهولدنيين والبـريـطانيـين الذين تعـاقبـوا في السيـادة على التجـارة، وسعوا لحماية استثماراتهم وسفنهم ورجالهم.

ولم يكن إنعدام فرص أخرى فقط هو الذي جعل سكان الساحل يتجهون للقرصنة. فقد كانت هناك أيضا عوامل جغرافية أخرى. فالساحل يمتد في الاتجاه الجنوبي ـ الشرقي من رأس مسندم حتى الخليج وهو مليء بالأخوار والمخاطر المرجانية المحجوبة والألسنة الرملية التي تحمي مداخل الموانىء. وتمتد هذه الاخوار بين مرتفعات صخرية سوداء وهائلة في الجانب الشرقي

لسندم في خليج عُمان وفي اماكن أخرى من الخليج، فتنعطف وتلتوي، ثم تنفتح على ملاجىء سرية لا يمكن رؤيتها من البحر. وغالبا ما كان ربابنة السفن الذين صدوا هجمات القراصنة يقولون في تقاريرهم أن سفن القراصنة قد «إختفت» في مكان ما عند الساحل.

ولكن موانىء القراصنة أصبحت معروفة بالتدريج وسرعان ما تم تحديد رأس الخيمة كمقر رئيسي لأعمال القرصنة. وكانت المدينة الرئيسية لما أصبح ويعرف بإسم تحالف القواسم أو التحالف القاسمي الذي كان يتكوّن من قبائل تعيش على الساحل بزعامة شيخ رأس الخيمة، الى أن تعاظم شأن قبيلة بني ياس في أبو ظبي ودبي. وفي خليج عُمان، أو في جانب المحيط الهندي، كان البو سعيد بزعامة حاكم مسقط هم المذنبون. وكانوا جميعا يتعاونون في اوقات مختلفة، وسمحوا لقراصنة آخرين في اعالي الخليج مثل جاسم وبعض القراصنة الصغار من البحرين أو قشم أو قيس بأن يحصلوا على حصتهم إذ ما تمكنوا من ذلك. وكان القواسم أو «الجواسم» كما كانوا يُعرفون للبحارة البريطانيين بسبب اللهجة المحلية هم أكبر المشتركين في اعمال القرصنة، وكانوا يملكون اساطيل تتكون من مئات السفن السريعة والمرنة والمسلحة تسليحا جيدا، شكلت خطرا دائما على جميع السفن بإستثناء السفن المسلحة تسليحا جيدا أو سفن البحرية البريطانية أو سفن أسطول بومباي.

ثم بلغت الامور ذروتها بسبب حدث في قلب شبه الجزيرة العربية. ففي مطلع القرن الثامن عشر وُلد محمد بن عبد الوهاب في العيينة في نجد، وسرعان ما أظهر قدرات استثنائية. فيقال مثلا انه حفظ القرآن ببلوغه سن العاشرة. وكان متعطشا للمعرفة وسريع البديهة. فأُرسل الى المدينة المنورة والبصرة وبغداد، وحتى الى دمشق على بُعدها، لمتابعة دراسته. وعاد الى بلده عاقدا العزم على تخليص الاسلام من الشرور والبدع التي كانت قد تسللت للدين الحنيف، والعودة الى الاصول. ووجد نصيرا في شخص الامير محمد بن سعود، حاكم الدرعية. وبعد وفاة الامير محمد عام ١٧٦٥ أخذ ابنه عبد العزيز يوّسع إمبراطورية نجد عبر شبه الجزيرة العربية. فإنتشرت تعاليم المصلح محمد بن عبد الوهاب وإعتبر كل من لا يتقبل هذه التعاليم بمثابة

كافر من واجب المؤمن ان يرده الى الطريق المستقيم حتى ولو بالقوة. وهكذا اصبح شن الحرب نمط حياة. وارسلت الامبراطورية العثمانية الجبارة حملتين ضد الوهابيين، الا انهما مُنيتا بالفشل الذريع. إذ كان بإستطاعة عبد العزيز ان يجند ٥٠،٠٠٠ رجل، معظمهم على ظهور الجمال، كما ذكر هارفورد جونز، ممثل شركة الهند الشرقية في بغداد. وأخيرا تم وقف الوهابيين على حدود عُمان التي يتبع أهلها المذهب العبادي.

فبعد معركة البريمي غير الحاسمة، وقّع العثمانيون والوهابيون على هدنة تركت بعض الواحات هناك تحت سلطة عبد العزيز. فبنى حصنا مكنه من التحكم بإحدى طرق المواصلات التي تربط الساحل بمسقط، مما زاد عزلة بني ياس والقواسم. وكانت لهذه الخطوة أيضا مضاعفات في القرن العشرين عندما نشب نزاع البريمي بين أبو ظبي وبريطانيا والسعودية. ولم يجد عبد العزيز صعوبة في جعل نزاع قبائل الساحل تابعة له، الأمر الذي لم يعن أكثر من دفع الجزية له أحيانا عندما كان يطلب ذلك أو عندما كان الجباة يحضرون.

كان لهذه الخطوة في الشؤون الدولية أهمية بالغة. فشن الحرب ضد الكفار هو ركن من أركان الوهابية. وفي ذلك الحين كانت سياسة بريطانيا وسياسة شركة الهند الشرقية عدم التدخل في شؤون قلب الجزيرة العربية. وكانتا تصدران دائما تعليمات لمبعوثيهما بعدم التحيّز الى أحد في الخلافات بين الشيوخ والنزاعات حول دفع الجزية والنزاعات بين البلدان. وكانت بريطانيا أكثر من أية دولة اوروبية قوة بحرية وكانت عاقدة العزم على المحافظة على هذا الدور في الخليج. وكان همها هو المحافظة على سلامة طرق المواصلات البحرية وعلى حرية الملاحة والتجارة، وليس افعال أمراء صغار أو حكام متنافسين في قلب بلدان لا يُعرف عنها الا القليل.

إتجه الوهابيون بعد أن جرى وقفهم في البريمي مرة أخرى شمالا وغربا الى مكة المكرمة المدينة المنورة ثم عادوا لاتمام ما كانوا قد بداوه ضد عُمان. وأُجبر أحمد، حاكم عُمان، هذه المرة على التنازل لعبد العزيز الذي ربما انقذ

إغتياله عام ١٨٠٣ عُمان من الغزو والاخضاع التام. وهكذا تعهد أحمد بدفع الجزية، الا انه بقي عاقدا العزم على تخليص بلاده من هذه التبعية. فأبحر عام ١٨٠٤ من مسقط الى البصرة وهو متلهف للتوصل الى تحالف مع الاتراك الذين كانوا يخططون لشن حملة جديدة ضد الوهابيين. الا انه قُتل وهو في طريقه الى بغداد في إحدى الاشتباكات البحرية الصغيرة التي لا تُحصى والتي كانت تميّز كل رحلة في ذلك الحين على ما يبدو. وتختلف الروايات حول كيفية مصرعه.

ونشب خلاف على الخلافة في عُمان بين ابنائه وإبن أخته بدر بن سيف الذي خرج منتصرا على ما يبدو وبحوزته مسقط بقلعتيها ومرساها الآمن. ومن الناحية النظرية كان الوهابيون لا يزالون في حرب مع عُمان، وكانوا يواصلونها بواسطة اتباعهم: القواسم وبواسطة البحرينيين أيضا، حيث اصبحت السلطة بيد آل خليفة من قبيلة العتوب الكويتية الذين كانوا أيضا خاضعين للسيادة الوهابية. وشجع الوهابيون الكوتيين والبحرينيين والقواسم على مهاجمة سفن الكفار ـ أي سفن كل ما لا يتبع التعاليم الوهابية ـ وكانوا يأخذون خُمس ريع اعمال القراصنة. ونمت اسواق كبيرة في هرمز وقشم والأماكن الأخرى لبيع الغنائم.

وكان حاكم عُمان قد اصبح حليف برطانيا الوحيد في البر وهكذا واجهتالحكومة في بومباي مشكلة صعبة عندما توفي أحمد. من هو الوريث الشرعي؟ فتم ارسال ضابط في البحرية كان قد زار عُمان من قبل كمبعوث خاص، إقترح عندما عاد الى بومباي أن تقوم طرادات أسطول بومباي بمساعدة أسطول بدر الذي كان يحاول تطهير طرق المواصلات البحرية وإلحاق الهزيمة بالقواسم. ومن الواضح ان هذا كان إنحراف جذري عن سياسة الحياد الصارم التي كانت بريطانيا تتبعها في شبه الجزيرة العربية. ولم يكن حاكم بومباي وحده قادرا على حماية الممرات البحرية التجارية بمحاذات ساحل الخليج وساحل عُمان، وكانت البحرية البريطانية لا تزال مشغولة بالحرب مع فرنسا، وكانت تكاليف تقوية القدرات الدفاعية لسفن شركة الهند الشرقية باهظة جدا. وهكذا وافق الحاكم ومجلسه على مساعدة

بدر ولكن بشرط تجنُب استفزاز نشوب حرب مع الوهابيين. وفي أمر يمكن ان يُعتبـر البشير للتعليمات التي تصدر الآن لجميع قوات حفظ السلام، مَنع المجلس ايـة سفينة بريطانية من اطلاق النار ما لم تطلق عليها النار أولا. وكانت النتيجة أن القراصنة الذين كان يُعثر عليهم وهم منهمكون في اعمال النهب يتمكنون من الفرار بالامتناع عن اطلاق النار على السفن البريطانية، وهذه حقيقة إكتشفها القواسم بسرعة!

وبحلول عام ١٨٠٥ بلغت جرأة القواسم حد عبور الخليج وإحتلال ميناء بندر عباس الفارسي، وأصبحوا يتحكمون بجانبي الخليج ومعظم طوله. ولم يأبهوا كثيرا بجنسية السفن التي كانوا يهاجمونها. وكان صموئيل مانيستي، ممثل شركة الهند الشرقية في البصرة قد قال محذرا في نهاية القرن الثامن عشر «يجب عدم إكـراه (أيـة) سفينة بريطانية ضعيفة وغير مسلحة على القيام بالرحلة من أي من الموانىء الهندية الى البصرة. إن السفن والجلابيت التابعة لأي من موانىء الخليج الفارسي المختلفة هي سفن ذات قوة معتبرة والعديد من ملاحيها، ولا سيما الذين ينتمون الى الجزر والسواحل المحاذية لهرمز هم جشعون وميالون لارتكاب أعمال عنف لا مبرر لها. وفي حالة مصادفتهم فإن المقدرة على الدفاع عن النفس هي افضل ضمان لسلوكهم الحسن يمكن أن يكون لدى قائد سفينة إنجليزية». وكان على هذه المقدرة للدفاع عن النفس أن تكون معتبرة: فلقد قُطعت ذراع قبطان سفينة تجارية بريطانية شوهد وهو يطلق بندقيته على القراصنة. وتمت حتى مهاجمة الطراد مورنينْغتون المسلح بأثنين وعشرين مدفعا والتابع لأسطول بومباي من قِبل اربعين سفينة ولكن الطراد تمكن في تلك المرة من هزيمة المهاجمين. وكانت هناك دلائل كثيرة على ازدياد جرأة القراصنة. وهكذا صدرت الاوامر لأسطول بومباي بالتعاون مع بدر. فقـام بمرافقة أسطول عُماني الى قشم حيث جرت معركة مع اسطول الشيخ سلطان بن صقر، حاكم رأس الخيمة، كان مكوّنا من ٣٠ سفينة، هُزم فيها الاخير. وأجبر الشيخ سلطان على تلمس السلم. وهكذا تم توقيع أول معاهدة بين بريطانيا وحاكم خليجي وكان ذلك في فبراير (شباط) ١٨٠٦.

وجرت مراسم التوقيع في بندر عباس وكان ذلك بمثابة إعتراف بأن هذا

الميناء الفارسي كان تابعا للقواسم. وكانت المعاهدة مع الشيخ سلطان وحده وغير مُلزمة لأي حاكم خليجي آخر. ومع ذلك بدت خطوة هامة بالنسبة لشركة الهند الشرقية، ربما لأنها اعتقدت بأن الشيخ سلطان كان اقوى مما كان في الواقع. وبكل تأكيد أوحت المعاهدة بذلك. قال البند الاول: «سيكون هناك سلام بين شركة الهند الشرقية الموّقرة وسلطان بن صقر الجواسمي وبين جميع اتباعه ورعاياه على ضفاف شبه الجزيرة العربية وفارس، وسيحترمون عَلَم وأملاك شركة الهند الشرقية الموّقرة ورعاياها اينما كانت وأنّى كانت، وتتعهد شركة الهند الشرقية بالمثل تجاه الجواسمي».

وأصر الكابتن دافيد سيتون، قائد الطراد مورنينْغون، الذي كان قد ألح على التعاون مع السلطان بدر، أصر على إعادة السفينة البريطانية تريمَر التي كان القراصنة قد استولوا عليها، إلا أنه وافق على السماح للشيخ سلطان بالاحتفاظ بمدافعها وحمولتها، الامر الذي أوحى بضعف المواقف البريطانية والعُمانية. ومع ذلك تمكن الكابتن سيتون من العودة الى بومباي ومعه معاهدة خطية، كانت الاولى من نوعها في الخليج. وكانت جميع المعاهدات السابقة قد أُبرمت مع عُمان، التي كانت أكثر الدول استقرارا في المنطقة، بالرغم من النزاع الذي نشب بعد الحملة حول قشم. إذ تم اغتيال بدر في قلعته وإستولى إبنا أحمد على السلطة وأصبح سعيد سلطان عُمان وبقي في هذا المنصب لمدة زادت على خمسين سنة.

لقد كان سعيد شجاعا وذكيا، وأدرك بأن عليه ان يوطّد سلطته في وقت مبكر. وهكذا حافظ على علاقات طيبة مع بريطانيا وعمل ما بوسعه لاسترضاء الوهابيين. وعندما أرسل القواسم قوات الى ساحل الباطنة في عُمان وبنوا حصنا في بركا فوّض شيخ صحار قيس بمحاصرته. ولحسن الحظ قُتل قيس، في حين قرر سليم، أخو سعيد، بأنه ليس رجل افعال وقرر أن ينسحب الى الداخل وتكريس حياته في طلب العلم والاعمال الصالحة.

وكالمعتاد كان للأحداث في أوروبا تأثير على الهند التي كانت مستعمرة بريطانية وبالتالي على الخليج. وكانت فرنسا قد قررت إبرام معاهدات مع بلاد فارس ومع روسيا. ومرة أخرى، كان طريق المواصلات عبر الخليج حيويا

لبريطانيا وكان من المهم تحسين العلاقات مع بلاد فارس ـ إذ كان أمير شيراز، سيّد الاراضي الفارسية الواقعة على ضفاف الخليج، يشكو من التدخل البريطاني في الملاحة هناك.

في عام ١٨٠٧ أُرسلت فرقة بحرية بريطانية الى الخليج لاستعراض عضلاتها سعيا الى للتأثير في الفرس والفرنسيين الى حد بعيد. ولكن النتيجة الرئيسية كانت ردع القواسم عن القيام ببعض أعمال القرصنة الصارخة لبضعة أشهر. الا انهم عادوا الى تلك الاعمال في السنة التالية بهمة لم يسبق لها مثيل. وارتكبوا خطأ بمهاجمة سفينة بريطانية كانت عائدة الى بومباي وعلى متنها أعضاء بعثة كان الحاكم العام قد ارسلها الى بلاد الفرس. وشاهدت سفينة حربية بريطانية قريبة ما حدث. وعندها عاد قائدها، الكابتن روبرت كوربيت، الى الهند قدم وصفا دقيقا لما حدث. فوصف في تقريره كيف ان مئات من القراصنة كانوا في سفينة هاجموا السفينة الشراعية البريطانية سيلفْ وقطعوا رؤوس البحارة الهنود ثم جروا السفينة الشراعية الى قاعدتهم. ومضى التقرير يقول بأن كوربيت لحق بهم واجبرهم على ترك السفينة الشراعية. وأنه أنقذ قائدها الجريح وأعضاء البعثة الذين لجأوا الى باطن السفينة، ثم اشتبك في معركة مع السفينتين، فأغرق احدها والحق اضرارا بالغة في الاخرى قبل ان تتمكن من الاختفاء. وكتب الكابتن العملي «لقد تمنيت ان تتمكن من الفرار لأني أعتقد بأن معاناتهم ستكون عبرة أفضل لغيرهم بدلا من هلاكهم». ولاحظ التقرير التسليح الجيد ومهارة البحارة وثبات عزم القراصنة وعدد السفن التي يستطيع القواسم وحلفاؤهم ان يحشدوها، ربما أكثر من سبعين سفينة.

وبعد سنة من الهدوء، عاد الخطر من جديد الى الخليج، في وقت جعل الخطر الفرنسي بريطانيا تشعر بأن عليها ان تفعل كل ما بوسعها للمحافظة على طرق المواصلات المؤدية الى الهند. ومما زاد الطين بلة أن القواسم لم يعودوا يكتفون بنهب السفن في الخليج أو قبالة ساحل عُمان، بل اصبحوا يشنون هجماتهم في مياه المحيط الهندي. وبات من الواضح أن معاهدة عام ١٨٠٦ مع الشيخ سلطان باتت لاغية وأنه يجب القيام بعمل ما.

وهكذا إتصلت بريطانيا بحليفها في المنطقة: سلطان عُمان سعيد. واقترحت عليه القيام بحملة للقضاء على القراصنة ودعته للمشاركة فيها بسفنه وتوفير قاعدة آمنة للحملة، علاوة على المؤن والمرشدين. وجاء سعيد بتاجر فارسي يدعى سيّد تقي سبق له أن زار راس الخيمة مرة واحدة، قام برسم خارطة تقريبية كانت كل ما اعتمد عليه البريطانيون عندما شنوا هجومهم. وتم في بومباي تجميع أسطول وتم اختيار أفواج من الجنود الهنود والأوروبيين مع مهندسين وفرسان ومدفعية لأن الحكومة والمجلس قرروا القضاء على القراصنة الى الأبد، وأدركوا بأن حرباً في البحر لن تكفي لتحقيق هذا الهدف. وأنه من الضروري مهاجمة قواعدهم وتدميرها وحرق سفنهم. وبدا أن بريطانيا كانت عاقدة العزم على وضع حد للمضايقات التي كانت تتعرض لها تجارتها.

وبحلول سبتمبر (ايلول) ١٨٠٩ كان كل شيء جاهزاً، فغادرت الحملة بومباي ووصلت مسقط في أواخر أكتوبر (تشرين الأول)، حيث تم التزوّد بالماء والمؤن، وكان المرشدون جاهزين والسفن الصغيرة التي أعدها سعيد جاهزة. وبتاريخ ١١ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٠٩ اقترب الأسطول من ساحل القراصنة وكان الملازم جوشوا ألن في السفينة الصغيرة برينس أوف ويلز أول من بدأ الهجوم بإطلاق نيران مدفعيته على حصن رأس الخيمة بينما كان يحاول الدنو من سفينة قراصنة كانت قد ارتطمت باليابسة أثناء محاولة يائسة للّجوء الى الميناء. وفي اليوم التالي اشترك الأسطول كله في قصف تحصينات المدينة التي كانت عبارة عن سلسلة من الخنادق والسدود الرملية على امتداد اللسان الرملي الذي يحمي الميناء، علاوة على الحصن نفسه. وردّ القواسم على النار بالمثل، بمهارة ودقة جعلت القادة الانجليز يُدركون بسرعة بأن عليهم القيام بهجوم على اليابسة إن هم أرادوا القضاء على القواسم ومنع التعزيزات من موانىء أخرى بمحاذاة الساحل أو من البريمي من وصولهم. وهكذا تم في الساعة الثانية صباحاً يوم ١٣ نوفمبر (تشرين الثاني) انزال جنود بريطانيون وهنود في السفن الصغيرة التي قدّمها سعيد. وعند الفجر اتجه أسطول السفن الصغيرة هذه الى المدخل الرئيسي للميناء. وهرع

المدافعون من جميع أنحاء المدينة لصد الهجوم. وما أن بدأ الاشتباك حتى ظهرت القوة الانجليزية الضاربة من وراء سفن الأسطول البريطاني واتجهت الى شاطىء جنوب البلدة.

ونجح الأسلوب ولكن ببطء اذ قاتل المدافعون العرب على كل شبر من الأرض. وأشعل البريطانيون النار في الأكواخ والبيوت أثناء تقدمهم. وكانت الريح مواتية اذ دفعت الدخان باتجاه المواقع العربية ووفرت بذلك تغطية للمهاجمين. وتم احتلال قصر الشيخ بعد ظهر ذلك اليوم، وبحلول الليل كانت المدينة في أيدي البريطانيين. ومع ذلك لم يستسلم المدافعون اذ واصل آخرهم القتال في الطرف الشمالي لشبه الجزيرة الضيّقة التي تحمي الميناء، ثم فروا في قارب. في هذه الأثناء قام البريطانيون بتدمير المدينة، في حين قامت مجموعات من البحارة بإحراق سفن القراصنة أو بإغراقها اذا كانت المياه عميقة. وتم تفجير كميات كبيرة من البارود، وسرعان ما أصبحت مدينة رأس الخيمة عبارة عن خربة مهجورة يتعالى منها الدخان. وثبت أن تشاؤم السلطان سعيد حول فُرَص وصول الشاطىء وتدمير المكان كان خاطئاً: فلقد تم قتل أكثر من ٤٠٠ رجل من القواسم مقابل مقتل أربعة وجرح أربعة عشر من الجانب البريطاني.

واتضح بأن هذا كان نصراً أجوفاً، اذ سرعان ما شوهدت التعزيزات العربية وهي تقترب وبما أن الأوامر كانت قد صدرت للبريطانيين بتجنب نشوب حرب مع الوهابيين على اليابسة، أمر القادة البريطانيون جنودهم بالعودة الى سفنهم. ولاغرابة في أن العرب اعتبروا هذا انسحاباً في وجه قوة أعظم وراحوا يسخرون ويهزأون من البريطانيين واعتقدوا بأن العملية كانت مجرد غارة وأن البريطانيين لم يكونوا أقوياء بما فيه الكفاية للصمود في وجه جيش عربي حقيقي. وبعد أربعة أيام تم تدمير ٢٠ سفينة أخرى للقراصنة في لنجة دون مقاومة. وتم فحص الموانىء الأخرى دون العثور على سفن قراصنة هناك. ثم استعد الأسطول يوم ٢٦ نوفمبر (تشرين الثاني) لمهاجمة لفت في جزيرة قشم التي اعتُبرت وكر القراصنة الرئيسي بعد رأس الخيمة. ولم تسر الأمر على ما يرام هذه المرة بالنسبة للبريطانيين: فلقد سمح القواسم

الذين كانوا في الحصن للمهاجمين بالاقتراب من الأسوار التي يبلغ سمكها ١٤ قدماً وإحضار مدفع هاون لتفجير الأبواب، ثم راحوا يطلقون نيراناً مميتة وعنيفة على المهاجمين أجبرتهم على التراجع مخلفين وراءهم مدفعهم الثقيل. وعجز البريطانيون عن التقدم بسبب كثافة النيران وأخيراً وتحت جنح الظلام عادوا الى سفنهم. ثم حذروا القائد العربي الشيخ حسين بأنه ما لم يستسلم فإن مدافع الأسطول بكامله ستدمر الحصن الذي كان قد تضرر كثيراً من نيران مدافع الأسطول الصغيرة التي تمكنت من الاقتراب من الشاطىء بفضل ضحالة غاطسها.

ولم يتضح أبداً ما اذا كان حسين قد استسلم بموجب شروط ضمنت له ولرجاله السلامة، أو أنه وجنوده اختفوا في الليل. ومهما كان الأمر فبحلول الفجر كان جميع العرب قد غادروا المكان وتمكن البريطانيون من احتلال الحصن وتدمير سفن القراصنة. وفي هذه المرة كانت خسائرهم عالية اذ تم قتال وجرح أكثر من ٧٠ رجلاً، في حين كانت خسارة العرب خلف أسوارهم السميكة أقل على ما يبدو. وبما أن خبر ما حدث قد انتشر بسرعة في أنحاء الخليج، تمكن البريطانيون من النزول في الموانىء الأخرى دون معارضة: رمس والجزيرة الحمراء والشارقة، ودمروا كل السفن التي وجدوها هناك. وعندئذ أدرك السلطان سعيد الذي كان يشك في مقدرة البريطانيين في البداية ان بإمكان قوة النيران والانضباط أن يتغلبا على أعداد أكبر من الرجال. فطلب من البريطانيين مساعدته على استرداد جزء من أرضه احتله الوهابيون والقواسم في خورفكان وشناص. فوافق البريطانيون وبتاريخ ١ يناير (كانون الثاني) ١٨١٠ حاصروا المكان، وبعد ثلاثة أيام من القصف بالمدفعية الثقيلة التي نقلت الى الشاطىء تم اجتياح الحصن واحتلاله. وتمكن البريطانيون هذه المرة من العودة الى سفنهم بصورة منتظمة وهم يجهلون أن جيشاً وهابياً كان في طريقه الى البريمي.

وتمت إعادة الجنود الى بومباي في حين بقيت طرادات بحرية بومباي وسفن البحرية البريطانية الصغيرة في الخليج لبضعة أشهر، تزور الموانىء وتحذر الشيوخ من مساعدة القراصنة وتحرق أية سفينة يُعتقد بأنها استُعملت من

قِبَل القراصنة. ولسوء حظ البريطانيين لم يجر مسح شامل لساحل الخليج من قبل، وكان من المتعذر رؤية الأخوار العميقة والموانيء المحاطة باليابسة من البحر. وعادت السفن البريطانية الى الهند وهي تعتقد بأنها أنجزت مهمتها. إلا أنها كانت في واقع الأمر قد دمرت جزءاً صغيراً من أسطول القراصنة ذلك أن عشرات السفن لم تُكتشف في الأخوار والموانيء. كذلك لم يجد القواسم صعوبة في استيراد خشب الساج والحديد الضروريين في بناء سفن جديدة. وكان الفرنسيون سعداء بتزويدهم بمدافع جديدة وبالذخيرة. وفي بومباي البعيدة يبدو آن أحداً لم يُدرك صغر ما تم انجازه، بل كانت هناك تهاني. فكتب الحاكم العام للهند الى حاكم بومباي يقول «ان النجاح التام الذي لازم عملية حملة خليج فارس يدفع الى الشعور بأعظم رضى ويضفي شرفاً عظيماً على الكابتن وينرايت والمقدم سميث (قائد الحملة) الذين قاما على ما يبدو بجميع العمليات التي عُهدت اليهم بحماس مميز وبتعقل وبحزم ومقدرة».

ومع ذلك لم يُفعل شيء لاستبدال معاهدة عام ١٨٠٦ وكان هذا أصلا الهدف الرئيسي للحملة. إن هزيمة الفرنسيين في إيل دي فرانس عام ١٨٠٩ وتحوّل تلك الجزيرة من قاعدة للعدو الى موريشيوس الصديقة، الأمر الذي سمح بتحويل سفن حربية الى الخليج للقيام بأعمال الدورية هناك هي التي مكنت من استمرار السلام لمدة أطول قليلاً. وكان وضع السلطان سعيد، حليف بريطانيا، أسوأ من أي وقت سابق: ففور انسحاب البريطانيون قام الجيش الوهابي الذي أُرسل من البريمي بمهاجمة قواته وبطرده حتى صحار. ونتيجة لتعاون السلطان سعيد مع البريطانيين، هدد الوهابيون ذات مرة عاصمة مسقط، وفي نهاية المطاف أنقذته وفاة قائد الجيش الذي بات على حدوده، والجهود التي قام بها خديوي مصر من أجل احتلال شبه الجزيرة العربية بإسم الامبراطورية العثمانية ـ فذات مرة امتدت الامبراطورية الوهابية من حدود عُمان حتى دمشق، ولكن بحلول عام ١٨١٥ تمكن العثمانيون من اعادة تثبيت سلطتهم وأُجبر الحاكم الوهابي عبد الله على الاعتراف بسيادتهم.

لو كانت وجهات نظر الاداريين البريطانيين في بومباي صحيحة، لكان من المفروض أن يكون لهذه النكسة الوهابية أثراً سيئاً على القواسم. إلا أنها في واقع الأمر لم تضعف قوتهم على الاطلاق. ولم تكن أية سفينة في الخليج آمنة وسرعان ما عادت أساطيل كبيرة تابعة للقواسم للعمل أمام السواحل الهندية. لقد استبدل القراصنة السفن التي تضررت في الحملة الأولى بغيرها وأضافوا اليها. وكان باستطاعتهم تجنيد ١٠,٠٠٠ آلاف رجل، كما كانت بحوزتهم كميات هائلة من المؤن التي سلبوها من السفن التي استولوا عليها. ورفعت سلسلة من الأحداث معنوياتهم أيضاً. ففي عام ١٨١٦ أُرسلت ثلاث سفن حربية بريطانية الى رأس الخيمة لطلب اعادة سفن بريطانية تم الاستيلاء عليها، والتفاوض مع القراصنة حول معاهدة جديدة. وخلال أربعة أيام من المفاوضات تحوّل القواسم من المهادنة الى الضراوة وبات من الواضح أن الكلام لن يحقق شيئاً.

وقرر القائد البريطاني الذي كان حديث العهد بالخليج أن يُعبر عن استيائه: وعندما شاهد أربع سفن مكتظة بالرجال المسلحين أمام الميناء في اللحظة التي كان يستعد فيها للاقلاع، اقترب منها بقدر المستطاع وأطلق النار عليها. ولكنها كانت لا تزال أبعد من مدى مدافعه. وفشل البحارة البريطانيون في الاقتراب منها أكثر بسبب ضحالة المياه، وهكذا ابتعدت السفن البريطانية وسط صيحات الاستهزاء العربية وكان هذا الحدث الثاني من نوعه في رأس الخيمة. وفي عام ١٨١٨ ظهرت مجموعة من السفن البريطانية الحربية في البحرين بهدف محاولة ترتيب تبادل للأسرى. وشاهد القائد الانجليزي سفناً هناك اعتقد بأنها تابعة للقراصنة فأمر بإحراقها في ميناء المنامة. ولكن السفن كانت في الواقع تابعة لبني ياس المسالمين، وتعيّن على شركة الهند الشرقية في بومباي المُحرجة أن تدفع تعويضات لأصحابها!

وكان البريطانيون قد اتخذوا قراراً مبدئياً بإرسال حملة ثانية الى الخليج، الا أن التزامات في أماكن أخرى حالت دون ذلك: في شبه القارة الهندية بالنسبة للجيش وفي الشرق الأقصى بالنسبة للبحرية. ولم يكن بالامكان القيام بأي عمل حتى عام ١٨١٩. وفي الفصل المواتي لتلك السنة، في شهر نوفمبر

(تشرين الثاني)، شُكلت الحملة وأرسلت الى الخليج. وفي هذه المرة، علاوة على أمر تدمير جميع سفن القراصنة التي يمكن العثور عليها وتدمير مخازنهم، صدرت للقائد الانجليزي الجنرال السير وليام كير تعليمات بإحتلال رأس الخيمة حتى تتضح نوايا الجيش العثماني بقيادة ابراهيم باشا ـ لقد كان الباب العالي يحاول مرة أخرى ـ تثبيت سلطته في الجزيرة العربية. إلا أن ابراهيم باشا هُزم قبل وصول البريطانيين الى رأس الخيمة بزمن طويل، ولو أنهم كانوا يجهلون ذلك، وكالمعتاد تعيّن على السلطان سعيد من جديد توفير قوات ومؤن للهجوم، علاوة على المعرفة المحلية والتقديرات السياسية التي كان البريطانيون يفتقرون اليها. وفي هذه المرة تم انشاء قاعدة أمامية في جزيرة قشم ومنها شُن الهجوم على رأس الخيمة بتاريخ ٣ ديسمبر (كانون الأول). وتم اتباع نفس الأسلوب الذي استُعمل قبل عشر سنوات للانزال الأولي مع مزيد من الحرص. فتم انزال مدافع ثقيلة وجميع معدات الحصار التي اعتُبرت ضرورية لقهر مدينة محصنة. وبعد ستة أيام من القصف المدفعي والمناوشات المتقاطعة التي كلفت البريطانيين ٥٥ قتيلاً، صدر أمر بشن الهجوم الشامل. ولقد توقع القادة بناء على ما حدث في السابق مقاومة عنيفة. ولدهشتهم لم يدر قتال على الاطلاق. اذ انسحب المدافعون المنهكون تحت جنح الليل وتمكن البريطانيون من احتلال المدينة بلا مقاومة! وكالمعتاد، لم يستسلم العرب، اذ راح الشيخ حسين بن علي زعيم رمس يستعد لتحدي البريطانيين في حصنه في زايا القائم على تلة في نهاية خور طوله خمسة كيلومترات. ومع أنه لم تكن هناك سفن قراصنة، أدرك البريطانيونن أخيراً بأن عليهم أن يظهروا كمحتلين لا كغزاة. فصدرت الأوامر بالتقدم نحو زايا. وبعد ثلاثة أيام من القصف بالمدافع الثقيلة، استسلم المدافعون وتم اخراج ٣٩٨ رجلاً و ٤٠٠ امرأة وطفل من الحصن.

وبالقضاء على هاتين العقبتين الكبيرتين، أصبح بإمكان الأسطول الآن أن يبحر بمحاذاة الساحل على مهل وأن يدمر أو يستولي على سفن القراصنة التي تصادفه. وفي هذه المرة، تُركت حامية في رأس الخيمة وتم تعزيز قاعدة الحملة في قشم كي يُدرك العرب بأن القوة العظمى في الخليج ستبقى هناك

اذا دعت الحاجة. وبحلول شهر فبراير (شباط) قرر الجنرال كير أن المهمة العسكرية اكتملت، اذ تم تدمير ٢٠٢ سفينة للقراصنة أو الاستيلاء عليها، كان نصفها في الهجوم الأول على رأس الخيمة. وقُدرت قيمة الأضرار التي لحقت بالسفن والممتلكات. بحوالي ٢,٠٧٣,٥٦٥ روبية أو ما يعادل ١٦٠,٠٠٠ جنيه استرليني تقريباً حسب سعر الصرف في ذلك الحين.

والآن سعى الجنرال كير الى ابرام سلسلة المعاهدات التي جعلتها بومباي جزءاً من مهمته. ولم يواجه مشاكل تُذكر في ترتيب اتفاقيات تمهيدية مع كل من الشيوخ الذين سلموا موانئهم أو معاقلهم له. فقام سلطان بن صقر بالتوقيع نيابة عن الشارقة وعجمان وأم القوين التي كانت آنذاك تابعة لرأس الخيمة، ووقّع الشيخ شخبوط نيابة عن أبو ظبي، وفي البحرين وافق الشيخ عبد الله بن خليفة على إصدار مرسوم يمنع رعاياه من المتاجرة بالبضائع المنهوبة. وكانت كل من هذه الاتفاقيات قد كُيّفت مع الظروف الخاصة لكل شيخ أو مكان، بيد انها جميعاً تضمنت بنداً يمنح الموقعين حق الدخول في «معاهدة عامة» ان هم شاءوا ذلك ـ وكان هؤلاء يدركون جيداً عواقب امتناعهم عن ذلك.

تم ابرام هذه المعاهدة العامة في يناير (كانون الثاني) ١٨٢٠ في رأس الخيمة، التي أصبحت قاعدة القوات البرية للحملة وحيث عمل الكابتن بيرونيت تومْسون كمترجم ومفاوض نيابة عن الجنرال كير، الذي عُيّن قائداً للحماية ووكيلاً سياسياً عندما عادت أغلبية القوة البريطانية الى الهند. بدت المعاهدة العامة متفائلة منذ البداية ودلت على تفهم أحسن للغة وعادات العرب من السابق. وهكذا بدأت بالجملة العربية المعتادة «بسم الله الرحمن الرحيم» ومضت تقول «الحمد لله الذي قضى بأن يكون السلام بركة لمخلوقاته. يُقام سلام دائم بين الحكومة البريطانية والقبائل العربية التي هي أطراف في هذا العقد، بموجب الشروط التالية». ثم مضت المعاهدة تقول بأن القرصنة ستنتهي وأن على السفن العربية التابعة للدول التي هي طرف في المعاهدة أن ترفع علماً أبيض وأحمر علامة على نواياها السلمية وأن تحمل أوراق خاصة بكل سفينة تشمل اسم السفينة وطولها وعرضها وحمولتها، الخ وأن للحكام

العرب الموقعين على المعاهدة الحق في ارسال بعثات الى المقيم البريطاني في الخليج. وأن يرسلوا سفنهم الى الموانىء البريطانية للتجارة.

ومنعت اعدام الأسرى بعد أن يكونوا قد استسلموا، ولدهشة العرب منعت أيضاً «حمل العبيد والرجال والنساء والأطفال من سواحل أفريقيا أو اي مكان آخر، ونقلهم في السفن». ويُقال أن هذا البند أدخله الكابتن تومسون، ابن واعظ عمل في نفس الشركة في مدينة هَل الانجليزية مع وليام ولبرْفورس، المناضل العظيم ضد العبودية. ولقد كان تومسون فخوراً جداً بهذا البند، والذي كان الأول من نوعه في أية اتفاقية رسمية، وسبق القانون الذي حظر على البريطانيين المشاركة في تجارة الرقيق بثلاث عشرة سنة. وفي الواقع يبدو أن الشيوخ العرب لم يفهموا معنى هذا البند، وحتى لو أنهم فهموه فإنهم بكل تأكيد لم يكونوا ليطيعوه. ففي الستينات من القرن الماضي قُدر عدد العبيد الذين كانوا يُشحنون من شرق أفريقيا الى الخليج بنحو ١٠,٠٠٠ سنوياً. وكانت سور وغيرها من موانىء ساحل الباطنة هي مراكز التوزيع الى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية. وفي مطلع القرن الحالي كان لا يزال نحو ١٠٠٠ عبد يُشحنون سنوياً الى عُمان. وعندما أطاح انقلاب أوعز به البريطانيون بالسلطان سعيد بن تيمور عام ١٩٦٩، تم العثور على عبيد في قصره مُنعوا من التكلم أو رفع رؤوسهم. إنهم لم يُعاملوا معاملة سيئة، ولكن كانت هناك حاجة لتعليمهم التحدث ورفع أبصارهم عن الأرض. وكانت احدى نتائج الغاء بريطانيا لتجارة الرقيق ادخال عادة اعتاق العبد إن هو طلب ذلك على أرض بريطانية. وهكذا كان العبد ينال حريته بمجرد دخول فناء سفارة أو قنصلية بريطانية ولمس سارية العلم.

وحتى نهاية الخمسينات ومطلع الستينات من هذا القرن كان نحو ٣٠ عربياً في السنة يدخلون فناء الوكالة البريطانية في دبي للامساك بسارية العلم وطلب اعتاقهم. وكان هؤلاء ومعظمهم من النساء يُمنحون وثيقة مزخرفة مكتوبة باللغتين العربية والانجليزية تقول «ليكن معلوماً لكل من يرى هذا أن حاملها... وعمره نحو... قد تم اعتاقه ولا يحق لأحد أن يتدخل في حريته / حريتها». التوقيع «الوكيل السياسي لحكومة جلالتها». وحتى نهاية الستينات

كان هذا يحدث، أحياناً بإيحاء من أسياد العبيد الذين باتوا يعتبرونهم أفراداً في الأسرة. وبالطبع لم يكن جميع العبيد سعداء في حياتهم وعملهم، واختر بعضهم طرقاً عنيفة للتعبير عن استيائهم. ففي عام ١٨٩٦، سُجل عدد كبير من الحرائق في أبو ظبي، ووقع الشك على العبيد، وعندما تم القاء القبض على عبدة وهي متلبسة، أُعدمت في الحال. وعلى الرغم من جهود الكابتن تومسون الحميدة، استمرت تجارة الرق في الخليج لمدة طويلة بعد وفاته عام ١٨٦٩. وكان حاكم الشارقة مثلاً يفرض ضريبة بمقدار ٤ دولارات ماريا تيريزا على كل عبد يدخل دولته، مع انه كان يقول بأنه عاجز عن فعل أي شيء لوقف هذه التجارة!

عندما وصلت المعاهدة التي صاغها تومسون الى بومباي أثارت كثيراً من الانزعاج، لأن الحاكم العام الجديد كان يحبذ سجن جميع كبار القراصنة وتدمير موانئهم وإبقاء قوات وسفن حربية بريطانية في الخليج بصورة دائمة للحيلولة دون إنبعاث القرصنة من جديد. ولكن المعاهدة كانت قد أُبرمت وهكذا قام الحاكم ومجلسه بالمصادقة عليها في شهر أبريل (نيسان)، وعُهد للكابتن تومسون وجنود شركة الهند الشرقية الموقرة بالاشراف على الأمور في رأس الخيمة، ولكن لفترة قصيرة. فسرعان ما خطر للحاكم بأن احتلال بريطانيا الدائم لميناء في البر سيُفسر على انه محاولة لبسط نفوذ بريطانيا على قلب شبه الجزيرة العربية، في حين كانت غايتها المعلنة هي ضمان طرق المواصلات البحرية فقط. وهكذا صدرت الأوامر بتدمير رأس الخيمة ونقل القاعدة الى جزيرة قشم التي قال السلطان سعيد بأنها أرض عمانية. وعلى الرغم من المتاعب التي واجهت الحامية البريطانية والتي تمثلت في نقص الماء وبالأمراض وبالاستياء، تم نقل الحامية من رأس الخيمة وقام البريطانيون بتدمير تحصيناتها. وبعد أن تم اخضاع ساحل القراصنة، سمح البريطانيون للسلطان سعيد بأن يقنعهم بالمشاركة في حملة لاخضاع احدى قبائله المتمردة. لقد كانت هذه كارثة أدت في النهاية الى احالة الكابتن تومسون الى محكمة عسكرية زادت من عزم الحاكم ومجلسه في بومباي على تجنب أي تدخل في شؤون بر شبه الجزيرة العربية. ومن بين العوامل التي ساهمت في

ذلك الحالة المفزعة للحامية التي تُركت في قشم، ومطالبة الشاه بإزالتها بحجة أن الجزيرة كانت أرضاً فارسية.

وهكذا تم سحب الحامية في يناير (كانون الثاني) واستبدالها بنظام اعتمد على فرقة بحرية مكونة من خمس طرادات مهمتها مراقبة الموانيء وطرق المواصلات البحرية لضمان عدم عودة القراصنة. وأصبح الشيخ سلطان بن صقر أسمى حاكم على الساحل وسمح له في النهاية بإعادة بناء رأس الخيمة. وتم التخلي عن نظام تخليص البضائع في الميناء وحمل السفن للوثائق بعد ان اتضح بأنه غير قابل للتنفيذ. وسرعان ما بات بند الكابتن تومسون الخاص بالعبودية في طي النسيان. وعاش الشيخ سلطان حتى عام ١٨٦٦، وعلى الرغم من أنه كان دائماً يستغل كل فرصة لتوسيع رقعة نفوذه أو قوته، إلا أنه التزم بالمعاهدة مع بريطانيا وكان يحث حكام الساحل الآخرين على التحلي بالاعتدال.

وبالطبع لم تمت القرصنة، ولكنها أصبحت بعد توقيع المعاهدة مسألة حالات فردية بدلاً من مهنة تمارسها دول. وعندما كانت تحدث، كانت معالجتها أسهل وكانت السفن التي تُكتشف متلبسة بالجريمة تُهاجم في الحال، وكان الشيوخ عادة راغبين في تسليم سفن القراصنة التي كانت تلجأ الى موانئهم، خوفاً من العقاب.

كان صموئيل هينيل، المقيم البريطاني في الخليج من عام ١٨٢٦ حتى ١٨٥٤، هو الذي ابتكر النظام الذي منح اسمه لما كان يُسمى بساحل القراصنة. ففي عام ١٨٣٥ اقنع مختلف الشيوخ بتوقيع معاهدة تُحرم جميع الأعمال الحربية في البحر أثناء موسم صيد اللؤلؤ، الأمر الذي كانت فيه مصلحة للجميع. وبعد تلك السنة قرر الشيوخ تمديدها لسنة أخرى بعد أن تبينت مزايا ذلك للجميع. واستمروا على ذلك النحو حتى عام ١٨٤٣ حين تقرر تمديدها لتشمل السنة بكاملها بدلاً من موسم واحد وجعلوا مدتها عشر سنوات بدلاً من سنة واحدة. وعندما نفذت هذه المدة عام ١٨٥٣ وقّع الشيوخ على «هدنة دائمة». وهكذا وُلد الاسم «عُمان المهادنة» أو «الدول المهادنة»

(علماً بأن الترجمة التي شاعت للمصطلحين الانجليزيين كانت «عُمان المتصالحة» و «الدول المتصالحة» ـ المترجم). وبالطبع ان مجرد توقيع المعاهدة لم يضع حداً للقرصنة التي كانت مصدر رزق للكثيرين من سكان الخليج، الا انها سهّلت عملية العثور على القراصنة ومعاقبتهم، وعنت ان الشيوخ كانوا غير راغبين في السماح للقراصنة باستعمال موانئهم خوفاً من العقاب.

وهكذا تم ارساء نمط السيطرة البريطانية في الخليج التي دامت ١٥٠ عاماً. ولكن في حين كانت البحرية الملكية البريطانية وشركة الهند الشرقية تُرسيان أسس تفوّق البريطانيين في الخليج بإخضاع ساحل القراصنة، بدأت المنافسات المحلية في الأماكن الأخرى من الخليج تتأسس وكان من شأنها أن تدوم لمدة طويلة. وكانت الدولتان المعنيتان الى حد بعيد هما البحرين وقطر، اللتان أصبحتا عدوتين لدودتين نتيجة لأحداث جرت في عام ١٧٦٠. ففي تلك السنة هاجرت عدة عشائر من قبيلة العتوب من الكويت الى الزبارة على ساحل قطر التي كانت قرية صيد صغيرة، وسرعان ما أصبحت مركزاً تجارياً وخاصة بعد أن استولى الفرس على البصرة عام ١٧٧٦، عندما انتقلت عائلات عديدة من كبار التجار العرب الى الزبارة بسبب موقعها المركزي وحكم آل خليفة المتسامح، الذين لم يفرضوا رسوماً جمركية على البضائع وكانوا يُرحبون بكل من يرغب في العيش وممارسة التجارة هناك. واعتبر الفرس تطور الزبارة تهديداً لهم، فحصلت اشتباكات نظّم العتوب في قطر نتيجة لها حملتين على البحرين التي كانت آنذاك في أيدي الفرس.

نجحت الحملة الثانية التي تمت عام ١٧٨٣ في احتلال الجزيرة وأسس الشيخ احمد بن خليفة الأسرة الحاكمة التي لا تزال تحكم البحرين حتى اليوم. ولكن، وكما هي طبيعة السياسة العربية، نشب خلاف مع عائلة أخرى من العتوب هم الجلاهمة التي ساعدت آل خليفة على احتلال البحرين. ثم رفضت الاعتراف بسلطتهم في الجزيرة. وعاد الجلاهمة الى قطر ولكن ليس لبيوتهم القديمة في الزبارة التي كانت لا تزال خاضعة لحكم آل خليفة من

عاصمتهم الجديدة: المنامة. وبنى الجلاهمة بقيادة رحمة بن جابر عاصمة جديدة لهم وأقسموا بأنهم سينتقمون من آل خليفة يوماً ما. وكانت هذه بداية صراع استمر عبر القرون ولا يزال قائماً حتى يومنا هذا تحت السطح، على الرغم من جميع التصريحات الودية. وكان رحمة يبدّل تحالفاته تكراراً بحثاً عن أي تأييد من شأنه أن يساعده على الانتقام من البحرينيين، وفي النهاية لقي مصرعه، كما عاش، على ظهر سفينة أثناء معركة ضد عتوب البحرين: فعندما أدرك بأنه على وشك أن يُهزم قام بتفجير نفسه برفقة ابنه البالغ من العمر ثماني سنوات!!

وأجبر البريطانيون البحرينيين، الذين كانوا آمنين في جزيرتهم الحصينة ومهددين في نفس الوقت من قبل حكام غيورين بسبب موقعهم وازدهارهم، على الانضمام الى المعاهدة العامة لعام ١٨٢٠، وبما أن نفوذ قطر وازدهارها كانا قد تداعيا بحلول هذا الوقت، اعتبرت شبه الجزيرة هذه تابعة للبحرين وأنه لم تكن هناك حاجة لاتفاقية خاصة معها. فكانت النتيجة قاسية بالنسبة لقطر: ففي عام ١٨٢١ قامت سفينة بريطانية بقصف الدوحة قصفاً شديداً عقاباً على أعمال قرصنة قيل أنها نُفذت من قبل سفن تتخذ منها قاعدة لها. وبعد ذلك بسنة عندما زار المقيم البريطاني في الخليج، الملازم مكلاود، الدوحة وجد بأن السكان وزعيمهم كانوا يجهلون تماماً سبب القصف الوحشي الذي تعرضوا له. وليس من المدهش أنه وجد بأن السكان مستعدون للالتزام ببنود المعاهدة العامة عندما شُرحت لهم.

ومرة أخرى واجهوا متاعب عام ١٨٤١ عندما لجأ القرصان جاسم بن جابر الرقرقي سيء الصيت الى الدوحة. ولحقته مجموعة من السفن البريطانية هددت بإطلاق النار ما لم يتم تسليم سفينة جابر ودفع غرامة على إيوائه. وأطلقت عدداً من الطلقات التحذيرية فوافق الزعيم سليمان بن ناصر على ذلك. وتم إحراق سفينة جاسم، وعندما لم يتمكن سكان الدوحة من جباية الغرامة بالكامل، وافق البريطانيون على دفعها عيناً، بما في ذلك حلي فضية وذهبية وسيف.

إن أرقش مرحلة في تاريــخ البحــرين هي تلك التي سبقت السيــطرة البــريــطانيــة: فالبرتغاليون الذين كانوا يواجهون ضغوطاً صعبة في أنحاء الخليج ومن العثمانيين على ساحل البحر الأحمر، تم طردهم من البحرين من قِبَل الفرس بقيادة الشاه عباس العظيم عام ١٦٠٢ ميلادية. ودام ذلك الحكم ١٠٠ عام الى أن استولى عليها العثمانيون الذين نصبوا أحد أتباعهم حاكماً عليها. واسترد نادر شاه حظوظ الفرس، الذين احتلوا البحرين مرة أخرى عام ١٧٥٣ واحتفظوا بها الى أن نزل آل خليفة في عسكر عام ١٧٨٣ ـ ولقد أصبح هذان الاحتلالان للبحرين أساساً لمطالبة ايران بالبحرين، تلك المطالبة التي تخلى عنها الشاه محمد رضا بهلوي عام ١٩٧٠. ومنذ ذلك الحين دأب آية الله خميني على التحــدث عن «حق» ايران في البحرين كلما أراد أن يُرعب حكام الخليج.

في ذروة قوة الوهابيين في القرن الثامن عشر جُعلت قطر والبحرين والقطيف مقــاطعــة واحــدة خاضعة لحاكم وهابي، وأُجبر آل خليفة على دفع الجزية والاعتراف بالسيادة الوهابية. واستغل سلطان عُمان سعيد فرصة انشغال الوهــابيــين بحملة محمد علي لمهاجمة قطر وأحرق العمانيون الزبارة. فترك الوهــابيون البحرين وقطر، واعتقد آل خليفة أن بإمكانهم أن يستقلوا مرة أخرى. ولكن السلطان سعيد أصر على أن يدفعوا له الجزية. ومع أنهم هزموا قوة غازية كان قد أرسلها ضدهم، إلا أنهم أُجبروا عام ١٨٢٠ على الانضمام الى المعاهدة العامة البريطانية والاعتراف بسيادة السلطان سعيد، وما كان هذا الشيء يحدث لولا أنهم نظروا اليه على أنه الحليف الرئيسي للبريطانيين.

أُعطي النفوذ البريطاني في البحرين الذي بدأ بمعاهدة عام ١٨٢٠ طابعاً رسميــاً عام ١٨٦١ في اتفاقية اعترفت بريطانيا بموجبها بآل خليفة حكاماً للبحــرين المستقلة وضمنت الدولة ضد أي عدوان خارجي. ومــع أن هذه الاتفاقية لم تمنح بريطانيا حق التدخل في الشؤون الداخلية، إلا أن السلطات البريطانية في ذلك الحين لم تتردد في فعل ذلك: وهكذا كان البريطانيون هم الذين أطاحوا بمحمد آل خليفة عام ١٨٦٨ ونصبوا أخاه علياً في مكانه بحجة

أن محمداً كان ضعيفاً وغير قادر على تسوية الخلافات المحلية المستمرة التي كانت تتحـول الى أعمـال عنف. وعنـدما قتل علي نفسه في احدى الحروب القبلية، كان البريطانيون هم الذين اختاروا خلفه: عيسى بن علي.

في عام ١٨٨٠ كانت قوة من البدرينيين المنشقين الذين كانوا يقيمون في المنفى تستعد لغزو الجزيرة الرئيسية للإستيلاء على السلطة. وعندما سمع الحـاكم بالمـؤامـرة طلب المسـاعدة من بريطانيا. وتم إرسال سفن حربية بريطانية الى هناك وكما جاء في تقرير قائدها «أمّنت الموقف».واستغل المقيم البـريـطاني هذه الفـرصـة لانتزاع واحدة من تلك المعاهدات التي يهواها البريطانيون: اتفاقية خاصة نصت على ما يلي:

«أنا عيسى بن علي آل خليفة، ألزم نفسي وحلفائي في البحرين تجاه الحكومة البريطانية بالامتناع عن الدخول في أية مفاوضات أو عقد معاهدات مهما كان نوعها مع أية دولة أو حكومة، عدا الحكومة البريطانية ...». وفُرضت اتفاقيات مماثلة عام ١٨٨٧ و ١٨٨٨ على حكام دول الخليج الأسفل. ونادراً ما ظهرت هناك حاجة للقيام بأعمال مباشرة لفرض سيادة بريطانيا، ولكن عندما حدث ذلك، كانت هذه الأعمـال سريعـة ووحشيـة وغـالباً ما كانت للأسباب غير الاسباب المعلنة. وهكذا عندما كانت جماعة من البحرينيين المنفيين تستعد في الزبارة لشن حملة جديدة ضد البحرين عام ١٨٩٥، قامت السفن البريطانية بتدمير ٤٠ سفينة واستولت على ١٠٢ سفينة أخرى تم أخذها الى البحرين. وكان السبب الحقيقي لهذا العرض للعضلات هو أنه قبل سبع سنوات قام والي البصرة التـركي مدحت باشا بزيارة قطر وأنشأ هناك حامية عسكرية ومحـطة لتزويد السفن بالفحم، وفي وقت لاحق رابطت سفينة حربية تركية قبالة الزبارة. وهكذا تعيّن على أصحاب السفن العربية أن يعانوا كي تتمكن بريطانيا مرة أخرى من عرض تفوقها في الخليج.

وبنفس الطريقة تقرر في عام ١٩١٠ تنصيب وكيل بريطاني في دبي من أجـل وقف عمليات تهريب السلاح التي بدأت تزدهر هناك. وحتى في ذلك الحين، لم يكن الوكلاء السياسيون محبوبين دائماً، وهكذا تم ارسال سفينة

حربيـة أنزلت مجموعة من البحارة الى الشاطىء من باب الحيطة، إلا أن المســألة تحـولت الى كارثــة. فبينمــا كان ضباط السفينة الحربية هيسنث يرافقون الوكيل السياسي الى الشاطىء سمعوا بأن هناك أسلحة مخزونة في بيتـين. وفي الحــال تم إنزال ٧٠ بحاراً وجندي مشاة من السفينة. وعندما اقتــرب هؤلاء من البيت الأول أُطلقت عليهم النــار. فردوا على النار بالمثل. وانضمت اليهم مدافــع السفينــة. وعنـدمــا انتهى هذا الاشتباك الصغير والقبيح، تبيّن أن ١٤ بريطانياً و ٣٧ عربياً لقوا حتفهم فيه. حدث هذا عشية عيد الميلاد. وبعد ذلك بثلاثة أيام جاء الأدميرال السير ادموند سليد، قائد الأسطول البريطاني في الخليج ومعه المزيد من السفن. وأمر بتسليم ٤٠٠ بنـدقيـة ودفــع غرامــة مقـدارهــا ٥٠,٠٠٠ روبية وقبول الوكيل السياسي البريطاني وفتح مكتب للبريد. وتبيّن وثائق وزارة الهند بأن شيخ قطر أذعن بسرعة للطلبين الأولين لدرجة أنه تم اسقاط الطلبين الآخرين. وهكذا لم يتم تعيين وكيل سياسي هناك الا بعد مرور نصف قرن تقريباً على هذا الحدث.

لقـد كان لجميــع أحداث القرن التاسع عشر هذه دور في رسم خريطة الخليــج بعد ١٥٠ عاماً. إن الحدود التي رُسمت في العشرينات من القرن الماضي ليست بالحدود النهائية، الا انها كوّنت إطاراً لما حدث في ما بعد. وفي منتصف القرن العشرين ثبت بأنه كانت للنزاعات التافهة التي بدت أموراً مُسليّة لشيوخ صغار في الخليج، نتائج عملية هائلة. فلقد حددت ملكية آبار البترول التي تعني اليوم الثروة والنفوذ.

الجزء التاسع

بقايا الماضي

يجري عادة تفسير الحياة والثقافة في مكان ما بلغة الجغرافيا والبيئة التي يعيش فيها المجتمع: وهذا صحيح بكل تأكيد في الخليج. فمن غابر العصور تأثر الناس هناك بالظروف القاسية في المنطقة: مثل الحاجة الدائمة للبحث عن ملجأ من الشمس المحرقة والى العثور على الماء والى الانتقال كل بضع شهور طلباً للكلأ الذي كانت تعتمد عليه مواشيهم. وبما أن الخليج كان دائماً طريقاً بين الشرق والغرب، كان سكانه يلتقون بأبناء شعوب أخرى، فيتعرفون على أفكار جديدة وعلى أساليب عمل حديثة. وأدى هذا الى تطور وإبداع مستمرين، في حين حافظت الصحراء غير المتغيرة حيث كانت القبائل تعيش، حافظت على القيم الأساسية.

إن الصحراء والبحر هما التأثيران التوأمان اللذان كونا شخصية سكان الخليج، على الرغم من اعتمادهم الحالي على البترول والثروة التي يجلبها. فتأثير البترول لا يزيد على نصف قرن، وهو أقل من ذلك في أماكن عديدة، في حين أن الصحراء والبحر، وإيقاع تواتر الرياح الموسمية والمسحة الخضراء التي تغطي الأرض لفترة قصيرة من كل سنة تعود الى غابر العصور ـ منذ أن تراجع البحر بما فيه الكفاية حتى تكتلت الضفاف الرملية الى ارض وصحراء.

وقبل أن أبحر نيارخوس بأسطول الاسكندر الكبير في شط العرب بوقت طويل، عرف السومريون الخليج بإسم البحر الأسفل مقارنة بالبحر الابيض المتوسط الذي كان يُسمى بالبحر الأعلى. وسماه الصينيون بحر فارس وأصبح يُعرف في القرن السابع عشر بإسم خليج البصرة، الأمر الذي دل على تعاظم شأن ذلك الميناء وقتذاك. وفي العصر اليوناني لم تزد المنطقة عن كونها مساحة رُسمت بصورة هشة في الخرائط البدائية لذلك الحين، مهمة فقط

بالنسبة للجغرافيين في أثينا وللجنود وللتجار الذين كانوا يرسلون قوافلهم الى هذه البلاد الغامضة.

ولم يتم بناء أول مستوطنة يونانية في الخليج إلا بعد فتوحات الاسكندر الكبير عام ٣٢٠ قبل الميلاد وكان ذلك على جزيرة فيلكة، على بعد ٢٤ كيلومتراً عن مدينة الكويت. سماها اليونانيون إيكاروس وشيدوا فيها معبداً لأرتيميس. ومن الأرجح انها لم تزد على كونها معسكراً دائماً لبعض جنود الاسكندر والنساء الواتي استولوا عليهن أثناء حملاتهم. ولكن فيلكة أصبحت أكثر أهمية بسبب تواجد جيوش الاسكندر في فارس وبلاد ما بين النهرين. وبينت عمليات الحفر على أنه كانت هناك أولاً مستوطنة قريبة من الشاطىء وعلى مقربة منها معبد وحرم. ثم انتقل الناس الى الداخل وبنوا حصناً، مما أكد على أنه كانت للجزيرة قيمة عسكرية واستراتيجية علاوة على كونها قاعدة أو معسكراً للاستراحة. ولقد دامت مدة طويلة كما تؤكد ذلك التحف التي عثر عليها علماء الآثار الكويتيون، كما أن المباني والتماثيل تعود الى فترات مختلفة.

لقد كانت إيكاروس بكل تأكيد بلدة منظمة تمتعت بحكم محلي جيد وبمرافق عامة حسنة وبترتيبات جيدة لامتلاك الأرض. ويحمل لوح إيكاروس الحجري الذي ربما كان حاكم سوسا الفارسية قد أرسله الى أناكسارخوس، نائبه في الجزيرة يحمل أوامر مختلفة وتوجيهات تبيّن الطريق الأبوية والمتطورة التي كانت تُدار بها المستوطنة. قيل لأناكسارخوس «ليكن همك أن تسود العدالة بين الرجال وأن لا يتعرضوا للظلم أو يطردوا. واذا أراد بعضهم ممارسة الفلاحة في الجزيرة، امنحهم الأرض على أساس أن تصبح ملكاً عائلياً بعد أن يكونوا قد حرثوها وزرعوها. دعهم أيضاً يتمتعون بالحرية من الضرائب تماماً كما آباؤهم من قبل». والافتراض هو أن هذا اللوح الذي يعود الى مطلع القرن الثالث قبل الميلاد، كان توجيهاً تم إرساله فوراً بعد أن تحولت إيكاروس من مخيم عسكري الى مستعمرة، وربما كانت الاقتراحات بخصوص ملكية الأرض قد أُعدت بقصد إغراء الناس على الاستيطان هناك،

تماماً كما تُمنح الاعفاءات الضريبية اليوم لاقناع الشركات بإقامة المصانع في مواقع جديدة.

وقبل أن يأتي اليونانيون الى الخليج بوقت طويل. كانت هناك مستوطنات بدائية في الأماكن القليلة الصالحة للسكنى مثل العين في واحة البريمي. ولقد تم العثور هناك على أدوات تعود الى العصر الحجري وهناك دليل قوي على وجود مستوطنة في الواحة تعود الى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد تقريباً. والى الجنوب من المدينة الحالية، وعلى سفح جبل حفيت، يشهد صف من القباب على انه كان هناك مجتمع ريفي. وتم العثور على مستوطنة أخرى في أم النار في أبو ظبي، موقع أول مصفاة بترول في دولة الامارات، تعود الى عام ٢٧٠٠ قبل الميلاد. دلت الحفريات هناك على وجود مجتمع مديني له بُنية اجتماعية واضحة المعالم قبل ٥٠٠٠ سنة تقريباً. وعثر الجيولوجيون في أم النار على أول دليل على تدجين الجمل، واستنتجوا أيضاً بأن سكان الجزيرة جعلوا مدينتهم مركزاً تجارياً للقبائل في العين، وكانوا يتاجرون مع بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس وحتى الباكستان. ودامت مستوطنة أم النار لبضع مئات من السنين، ولكنَ بيوتها الحجرية المنظمة والبيّنة على التجارة مع أماكن بعيدة، دلت على نمط الحياة في الخليج عبر العصور.

ونمت واندثرت موانىء ومدن مثل أم النار، والى الجانب الغربي من سلسلة جبال الحجر التي تفصل دولة الامارات العربية عن عُمان، أقيمت مستوطنات لاستغلال التجارة، وفّرت طريق مواصلات مريحاً الى المناطق الجنوبية الخصبة للسعودية، أو عبر الممرات الى عُمان نفسها. ولقد تم العثور على آثار في دبا وصحار العمانيتين تؤكد على هذا النمط، وكذلك في غليلة، الى الشمال من رأس الخيمة وبالقرب من دبي ودلت ألواح مكتوبة بالحروف المسامرية عثر عليها في بلاد ما بين النهرين على أنه كانت هناك تجارة مزدهرة بالنحاس «من بلاد مجن» التي يُعتقد اليوم بأنها المنطقة الكائنة حول العين ووادي الجزي المجاور في عُمان. ويبيّن عِجل ذهبي عُثر عليه في قطر، يشبه تحفاً من نفس النوع عثر عليها في أور الكلدانية، كيف دفع تجار بلاد ما بين النهرين ثمن البضائع التي عادوا بها.

دلت الدلائل الأثرية على أن موانيء مثل دبا كانت تتاجر مع سيلان (سري لانكا) والصين بحلول القرون الأولى للميلاد، وعلى أن جميره القريبة من دبي كانت المحطة الرئيسية للقوافل القادمة من جنوب ـ غرب شبه الجزيرة العربية وهي في طريقها الى بلاد فارس. أما دبا فقد خبا نجمها في فجر الاسلام بعد أن ظهر فيها مُرتد بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، اذ هزمت قوات الخليفة جيش هذا المتمرد في السهل خارج المدينة التي دُمرت. ولم تسترد دبا مجدها: إن المدينة اللطيفة والبديعة الحالية هي أصغر بكثير من المدينة الأصلية التي تم تحديد خريطتها بالتصوير الجوي. إن سكانها اليوم هم مزارعون وصيادو أسماك، وفي الماضي كانوا أعظم تجار مغامرين في عصرهم، إذ أن اكتشاف آلاف الكسر من الأواني الصينية دل على أن بحارة دبا قاموا بالرحلة الى كانتـون، الميناء الصيني الذي دأب البحارة العرب على زيارته بانتظام في رحلة تستغرق ستة أشهر. وكانت جلفار واحدة من المحطات على الطريق البري المحاذي لجبال الحجر الغربي. ولقد احتل البرتغاليون هذا الميناء العظيم عندما فرضوا سيطرتهم على الخليج في بداية القرن السابع عشر. وكانت جلفار القريبة من رأس الخيمة في وقت لاحق مركزاً للتحالف القاسمي.

إن آثار الماضي في الخليج هي قليلة، لأن سرعة التغيير هناك عنت بأنه لم يكن هناك متسع من الوقت، أو لم تكن هناك الخبرة أو الارادة للتنقيب عن تاريخ منطقة تبدو عديمة الملامح. ومع ذلك فهناك بعض الأشياء الواضحة: لقد كان الخليج حتى بداية عصر البترول همزة الوصل الرئيسية بين الشرق الأوسط والبلدان الأوروبية التي كانوا يتاجرون معها، ومع الشرق الأقصى والباكستان والهند وبنغلاديش وسري لانكا والصين. لقد مر الرحالة العربي العظيم ابن بطوطة بالمنطقة واستحسن الفطنة التجارية لدى أهلها وازدهارها. وكتب تاجـر انجليزي زار ميناء هرمز في بداية القرن السادس عشر عندما كانت تسمى هرمز الجديدة وكانت واقعة في جزيرة جارون بأنها كانت تستورد جميع احتياجاتها لأنها كانت خالية من الماء، وحتى الخضروات كانت تستورد من جزيرة قشم: «هذه بكل تأكيد هي أجف جزيرة في العالم. لأن شيئاً لا ينمو فيها سوى الملح فقط»!!

تمت أول عمليات حفر للتنقيب عن الآثار في الخليج قبل ٢٣ سنة فقط ومن المؤكد أنه لا يزال هناك الكثير مما يجب عمله في هذا المجال. بيد انه من المؤسف حقاً أن الكثير من الآثار التاريخية طُمست الى الأبد تحت العمارات والبنايات الغريبة الأشكال التي بُنيت من الاسمنت المسلح في أبو ظبي ودبي والكويت والشارقة. وبينما تهب الرياح في الشوارع الواسعة ويدور الحديث عن نفاد البترول، قد يخطر ببال المرء، اذا بقي العالم على قيد الحياة، أن المؤرخين في المستقبل ربما يلاحظون القفزة في الوقت الذي بدا فيه أن دول الخليج حققت أهمية عالمية، مخلفة وراءها صروحاً عجيبة دلالة على مجدها الذي لم يدم وقتاً طويلاً. واذا ضاعت السجلات في كارثة ما، ربما يبحث المنحدرون من أهل الخليج عن صلات بين البُنية الهرمية لفنادق شيراتون في الخليج والأهرامات في الجزيرة بمصر. وسيستنتجون بلا شك أن الحضارات المصرية التي أنتجت الأهرامات كانت متقدمة جداً على الحضارات التي حاولت تقليدها وخلفت تلك البنايات الرديئة!!

وكالعادة، فالبحرين وقطر تشذان عن القاعدة. فتاريخ قطر موثّق جداً وهناك دلائل معتبرة على الماضي، والسبب في ذلك الى حد بعيد، هو أن التطور هنا جاء متأخراً وكان أبطأ وخضع لسيطرة أفضل. وفي البحرين هناك معرفة أكثر بالتاريخ لأنها وبعكس قطر، كانت تقع دائماً على طريق مواصلات رئيسي، يمر بها المسافرون على الدوام وينقلون أخبارها. وتم في قطر اكتشاف عدد أكبر من آثار انسان العصر الحجري من أي مكان آخر في المنطقة، نحو ٢٠٠ موقع. وتشير الدلائل الى وجود جماعات صغيرة من الصيادين هناك عاشت في مستوطنات على الساحل لمدة ألف سنة تقريباً، حتى عام ٦٠٠٠ قبل الميلاد. ثم ساءت الظروف المناخية واضطر السكان الى تبني حياة البداوة. وفي العصر الاسلامي طرأت زيادة طفيفة على كميات الأمطار مكنت الناس مرة أخرى من البقاء في مجتمعات مستقرة.

وفي المرحلة المبكرة من الاستيطان في قطر، توحي الدلائل بأن انسان العصر الحجري انتمى لما أصبح يُعرف باسم ثقافة عُبيد، نسبة الى موقع في جنوب العراق. والعُبيديون هم أسلاف الحضارة السومرية، خلفوا وراءهم

جراراً مميزة تحمل أشكالاً هندسية رُسمت باللونين البني والأحمر، علاوة على رؤوس حراب صنعت من الصوان وغيرها من الأدوات المتقدمة نسبياً، والتي كانت صنواً لقطع أثرية وجدت في الطرف الآخر من الخليج، مما يوحي بأن البحر تقدم كثيراً بعد هذه الفترة. ودام العبيديون نحو ٧٠٠ سنة في الألف الرابع قبل الميلاد، أي الى أن حل محلهم السومريون، ولكنهم ربما بقوا مدة أطول في قطر بسبب العزلة التي فرضتها عليهم التغيرات المناخية.

والشيء الغامض هو من الذي جاء بعدهم في شبه الجزيرة ذات البيئة القاسية هذه؟ لأنه لا تزال توجد في قطر احدى الأحجيات الأثرية القليلة الباقية: اذ توجد بمحاذاة الساحل الشرقي سلسلة من النقوش الصخرية تعذّر تحديد عمرها، وهناك أيضاً صهاريج محفورة وحفر ربما استعملت لتثبيت أعمدة الخيام، وثلمات متوازية ربما استعملت لنوع من الألعاب؟! إن أفضل افتراض هو انها سبقت فجر الاسلام، ولو أن هذا غير مؤكد. انها بلا شك فذة وجديرة بالمشاهدة، ويبعد بعضها عن الدوحة مسافة ٨ كيلومترات فقط. وتبين هذه الرسومات رجالاً على ظهور خيول وجمال. وتوجد في جبل جساسيه رسومات لمراكب ومجاذيف ومراسي وصهاريج محفورة.

عثر المنقبون عن الآثار في البحرين على كنزهم الأعظم وواجهوا أكبر مهمة، وعثروا على شيء يحبه جميع المنقبين عن الماضي، جدال مستمر قد يشغل الباحثين مدى حياتهم: هل كانت البحرين هي بلاد دلمون القديمة؟ واذا كان الأمر كذلك فإلى أين امتدت؟ وهل كانت الجزيرة وليست بلاد ما بين النهرين كما يعتقد الكثيرون هي موقع جنة عدن؟ إن مثل هذه الأسئلة هي التي تثير الجدل الحاد في المجلات الجدية للغاية. ان ما هو أكيد هو أنه كان هناك مكان يدعى دلمون ذُكر كثيراً في الألواح المنحوتة بالأحرف المسمارية التي تعود الى العصور البابلية والسومرية ـ منذ الألف الثالث قبل الميلاد وحتى عهد سايروس العظيم.

ومما يزيد المسألة تعقيداً أنه يبدو أنه كانت هناك دلمونتان: دلمون الخرافات والأساطير، بلد الخلود وملتقى الآلهة و منشأ السومريين: وصفت دلمون في لوح قديم عثر عليه في نبور في العراق على أنها «المكان الذي لم يُسمع

فيه نعيق الغراب وحيث لم ينطق طائر الموت بصيحة وحيث لم يفترس الأسد فريسة وحيث لم يمزق الذئب حملاً وحيث لم تهدل حمامة، وحيث لا توجد أرملة، ولا مرض ولا كبر في السن ولا عويل». ومع ذلك يبدو أنه كانت هناك دلمون حقيقية، مكان فيه ملوك ونبلاء وتجار، مدينة كبيرة لها ديانتها الخاصة. كيف تحولت الواحدة الى الأخرى ومتى وعلى أيةمساحة؟ هذا أمر من اختصاص الباحثين. ان الذكر الرئيسي لدلمون الأسطورية، حيث استقر زيوسودرا، نوح السومري الذي نجا من الطوفان، هي في ملحمة قلقاميش العظيمة التي تصف عهد الملك قلقاميش الذي قام بالرحلة الخطرة الى دلمون بحثاً عن الخلود الذي شعر بأنه من حقه. وربما كُتبت الملحمة قبل ٥٠٠٠ سنة تقريباً، في بداية الألف الثالث قبل الميلاد وتطرقت الى الأزمنة «عندما كان العالم فتياً ولم تكن الخليقة قد بدأت منذ مدة طويلة». ومع اكتشاف المزيد من الألواح المكتوبة بالحروف المسمارية في نينوى ونبور ـ أكثر من ٢٥,٠٠٠ لوح ـ تغيرت دلمون بالتدريج من مكان خرافي الى كان حقيقي، ميناء تحط فيه السفن ومستودع تجاري عظيم.

وجد العلماء في مخطوطات أشورية تعود للألف الثاني قبل الميلاد روايات عملية أكثر تتحدث عن سرجون العظيم الذي كان قد احتل معظم بلاد ما بين النهرين والخليج والذي ذكر بأن سفناً من دلمون كانت تزور عاصمته الجديدة: أجادي. ولقد حُدد موقع دلمون في احدى المخطوطات: «على بعد ٣٠ ساعة مزدوجة، أو بيرو، في أرض الشمس الساطعة». ولقد تم تقدير البيرو على أنه مسافة ١٠,٧ كيلومترات. وهكذا تكون دلمون على بعد ٣٢١ كيلومتراً الى الجنوب الشرقي من... أين؟ يبدو أن لا أحد يعرف ذلك بالضبط ولكن اذا كانت المسافة صحيحة فإن قول البحرين بأنها دلمون يبدو ضعيفاً. وفي الواقع، للصلة بين المكانين أسس أقوى: فقد تم العثور في الجزيرة عام ١٨٧٩ على كتابة بالحروف المسمارية تعود الى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، تذكر الاله إنزاك على أنه رئيس قبيلة أجارات. ولقد تم تعريف إنزاك على أنه إله دلمون في الكتابات البابلية. وبمجرد أن تم الربط بين البحرين ودلمون، فإنه يمكن العثور على أدلة ظرفية تؤيد هذه النظرية، وبوجه خاص تطابق السلع التي

كان تجـار دلمـون يتعاملون بها والبقايا التي تم العثور عليها في البحرين: النحاس والذهب والعاج والديوريت (صخور بركانية). هناك دلائل كثيرة على أن البحرين كانت مأهولة قبل تأسيس دلمون، حوالي عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ـ هذا اذا كانت هي بالفعل دلمون. فهناك نوعان مميزان من الأدوات الصوانية تبيّن كيف خلفت حضـارة متطورة الانسان البدائي جداً. فالطبقة الأولى، وتوجد على الخصوص على خط يمتد جنوباً من طريق عوالي ـ الزلاق، حوالي ميلين في الداخـل، والتي ربما كانت الشاطىء قبل ٨٠٠٠ عام، هي أدوات بدائيـة للغـايـة، عبارة عن سكاكين بسيطة ورؤوس فؤوس، الخ، جميعها مصنوعة من الصوان الموجود بكثرة في الجزيرة. وتم العثور في مواقع أخرى على أدوات متطورة أكثر، مثل المناجل المسننة ورؤوس الحراب والخ.

ويبدو أن أول فترة عظيمة بدأت في الجزيرة نحو عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد والى ذلك التاريخ تعود آلاف القبور المبعثرة في الجزئين الغربي والشمالي من الجـزيرة، والتي تشكلّ أكبر مقبرة في العالم تعود الى فترة ما قبل التاريخ (المـدوّن). إن عددها الهائل، عشرات الآلاف، يوحي بأنه كان من حق كل مواطن ان يُدفن في ضريح مبني من الحجر، مما يدل على ازدهار وتنظيم المدينة.

إن إحدى مآسي البحرين هي انه تم حتى الآن حفر عدد صغير من القبور وكانت النتائج مخيبة للأمل.ولقد أدى التطور العمراني الجزيرة الى فقدان بعضها الى الأبد. وفي القبور القليلة التي تمر العثور فيها على بقايا، كانت الهياكل العظمية مضطجعة على جوانبها وركبها مثنية ورؤوسها متجهة نحو الشرق، بنفس وضع البقايا التي تم العثور عليها في بلاد ما بين النهرين والتي تعود الى فترة الألف سنة الثالثة قبل الميلاد. وتم وضع أوان في القبور، من جرار حمراء طويلة وبعض المزهريات ضيقة الأعناق والمزخرفة بخطوط أفقية. وتام العثور على أوان شبيهة بالقرب من قرية بربار، حيث تم العثور على بقايا معبد بني من حجر جيري. وتبيّن المقارنة بين ما عُثر عليه هناك ما تم العثور عليـه في بلاد ما بين النهـرين على أن المعبد ربما كان قيد الاستعمال عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد وانه هُدم وأعيد بناؤه مرتين بعد ذلك. وللدلالة على مدى

الحضارة في البحرين في ذلك الحين، هناك أيضاً بلدة كاملة بالقرب من القلعة البرتغالية تم استكشافها بصورة جزئية. واتضح بأن بعض الطبقات كانت معاصرة للمعبد في بربار، في حين دلت الطبقات السفلى على حضارة تعود على الأقل الى ٥٠٠ سنة قبل ذلك.

وثمة احتمال آخر هو أن الخط المسماري ربما تم اختراعه في البحرين وصُدّر منها الى بلاد ما بين النهرين ووادي إندوس حوالي عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد. ودام ازدهار البحرين لمدة ألف عام تقريباً، وفي حوالي عام ١٧٠٠ قبل الميلاد قامت قبائل معادية بغزو الباكستان ودمرت مدن وادي إندوس التي كان تجار البحرين يتعاملون معها، فانقطعت الواردات التي كان البحارة يعتمدون عليها وفُرض على البحرين نمط تجارة جديد اعتمد على اللؤلؤ والتمور التي باتت تشتهر بها. ومكنها هذا من البقاء على قيد الحياة، الا انه عنى نهاية عظمة البحرين: فتم تدمير معبد بربار واندحرت عادة دفن الأموات في أضرحة بنيت بعناية. وكانت هناك فترات ازدهار مع تطور التجارة مع عُمان والاتصال بالهند في وقت لاحق. ولكن دلمون ـ اذا كانت البحرين هي دلمون ـ دُمجت في الامبراطورية البابلية نحو عام ٦٠٠ قبل الميلاد التي سرعان ما استولى عليها الفرس.

وهكذا فإن الأمل في التوصل الى اكتشافات جديدة لا يزال قائماً في البحرين وقطر. ولكن الخليج مكاناً واسعاً وكان طريقاً منذ غابر العصور، ولا بد أنه لا تزال فيه شواهد غير مكتشفة على الماضي. ومما لا شك فيه هو أن البحر تقدم وتراجع، وانه غمر مساحات شاسعة، ثم انسحب تاركاً بعض المجتمعات المعزولة عن البر. وربما توجد هناك في مكان ما مدينة تحت الرمال. وربما قامت الرمال المتقدمة بطمس الأشياء المخفية أكثر فأكثر. إن انعدام وجود خرائط قديمة للخليج هو سبب آخر لقلة المعلومات عن الداخل. وهذا بكل تأكيد واحد من آخر التحديات التي تواجه علماء الآثار، ولقد قبله هؤلاء نتيجة لتشجيع الحكومات المختلفة.

وربما يكون البحر نفسه مجزياً أكثر، لأنه كان حقاً طريق تجارة العالم منذ أن تجرأ الانسان على ركوب البحر في مراكب مصنوعة من القصب أو جلود

الحيـوانات. وكم كان هذا العمل خطراً! فالخليج هو مكان فيه مياه ضحلة وضفاف رملية وجزر نصف مغمورة، يتغير موقعها بعد كل عاصفة. أضف الى ذلك الضباب والعواصف المفاجئة، ولا بد أن معدل الاصابات كان هائلاً عبر العصور.

وحتى في عصرنا هذا، فإن الملاحة في الخليج ليست بالنزهة. وفي الماضي كانت القوارب الصغيرة تبحر بمحاذاة الساحل حتى تتمكن من التزود بالماء والطعام. ولم تحدد الجغرافيا طرق التجارة فحسب بل انها حددت تصميم القوارب والموانىء. فالمراكب ذات الغاطس المسطح والسارية المائلة والشراع الوحيد كانت مثالية للاندفاع أمام الريح. لذا كان المركب يخرج في الموسم المؤاتي لأن ملاحيه كانوا يعرفون أية رياح يمكنهم أن يتوقعوا.

جرى أول مسح للخليج بعد المعاهدة العامة لعام ١٨٢٠ وقامت به سفن تابعة للبحرية البريطانية واستغرق خمس سنوات، وتبعه آخرون، الى أن تم إعداد خريطة عامة للخليج تتكون من ورقتين من قبل الكابتن سي. كونسْتابل والملازم ستايف وكان ذلك عام ١٨٦٠. وبالطبع لم تنتظر السفن البخارية هذه الخريطة قبل أن تدخل هذه المياه المربحة. وكانت أول من فعلت ذلك حسب السجلات هي أي. إن. إس هيولندسي عام ١٨٣٨ وشرعت سفن شركة الهند البريطانية في القيام برحلات منتظمة الى الخليج عام ١٨٦٢. ولقد احتكرت هذه الشركة التجارة مع الخليج في الأيام المبكرة، وقامت بمبادرتها بوضع عوامات وأضواء لارشاد السفن. وكان المشرفون على المنارة في مضيق هرمز حتى السنوات القليلة الماضية من مستخدمي الحكومة الهندية التي كانت قد أخذت على عاتقها مهام صيانة مُعينات الملاحة في الخليج عام ١٩١٠. وعندما استقلت الهند، انتقلت هذه المسؤولية الى هيئة اضائة الخليج الفارسي التي كانت تموّل عن طريق رسوم تدفعها السفن التي تزور موانىء الخليج. وخلفت هذه المنظمة عام ١٩٦٦ هيئة مُعنيات ملاحة الشرق الاوسط التي قامت بوضع أجهزة ارشاد تعمل بالراديو، علاوة على الأضواء والعوامات لمساعدة الاعداد المتزايدة من الناقلات الضخمة التي اصبحت بحلول هذا الوقت أكبر عدد من السفن التي تستعمل هذا الممر المائي.

واليوم هناك العديد من المشاريع الخليجية المشتركة بما فيها وكالة للأنباء وشركة للملاحة وشركة للطيران، ولكن في الماضي فصلت الجغرافيا الناس عن بعضهم البعض. وصحيح أن البدو كانوا يرحلون من مكان لآخر دون أي اعتبار لأية حدود وطنية، إن وجدت، وأن القوافل كانت تستعمل الطريق الساحلي وهي في طريقها من العراق أو تعبر الصحراء الى نجد والحجاز، في حين كان البحارة يزورون بانتظام موانىء الخليج. بيد أن هذه كانت جماعات متخصصة من الناس، وكان الاتصال بين المجتمعات الحضرية قليل بسبب العزلة التي فرضتها عليها الصحراء.

لقد كان البدو هم الذين ساهموا كثيراً في تحديد الحدود الأولى للخليج بواسطة نظام دفع الزكاة أو الضرائب أو ولاءهم لشيخ أو لحاكم معين. فتم تحديد حدود الكويت في مؤتمر العقير نتيجة للحاجة الى تحديد حدود امتيازات التنقيب عن البترول. وكانت البحرين كياناً يمكن تعريفه بسهولة، باستثناء النزاع حول الزبارة وحوار. وكان بالامكان تحديد حدود قطر بسهولة لكونها شبه جزيرة وبسبب علاقة حكامها الوثيقة بإخوانهم الكبار في السعودية. لقد ظهرت المشاكل الحقيقية في الامارات ولا تزال قائمة حتى يومنا هذا الى حد ما. فكيف يمكن لمرء أن يحدد حدود مساحة ٩٢,١٠٠ كم تزيد نسبة الصحراء فيها على ٧٠ بالمائة؟ وكيف يمكن للمرء أن يتحقق من ولاء رجال يقضون ثمانية أشهر من كل عام في الرحيل، ويجوبون أراضي السعودية وعُمان والامارات نفسها؟

قررت بريطانيا حل هذه المشكلة عندما بدا من الواضح أن هناك احتمالاً كبيراً لاكتشاف البترول، وأن المنافسة التقليدية بين الشيوخ ستتفاقم بلا ريب عندما سيحدث ذلك. وكان من السهل تحديد ولاء السكان المستقرين: فواحة ليوا هي بكل وضوح جزء من ابو ظبي وكان سكانها دائماً موالين لحاكم أبو ظبي. كذلك كانت قرى العين الست بينما كانت القرى الثلاث الأخرى في البريمي تابعة لعُمان. وبالنسبة للباقي كانت هناك بلبلة، وبدا للكثيرين بأن الطريقة التي كان يعمل بها البريطانيون زادت من تلك البلبلة.

واستناداً للروايات المحلية، كان خبراء الشؤون العربية الشباب في وزارة الخارجية البريطانية يقضون أسابيعاً في زيارة القبائل أو ينصبون خيامهم بالقرب من بئر أو بستان نخيل في انتظار من يأتي. وعندما كان الناس يأتون، كانت القهوة تقدم وتجري دردشة حذرة، ثم يسأل الدبلوماسي البريطاني ضيوفه لمن من الشيوخ يدينون بالولاء. ويقوم بموجب ذلك بوضع علامة على الخارطة. ولكن في الواقع لم يكن الأمر كذلك. إن الرجال الذين قاموا بمعظم العمل هم جوليان ووكر، الذي أصبح فيما بعد سفيراً في اليمن، ومارتين باكْماستَر. ففي مطلع الخمسينات من القرن الحالي بدأ جوليان ووكر بناء على تعليمات من لندن في اعداد خريطة للساحل المتصالح وأنهى هذا العمل باكْماستَر في الستينات بعد أن قضى أربع سنوات في الميدان في مسح حدود المملكة العربية السعودية وأبو ظبي والحدود بين رأس الخيمة وعُمان، علاوة على تسوية الخلافات المحلية. إن ما قام به هذان الرجلان هو تسجيل الوضع كما وجدوه وليس محاولة فرض الحدود. ولهذا السبب تبدو خريطة الامارات كالأحجية.

والسبب المباشر لذلك هو أن شيوخ الساحل كانوا قد قاموا بشراء الأراضي في جبال الحجر الباردة أو في المنطقة الخصبة المحاذية للخليج العربي. وكانوا يرسلون خدمهم للاقامة هناك والعناية بها. وأصبحت هذه المزارع أو الأطيان كيانات مستقلة عما حولها وبمرور الزمن توسعت بشراء المزيد من الاراضي وكسب ولاء من حولها من الناس. وهكذا قام ووكر وباكماستر بتدوين كل ذلك بصبر ومهارة. وكثيراً ما كانوا يعانون نفسية بالنسبة لبئر أو بستان نخيل. وكانوا يعقدون اجتماعات للرجال المسنين في منطقة ما لسماع آرائهم حول حقوق الرعي أو ملكية الآبار. وبعد أن كان يتم رسم حد ما بقلم رصاص على الخريطة، كانت هناك مفاوضات طويلة مع الحكام المعنيين. وبطبيعة الحال لم يقبل أحد منهم ما كان يُقدم اليه. وكان كل منهم قادراً على تقديم مستندات قديمة ورجال مسنين وخدم لاثبات أن بئراً معيناً أو بستان نخيل كان تابعاً له لأجيال عديدة.

وفي نهاية المطاف تعذر تحديد بعض الحدود، فأقيمت مناطق محايدة لا

يزال بعضها قائم حتى اليوم. وربما يعود ذلك الى أنهم تجنبوا بجذر وضع علامات للحدود على الأرض وهكذا لم تخلق المناطق المحايدة عقبة في وجه حركة سكان المنطقة. والمكان الوحيد الذي وضع فيه مارتين وباكماستر علامات للحدود كان في جنوب البريمي، بمحاذاة الحدود مع السعودية كانت عبارة عن أعمدة معدنية في قوالب اسمنتية. وحتى هذه العلامات اختفت منذ زمن بعيد، بعضها أكله الصدأ والبعض الآخر استعمله البدو لغرض ما!! ويتذكر اللورد باكسماستر، الذي قضى ١٢ عاماً في العمل الدبلوماسي في الشرق الأوسط، بحنين عملية رسم الخرائط.

وبالتدريج تمت تسوية هذه الأمور مع انشاء دولة الامارات العربية المتحدة. وكما هو الحال، تكوّن أبو ظبي وأم القوين فقط وحدات متكاملة. أما البقية فلها أراضي في الامارات الأخرى ومطالبات ضد جاراتها أو تشاركها في مناطق محايدة. وأبو ظبي هي أكبرهن الى حد بعيد اذ تشكل مساحتها نسبة ٨٧ بالمائة من مساحة دولة الامارات. وباستثناء واحة العين وواحة ليوا، تُعتبر دولة الامارات الى حد ما عديمة الملامح، الى أن يصل المرء منحدرات سلسلة جبال الحجر الشاهقة التي تقطع الجزء الأعظم من دولة الامارات عن عُمان، مخلفة الفجيرة وحدها على الساحل الشرقي. ولم تعترف بريطانيا بالفجيرة كدولة مستقلة الا في عام ١٩٥٢، في حين كانت تعترف بكلبا، التابعة اليوم للفجيرة، كدولة منفصلة حتى تلك السنة. وترتبط الآن شبكة من الطرق الممتازة الفجيرة بالامارات الأخرى. وهناك طريق ساحلي يمتد شمالاً حتى دبا الواقعة في الجانب الشرقي من شبه جزيرة مسندم وشعم الواقعة على الساحل الغربي. وحتى تلك الدرجة من التغلغل في جبال مسندم التي تشبه سطح القمر كانت لا تتصور قبل سنوات قليلة عندما كانت العادة تقضي بأن يطلق المرء رصاصة من بندقيته ان هو أراد أن يدخل احدى قرى الشوحوح. فكان الناس يخرجون لاستقبال ضيفهم غير المتوقع.

الجزء العاشر

خليج الغد

● تعاظم أهمية المنطقة ● المنافسة بين القوى العظمى ● عوامل التماسك بين الدول ● تأثير الأجانب ● الخليج: خط المواجهة العالمي سنة ٢٠٠٠

كانت احدى الخطوات الحكيمة التي قام بها الرئيس كارتر في بداية عهده هي اصدار أمر باعداد دراسة عن الاتجاهات المحتملة في الفترة المتبقية من القرن العشرين والتكهن بالشكل الذي سيكون عليه العالم عام ألفين. وبعد خمس سنوات من الدراسات والأبحاث التي قام بها أبرز العلماء والباحثون الأميركيون، نُشر تقريرهم وكان تقريراً كئيباً. اذ قالوا بأن العالم سيكون سنة ٢٠٠٠ أكثر ازدحاماً وتلوثاً وأقل استقراراً من الناحية البيئية، وأكثر عرضة للقلاقل من عالمنا اليوم. وإن الضغوط السكانية الشديدة والضغوط على الموارد وعلى البيئة باتت واضحة من اليوم. وعلى الرغم من الزيادة المادية في الانتاج، فسيكون سكان العالم من نواح عديدة أفقر مما هم عليه اليوم. إن هذه الصورة القاتمة مبنية على الحقائق الحالية وربما يكون هذا التصوّر خاطئاً، لأن هناك أموراً غامضة لا يمكن التكهن بها.

تتصور الدراسة الأمريكية زيادة عدد سكان العالم بنسبة ٥٠ بالمائة مع نهاية القرن الحالي، الأمر الذي سيعني المزيد من الازدحام في المدن وتفاقم الهوّة بين الأغنياء والفقراء. وسيرتفع إنتاج المواد الغذائية بنسبة ٩٠ بالمائة في حين ستتضاعف التكاليف بسبب الحاجة الى تكثيف الأساليب الزراعية لتعويض تطاول المدن على الأراضي الزراعية. وسيستمر اجتثاث الأشجار

وستتعرض الموارد المائية لأقصى حد من الاجهاد. وستعاني الطبيعة المزيد من التلوّث!!

ماذا سيعني هذا بالنسبة للخليج؟ من الواضح ن الكثير يتوقف على ما سيحدث للطلب العالمي على البترول وأشكال الطاقة الأخرى. والتقدير هو أنه بحلول عام ٢٠٠٠ سيشكل البترول نسبة ٦ بالمائة فقط من موارد الطاقة القابلة للاسترداد، وسيشكل الغاز الطبيعي نسبة ٥ بالمائة. وسيعني تطوّر التكنولوجيا بكل تأكيد أن الحقول التي تعتبر اليوم غير مجدية من الناحية الاقتصادية ستكون لها حياة أطول. ولكن من الأرجح أن الانتاج العالمي للبترول سيبلغ ذروته عام ١٩٩٠ عندما سيبلغ ٨٥ مليون برميل في اليوم. ومن تلك السنة فصاعداً، من المتوقع أن يكون انتاج الطاقة دون احتياجات العالم. ولا يعني هذا بأنه سيتعيّن على دول الخليج أن تخفّض انتاجها، بالعكس، إن انتاج دول كالكويت والامارات والسعودية من البترول لن يواجه بكل تأكيد قيوداً فنية قبل عام ٢٠٠٠. فمن المقدّر أن يستمر إنتاج الكويت بالمعدل الحالي، (١,٥ مليون برميل في اليوم) حتى عام ٢١٠٠، وبإمكان دولة الامارات أن تستمر لمدة أطول بكثير.

ولكن أحداً لا يعلم علم اليقين ماذا سيحدث، فقد يجعل اكتشاف حقول بترول جديدة أو أساليب فنية حديثة أو تغير في الطلب جميع هذه التكهنات عديمة الفائدة. ولكن كما قالت مجلة «بتروليوم اكونوميست» الموثوقة ان ما هو أكيد هو ان التخطيط بعيد المدى يجب أن يقوم على الافتراض بأن صادرات أوبيك ستنخفض مع نهاية القرن الحالي في حين أن طلب العالم الحر سيستمر في التصاعد. ولاحظت المجلة بأن احتياطي العالم الحر الأكيد من البترول هو ٥٨٥ بليون برميل وأن حصة آوبيك منه هي ثلاثة أرباع هذا الرقم، في حين أن حصة بلدان الشرق الأوسط وحدها تبلغ أكثر من ثلاثة أخماس. وهكذا فإن اعتماد الغرب المتزايد على بترول أوبيك ـ مع انخفاض انتاج بحر الشمال وأميركا ـ يعني في الواقع اعتماداً على بترول العرب. وسيعني هذا ازدياد أهمية منطقة الخليج بمرور السنين وسيتعاظم نفوذ أكبر المنتجين فيها وهم الكويت والسعودية ودولة الامارات، ليس فقط في الغرب.

فحسب التكهنات الحالية سيحدث نقص في موارد الطاقة في المعسكر الشرقي في المستقبل القريب، وسيتعين على الاتحاد السوفياتي وحلفائه أن يستوردوا كميات متزايدة من البترول لتغطية ذلك النقص. وهكذا ستتنافس الدولتان العظميان مباشرة على مصادر الطاقة! ولقد تم ادراك ذلك في المعسكرين منذ زمن طويل، وفي الواقع لعب هذا بهدوء دوراً كبيراً في تكوين استراتيجية البلدين في الشرق الأوسط. فقابل المحاولات السوفياتية ايجاد مناطق نفوذ في المنطقة بواسطة معاهدات مع العراق وسوريا، علاوة على المبالغ الهائلة التي أُنفقت على تعزيز موقعها في اليمن الجنوبي، سعي أمريكي لجعل السعودية، وبالتالي دول الخليج الأخرى، حليفة حميمة. ومع ذلك فعلى الرغم من جميع مكائد الدولتين العظميان، فإن أحداثاً خارجة عن سيطرتهما هي التي ستهيىء على الأرجح المناخ الذي سيتعينّ عليهما أن تسعيان فيه وراء تحقيق أهدافهما. فمن المحتمل مثلاً أن يؤدي السعي وارء تحقيق الوحدة في الخليج الى قيام كيان جديد أقل تفتحاً على الأفكار الأمريكية أو النفوذ الأمريكي.

إن الرغبة في الوحدة موجودة بالتأكيد في الخليج، ولو أن الغرب يستخف بها. ويعود هذا الاستخفاف الى حد بعيد، الى فشل الغرب في أخذ الركن الآخر للسياسة في الخليج على محمل من الجد وهو الركن المتمثل في التصميم على ابعاد المواجهة بين الدولتين العظميين عن المنطقة. وهكذا قررت دول الخليج بأنها لن تكون قادرة على الدفاع عن نفسها ما لم تكن قوية. ومن المحتمل أن تقوم دول مجلس التعاون الخليجي (السعودية والكويت والبحرين وقطر وعمان والامارات) بإقامة اتحاد فدرالي في غضون العشرين سنة القادمة وأن تقوم بدمج قواتها معاً.

من سيكون سكان الخليج عام ٢٠٠٠؟ يبدو أن الجواب هو أن سكان الخليج سيختلفون تماماً عن سكانه اليوم. إن ٩٩ بالمائة من مواطني الخليج اليوم هم من مواليد هذه البلاد الجافة واحتمال استمرار هذا الوضع بعيد. فمعظم أهالي البلدان المعنية يشكلون بالفعل أقلية السكان، ومع استمرار الاعتماد على اليد العاملة الأجنبية فإن نسبة الأهالي ستقل بمرور السنين. وهكذا سيعتمد الكثير على تطورات المستقبل، وبالنظر الى معارضة الرأي

العام لاقامة صناعات جديدة تتطلب المزيد من الأيدي العاملة الأجنبية، فمن المحتمل أن تصبح المجتمعات الخليجية أكثر استقراراً. وسيزداد الضغط من أجل المساواة في الحقوق. وفي نفس الوقت سيكون هناك جيل جديد من الحكام عنده قابلية أكثر للاصغاء لصوت الشعب، كل الشعب. وستكون النتيجة أن القطري أو الكويتي أو البحريني ربما كان أصله من الباكستان أو تايلاند أو حتى كوريا! إن التزاوج بين الأجناس المختلفة قد بدأ بالفعل ومن المحتمل أن يصبح الخليج عالمي الطابع أكثر من البلدان الأخرى. وفي نفس الوقت من المحتمل أن تكون هناك رغبة أقوى بين الأهالي في المحافظة على تراثهم وهكذا فربما يصبح الخليج مجتمعاً طبقياً، يتزاوج فيه الأهالي فيما بينهم ويحافظون على عاداتهم وتقاليدهم. إن ظهور نظام طبقي في الخليج سيعزز مكانة أولئك الذين هم في القمة، أي الأغنياء وأبناء الأسر الحاكمة. ولقد ظهرت هناك طبقة وسطى، تتكون من رجال درسوا في الغرب. وهذه الطبقة من التقنقراطيين هي التي ستسعى للمحافظة على التراث.

لن يكون التطور في الخليج متماثلاً. فقطر ستحذو دائماً حذو السعودية وربما ستصبح في المستقبل احدى مناطق السعودية. فهي مرشحة أكثر من غيرها من دول الخليج لما يعادل «ثورة عبيد» وعندها ستتوجه الى السعودية طلباً للمساعدة. والسعودية نفسها هي بطبيعة الحال المفتاح لمستقبل جميع المنطقة. فإذا تمكنت من المحافظة على نظامها الحالي يمكن لحكام الخليج الآخرين أن يناموا مطمئني البال. واذا تمت الاطاحة بآل سعود فلن يعود أي حاكم أو شيخ في مأمن. وكل الدلائل تشير الى النظام السعودي سيدوم طويلاً بسبب ازدهار المملكة المستمر وتقبل آل سعود للاصلاح.

إن اهتمام القوتين العظميين بالخليج سيستمر، وبتقلص الموارد البترولية سيزداد تشبث الغرب بالمنطقة. وأوضح الرئيس كارتر موقف بلاده من مستقبل الخليج حين قال «ليكن موقفنا واضحاً تماماً. ان محاولة أية قوة خارجية كسب السيطرة على منطقة الخليج الفارسي ستعتبر هجمة على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية...» ولقد تبنى الرئيس ريغان هذا الاعلان ضمنياً. ويدرك حكام الخليج أن الولايات المتحدة هي التي

ستدافع عنهم في نهاية المطاف ولكنهم لا يريدون أن يكون ذلك واضحاً للعالم. انهم يريدون ما تم وصفه في مطلع الثمانينات، «وجوداً وراء الأفق»، أي قوة أمريكية قريبة ولكن غير منظورة. انهم بلا شك لا يريدون جنوداً أمريكيين على أراضيهم.

وهكذا نعود الى الافتراض الأساسي وهو أن الخليج سيكون خط المواجهة بين الشرق والغرب في القرن الحادي والعشرين. لقد غيّرت الثروات الهائلة وغير المتوقعة وجه الخليج في القرن العشرين وربما سيطالب مصدر هذه الثروات بثمنها في القرن الحادي والعشرين!